أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٨٥٤) جمادى الأولى ١٤٣٥هـ - مارس ٢٠١٤م

50 عاماً من العطاء

ثقافتنا وحرية التفكير والإبداع

الخوف من الإسلام.. مسؤولية من؟

مؤسسة علال الفاسي.. منارة المغرب الثقافية

الفكر الإصلاحي عند الإمام الشاطبي

التعصب والغلو.. آفة تحتاج إلى مراجعات (ملف العدد)

الجامعة النظيمية..
تلم الشمل وتؤهل طلبة الشريعة

مجاناً مع العدد «براعم الإيمان»

الافتتاحية

كناطح صخرة

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

كلف الله الخلق بعبادته، وجعل ما تعبدهم به سبحانه مأخوذا من شرع مسموع، وعقل متبوع، ولذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله، فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فبلغهم رسالته، وألزمهم حجته، وبين ما كان مجملا، وفسر ما كان مشكلا. وكان من رأفته بخلقه، وتفضله على عباده، أن أقدرهم على ما كلفهم، ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ..﴾ (البقرة: ٢٨٦). ﴿...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ..﴾ (الحج: ٧٨).

لقد جاء الإسلام بالدين الوسط، وحذر من الوكس والشطط، ولعل أبرز خصائص هذا الدين، الوسطية والاعتدال، والبعد عن الغلو والابتذال، ولا إفراط ولا تفريط، وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، ويسر الإسلام وتيسيره، سمة من سماته، ومن حكمة بعث النبي ﷺ، رفع الإصر والأغلال الواقعة بالأمم قبلنا، والحرج ليس من مقاصد الشرع، واليسر والتسهيل من مقاصده ﴿..يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ..﴾ (البقرة: ١٨٥).

فالغلو والتنطع والتشدد والعنف، آفة قديمة في جميع الأمم السابقة، وقد كانت هذه الآفة سببا لهلاكها، ومن أجل ذلك جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، محذرة ومبينة ما يترتب على الغلو من أضرار. ومن أسباب الغلو والتنطع والتشدد، قلة العلم والتفقه بالدين، والاستعلاء والتكبر، وعدم الثقة والاقتداء بأهل العلم، وضيق الأفق، واتباع الهوى.

فالغلو مشقة وعنت، وإن أصر صاحبها على المنهج الهدام، وتغافل النصيحة وتعود الخصام فحاله:

كناطح صخرة يوما ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فالحذر الحذر من فعل يمنع منه الشرع، أو من ارتكاب ما يظن عزيمة وهو خطيئة، واحذر جمود النقلة، وانبساط المتكلمين، وجموع المتزهدين، وشره أهل الهوى، وهؤلاء لم يفهموا معنى العلم، وليس العلم صور الألفاظ، إنما المقصود فهم المراد منه، وذاك يورث الخشية والخوف، نسأل الله عز وجل يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٥ | جمادى الأولى ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
مارس ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

أكبر الجامعات الإسلامية في سريلانكا تؤهل طلابها من دارسي الشريعة لنقل المعارف الأصيلة بروح معاصرة.

٦

ثقافتنا وحرية التفكير والإبداع

٢٤

التعصب.. مفسد للدين والدنيا

٦٠

براعة المنهج القرآني في استيعاب تزاحم المعاني

٧٨

كيف يتجنب المستهلك التأثير على نفسيته؟

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار
●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠درهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

كلمة العدد

تعصب

كان من فضل الله علي أنني عشت أنفر من التعصب، وأعتبره جناية على حرية الإنسان وتفكيره وفهمه المتزن للأمور.. بل إنه ليحول الإنسان إلى شبه حيوان نافر جامح، يدوس بحوافره كل ما أمامه، حتى في إيماني بديني ومبادئه، لا أؤمن به إيمان متعصب، يثور ويحرق ويدمر الجسور حين يصطدم بمن يخالفه فيه، بل أؤمن بأن الرفق مع المخالف وتقدير ظروفه يثمر أكثر مما يثمر التعصب الجارف إن كان لمثل هذا التعصب ثمرة حلوة.

ومن كراهيتي للتعصب ونفوري منه عشت لم أقيد نفسي بحزب أو هيئة، برغم اشتغالي بالأمور الدينية والوطنية، لأنني كنت أعتبر التقيد بآراء حزب أو هيئة وتبعيتي لهما يحد من حرية التفكير عندي، ويجعلني أحيانا أقاد بهذه التبعية في أمور أكرهها ولا أؤمن بها.. فقد تكون مبادئ الحزب أو الهيئة مبادئ طيبة، ولكن تنفيذها سيئ تطغى عليه المصالح الشخصية، أو التفكير الأسود للقائمين عليها. وحينئذ أجد نفسي مدفوعا لكي أؤيد هذه المصالح وأصحابها في غير حق أو مصلحة عامة.. فلذلك كنت طول حياتي أعمل في خدمة ديني ووطني الصغير والكبير بعيدا عن التعصب والانتساب لمنظمة، أو كما كنت أقول: أعمل لأهدافي «من منازلهم» وكثيرا ما رثيت لحال التابعين المتعصبين، ولحال أولئك الذين يخوضون المعارك من أجل الأهلي أو الزمالك أو العربي أو غير ذلك من النوادي.. ويسألني أولادي أحيانا: أنت مع من؟ فأقول: مع اللاعب الجيد.. ولو انهزم فإنني أرثي لحاله.

ولكنني مع ذلك أجدني أحيانا متعصبا ومغاليا في التعصب، وذلك حين أجد التسامح الذي أبديه يقابل بالتعصب الأحمق من الجانب الآخر.. وحين أجد أن الغير يستغل تسامحي فيؤوله إلى ضعف، وحين أجد الغير يتعسف معي أو مع غيري لمجرد أنني أو أن ذلك الغير مسلم.

د. عبد المنعم النمر
رحمه الله
أول رئيس تحرير

المحتويات

٣	افتتاحية/ كناطح صخرة	فيصل يوسف العلي
٦	ثقافة/ ثقافتنا وحرية التفكير والإبداع	د. أمان قحيف
١٠	حوار/ الشيخ كامل سميع الله مفتي تترستان	مهدي عبدالستار
١٣	مرض السكر	د. محمد عزيز الرحمن
١٤	أخلاق/ أدب العلماء مع الله	رشيد الحسن
١٦	اقتصاد/ تجليات حفظ الشريعة لمقصد المال	د. أمينة مزيغة
١٨	تراث/ مخطوطات دور الكتب المغربية	ياسين محمد كتاني
٢١	تحقيق/ الخوف من الإسلام.. مسؤولية من؟!	ريهام عاطف
٢٤	ملف العدد/ التعصب.. مفسد للدين والدنيا	السنوسي محمد
٢٨	ملف العدد/ الإيغال في دروب التدين: حالة جنوح..!	د. محمد سعيد باه
٣٠	ملف العدد/ التحصين الفكري ضد التشدد	د. إبراهيم نويري
٣٢	ملف العدد/ غلو العلمانية	محمد شعبان أيوب
٣٨	استطلاع/ مؤسسة علال الفاسي.. منارة المغرب الثقافية	رئيس التحرير
٤١	أنباء الكتب/ الوقف الإسلامي.. فنون إدارته والدعوة إليه	د. عيسى القدرمي
٤٢	دراسات/ مذاهب العلماء في طرق التخلص من تعارض الأدلة	د. صالح النهام
٤٦	دراسات/ القوادح الكاشفة عن الخطأ في الاعتبار بالقاعدة الفقهية	د. لخضر بوغفور
٥١	دراسات/ الفكر الإصلاحي عند الإمام الشاطبي	د. عبدالرحيم باحمو
٥٦	لغة وأدب/ بين ديموقراطية زكي وأرستقراطية تيمور	صلاح رشيد
٥٨	لغة وأدب/ القول المأثور في إحياء الصواب المهجور(١٩)	عبدالله الأعشير
٦٠	لغة وأدب/ براعة المنهج القرآني في استيعاب تزاحم المعاني	د. خالد فهمي
٦٣	لغة وأدب/ المتنبي.. شاعر العربية ولسانها الحكيم	التحرير
٦٤	تنمية/ ١٠ طرق لمواجهة الإحباط واليأس	د. آندي حجازي
٦٦	حوار/ د. عبدالفتاح إدريس أستاذ الفقه المقارن	إسلام لطفي
٦٩	أسرة/ أب فقد معناه	محمد عبدالقادر
٧٠	أسرة/ التفوق الدراسي.. فن المنافسة على القمة	منى الشريف
٧٢	أسرة/ الطفل بين الكذب والخيال	صبحة بغورة
٧٤	أسرة/ أهمية العربية عند أطفالنا	د. مصطفى رجب
٧٦	حضارة/ محكمة المياه في بلنسية	محمد إلهامي
٧٨	اقتصاد/ كيف يتجنب المستهلك التأثير على نفسيته؟	بشرى شاكر
٨١	تاريخ/ القراءة المتذوقة والفهم الصحيح	د. أحمد الشال
٨٤	استطلاع/ الجامعة النظيمية.. تلم الشمل وتؤهل طلاب الشريعة	عبادة نوح وعلاء عبدالفتاح
٨٨	طور نفسك	سلمان الكندري
٩٠	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش
٩٢	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي
٩٤	بريد القراء	-
٩٦	ينابيع المعرفة	تركي النصر
٩٨	مسك الختام/ الحكمة ضالة المؤمن	السيد زرد

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

ثقافتنا وحرية التفكير والإبداع

أ.د/ أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

لا نخال أن ثمة مقياسا تقاس به الثقافات أفضل من مدى حثها ودعمها لقضية حرية التفكير والإبداع. ولا نخال أن ثمة عاملا يدفع الأمم والشعوب إلى بناء الحضارات وصناعة التقدم أكثر من حرية التفكير التي تعزز القدرة على الابتكار. فالرأي عندنا أن الحضارة وليدة الإبداع، والتقدم صناعة التفكير.. إذ الحضارة -أي حضارة- تتقدم وتزدهر بقدر ما يتاح لعقول أبنائها من مساحات الحرية وفضاءات التفكير.

والثابت تاريخيا أن التقدم العلمي والتكنولوجي مُيسر ومتوقع للأمة بحسب اتساع مساحة الحرية المتاحة للعقول الباحثة أن تتحرك فيها وتبدع في إطارها، فما تفوقت أثينا على إسبرطة قديما إلا بما كان متوافرا لعقول أبنائها من حرية فكرية وأريحية في تقبل مختلف الآراء، الأمر الذي أفرز للبشرية أعظم مفكري الدنيا وأفضل أساتذة التفلسف والإبداع، من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو.. وما تقدم المسلمون قديما وما بنوا حضارتهم إلا من خلال الجو الفكري العام الذي أتاح لهم التفكير والاجتهاد ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل.. وما توقف مسار حضارتنا الإبداعي إلا بعد أن تعالت بعض الأصوات تهاجم التفكير والإبداع والإضافة والاجتهاد.. وما تقدم الغرب المعاصر وما تجاوزنا حضاريا إلا بما وفره لعقول أبنائه من مساحة شاسعة من حرية الإبداع والتفكير والطرح والتنظير.

والحق أن من يضع ثقافتنا وحضارتنا تحت المجهر ليتبين موقفها من حرية التفكير والإبداع لن يجد ما يتيح له أن يتجرأ عليها أو يتطاول على تراثها، ولن يجد ما يبرر له الزعم أو الادعاء بأنها كانت حضارة لا تمنح العقول حقها في التفكير أو لم تعط الباحثين حريتهم في البحث والدراسة والتحليل في أي مرحلة من مراحل تاريخها الطويل.

ونحن لا ننطلق في قولنا هذا من رؤية عاطفية أو اندفاعة قومية شوفينية؛ ذلك لأن تراث حضارتنا العربية الإسلامية فيه العديد والعديد من الأدلة والشواهد التي تثبت وتبرهن أن حرية الفكر، والتفكر، والتأمل، والتدبر قد مورست إلى أبعد مدى ممكن على مدى تاريخ ثقافتنا، ومسار حضارتنا، وحركية تاريخنا.

والحق أن التاريخ حدثنا، في وضوح وجلاء، أن ثقافتنا لم تلجأ قط إلى كبح جماح العقل الإنساني عن التفكير، ولم تعمد أبدا إلى وضع العراقيل أمامه حتى يتوقف عن ممارسة عمله الذي خلقه الله تعالى له، وما كان لها أن تفعل ذلك وإلا خالفت العديد من الأسس والثوابت التي دان بها المجتمع العربي الإسلامي على مدى تاريخه الطويل بفضل التوجيهات والإرشادات التي أكدها القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ومنها:

أولا - الإعلاء من شأن العقل

لا يختلف اثنان على أن الدين الإسلامي الحنيف قد تعامل مع العقل الإنساني باعتباره أسمى الملكات وأشرفها على الإطلاق.. وليس أدل على ذلك من أنه قد تم التعويل عليه في «أمور العقيدة والمسؤولية والتكليف، ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، وذلك ما يؤخذ من جميع الآيات القرآنية التي وردت الإشارة فيها إلى العقل. والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه، فهو يخاطب العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتأمل، ويعتبر، ويتعظ، ويحسن التدبر والرؤية» (١).

فالعقل في الإسلام هو المقياس، وهو الآلة، وهو الأداة التي يتمكن الإنسان باستخدامها من التخلص من الأوهام المنقولة، والأخطاء الموروثة، والأساطير الشائعة.. وهو بالتالي أعظم منح الله إلى الإنسان. ولا غرو أن يقول فيه الإمام الغزالي -يرحمه الله- (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م) إنه «أنموذج من نور الله»(٢).

من هذا المنطلق نستطيع الذهاب إلى أن الإسلام جعل العقل في صدارة الملكات الإنسانية، وقدّمه على غيره من آليات المعرفة وأدوات الإدراك، نظرا لأهمية دوره وضرورته في اكتساب المعارف وتعلم العلوم. فنحن لا نفهم النص المُنزّل -مثلا- إلا من خلال العقل، ولا نتمكن من التواصل مع المحسوسات بغير العقل، لأن «الحواس لا تستطيع بمفردها كمصدر خالص أن تقدم معرفة تامة الجوانب مكتملة الأركان، بل إن العقل هو الذي يقوم بالربط بين المعلومات التي تقدمها له الحواس» (٣). وبالتالي نستطيع الوصول إلى القوانين التي تحكم طبيعة الأشياء. والأمثلة على ذلك كثيرة «فمن دون العقل ما كان الإنسان يستطيع أن يدرك مثلا أن المعادن تخضع لقانون واحد»(٤)، ككونها تتمدد بالحرارة مثلا.

ونشير إلى أن «الإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرر أن إدراك الحقائق العليا في الدين والكون إنما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسددة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية بل إلى أحط من الحيوانية، ففي القرآن العظيم: ﴿.. لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ..﴾ (الأعراف: ١٧٩) (٥).

من هذا المنطلق يكون الإسلام قد رفع من شأن العقل وقدره، حيث جعله مناط التكليف، وجعله مصدرا مهما من مصادر المعرفة الإنسانية، الأمر الذي جعل ثقافتنا تضمن له حرية التفكير؛ لذا انتهى السابقون من العلماء إلى أن «المحافظة على العقل» تعد مقصدا أساسيا من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية.

ولا بد من التوقف هنا لنبين أن «مما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن حفظ العقل لن يكون له معنى من دون الحرية: حرية هذا العقل في التفكير والتعبير عن رأيه وطرح وجهة نظره من دون حجر على الرأي أو مصادرة للفكر.. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الحرية ترتبط دائما بالمسؤولية. فليست هناك حرية تخرج عن هذا النطاق، وإلا أصبحت الأمور فوضى

ولا ضابط لها ولا نظام.

والمسؤولية هي صمام الأمان لضمان البعد عن التجاوزات التي قد تثير الفتنة بين الناس أو تعكر صفو النظام العام للمجتمع، أو تعرض أمن الوطن للخطر.. إن الحرية هي قوام العقل، وافتقادها يعني إلغاء دور العقل، وإلغاء دور العقل يؤدي إلى تخلف الفكر، وبالتالي يؤدي إلى تخلف المجتمع. ومن أجل ذلك، فإن حفظ العقل يعني ضمان حريته وحمايته من أي عدوان على حقه في التفكير والتعبير»(٦).

وهكذا تبدو الحرية باعتبارها المناخ الوحيد المناسب لإعمال العقول وتنشيط الأذهان، بما تتيحه من أجواء عامة تساهم في تلاقح الأفكار، وتعدد الرؤى، وإفراز التصورات التي تؤدي إلى إثراء الحياة الإنسانية على مختلف صعدها، الثقافية والسياسية والتنموية والاجتماعية.

ثانيا - رفع القيود عن العقل

حرصت المرجعية الإسلامية على رفع القيود التي تحول بين العقل وتأدية مهامه في الدرس، والتعلم، والتدبر، والتفكر. وأكدت على حتمية إعطائه الفرصة كاملة لأن يجوب الآفاق باحثا، فاحصا، ناظرا، متأملا.. ووردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى وتشير إلى ضرورته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة:١٦٤).. وقال تعالى أيضا: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية:١٧-٢٠).. وجاء في المعنى نفسه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ..﴾ (فاطر:٢٧ و٢٨).. وقال تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (النحل:٦٦ و٦٧).. إلخ من الآيات البينات التي تفتح المجال واسعا أمام العقل الإنساني ليمارس مهامه التي خلقه الله تعالى من أجلها.

فالوحي القرآني من خلال الآيات السابقة -وغيرها كثير- يدفع العقل الإنساني دفعا باتجاه النظر، والدراسة، والتأمل، والتدبر في عوالم الحيوان، والنبات، والجماد، والإنسان، والطير، والجبال، والبحار، والمحيطات، والأفلاك وصولا إلى معرفة الله تعالى وإدراكا لوجوده من أجل اليقين به وعبادته وطاعة أوامره واجتناب نواهيه عن اقتناع وتصديق، مع سعي دائب ودائم لإعمار الكون وتنميته وإشاعة الخير فيه.

ولكي يتحقق ذلك كان لا بد من رفع العقبات والقيود التي تعترض طريق التفكير السليم والإدراك الواعي، ولعل من أبرز القيود التي رفعها الإسلام عن العقل الإنساني هو قيد «التقليد» للقدامى لمجرد كونهم قدامى كي لا يقع الإنسان في أسر الماضي ولا ينزلق إلى حضيض الانكفاء على الموروث... لقد عاب القرآن الكريم على من يتبعون القدماء منهم من دون تمحيص لآرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم، جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة:١٧٠).. وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (يونس:٧٨).. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف:٢٨).

هكذا رفض القرآن الكريم تقليد الآباء أو ذوي السلطان لمجرد كونهم كذلك.. ولقد تبنت ثقافتنا تلكم الرؤية حتى في مجال العقيدة والاعتقاد، لدرجة أن السابقين من علماء الأمة أدانوا إيمان المقلد وقالوا بأنه: لا يجوز الأخذ بالتقليد في الاعتقاد إن كان صاحبه قادرا على النظر والتأمل والتدبر.. قال الإمام البيضاوي (ت ٧٩١ هـ) في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا..﴾ (يونس:٣٦) «إن تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز»(٧).. ومعلوم أن علماءنا انطلقوا في ذلك من وعيهم بأن الإيمان يجب أن يقوم على الاقتناع والتصديق مع الوعي بمفهوم الإيمان وقضاياه الأساسية.

ولقد رفضت السنّة المطهرة هي الأخرى للمسلم أن يكون مقلدا للآخرين من دون وعي أو طول تفكير أو حسن إدراك، حيث حذرنا النبي

المصطفى ﷺ من ذلك في قوله: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا» (٨).

ثالثا - ندرة الضوابط على التفكير والإبداع

كان لإفساح الإسلام المجال للعقل كي يمارس العملية الإبداعية وينمي قدراته فيها، مع عدم وضع أي حجر عثرة أمامه في هذا السياق، أثره الكبير في أن يتركه يصول ويجول في جنبات الكون والوجود ما شاءت له الظروف ذلك وما أتاحت الإمكانات والأحوال له من فرص للانطلاق الفكري والتجوال الإبداعي.

والثابت تاريخيا أن ثقافتنا تبنت تلكم الرؤية والتزمت بها كما ألمحنا إلى ذلك سابقا.. من هنا فقد فشلت محاولات خصوم التجديد في غلق باب الاجتهاد والإبداع طوال مسار تاريخ حضارتنا اعتمادا على فهمهم المتعجل لحديث رسول الله ﷺ القائل فيه: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» (٩).

لقد فشلت مساعيهم في غلق باب الاجتهاد استنادا إلى فهمهم لهذا الحديث؛ إذ انتهت الرؤية المعتمدة لدى أغلب الباحثين في مجال الفقه والفكر الإسلامي إلى أن «من الأفعال الإنسانية ما هو محاكاة وتقليد واتباع ومنها ما هو إبداع وتجديد.. أي إنشاء واختراع لا على مثال سابق.. وإذا كان هذا الإبداع مخالفا لما أمر به الله سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ، فتلك هي «بدعة الضلالة.. المذمومة إسلاميا».. أما إن كان الإبداع واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه، ودعا إليه الرسول ﷺ، فهو محمود، حتى وإن لم ينزل به وحي ولم يرد فيه حديث» (١٠).

بالتالي، فلم يحظر الإسلام على العقل الإنساني من التفكير في حالات نادرة منها:

أولا - التفكير في مسائل لا يستطيع العقل البشري بملكاته وإمكاناته الخوض فيها أو وضع رؤية نهائية لها، كالتفكير في ذات الله، مثلا، فهذه مسألة لا يستطيع العقل أن يحسمها مهما أوتي من قدرة على التفكير والإدراك؛ لذا أمر النبي ﷺ، الصحابة - والأمة من بعدهم- بالتفكير في آثار الله في الكون ورفض لهم التفكير في كنه الذات أو حقيقتها.

ثانيا - أن يحاول العقل تقديم إنتاج معرفي أو فني يتعارض مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة كأن يستخدم الفن لإثارة الغرائز والشهوات فحسب، أو كأن يعمد إلى إثارة الفتن وتحريك المشكلات بين مكونات المجتمع الإنساني، لأن ذلك يدخل في إطار العلم الضار الذي حذر منه الله تعالى في قوله: ﴿.. وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ..﴾ (البقرة:١٠٢).

الخلاصة

تجدر الإشارة إلى أن الإسلام عندما منع العقل من الخوض في المسائل الغيبية فإنه لم يمنعه من ذلك حجرا عليه أو تقليصا من نشاطاته، بل إنه فعل هذا كي يجنب العقل إضاعة الجهد عن طريق الخوض في مسائل لن يتمكن من حسمها أو الوصول فيها إلى كلمة نهائية؛ وليس أدل على صحة ذلك من اختلاف الفلاسفة والمفكرين بعضهم مع بعض عندما تحدثوا في كنه الذات الإلهية، حيث عجزوا جميعا عن الوصول إلى رؤية واحدة متفق عليها أو تصور واحد يقنع كل ذوي العقول والألباب.

تعد شريعتنا الإسلامية -ومن بعدها حضارتنا- هي الشريعة الوحيدة التي انتهت إلى أن من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.. ولا يخفى أنها الشريعة والثقافة الوحيدة التي تكافئ من أخطأ، لأن كل الثقافات تذهب إلى معاقبة من يخطئ أو تكتفي -في أحسن الأحوال- بمنعه من الأجر والمكافأة، الأمر الذي يثبت تمايز ديننا وحضارتنا وثقافتنا عن باقي الشرائع والحضارات والثقافات.

وإذا كان الإسلام قد منح العقل كل هذه الحرية في مجال التفكير والإبداع فإنه قد منحه الحق الكامل في التعبير عما يدور في رأسه وخلجات نفسه من رؤى وتصورات، فالعقل يفكر، ويتدبر، ويتأمل ليعبر عن أفكاره ورؤاه وتأملاته ما دام ذلك في مصلحة تنمية حياة الإنسان والارتقاء بها نحو الأفضل، لأن هذا من قبيل الإعمار الذي أمر الله تعالى خلقه به حين قال: ﴿.. هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..﴾ (هود:٦١).

الهوامش

١- العقاد، التفكير فريضة إسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٢٠.

٢- أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار، القاهرة، ١٩٦٤ م، ص٤٤.

٣- دكتور أمان فحيف، إشكالية المعرفة.. دراسة منهجية في القرآن الكريم، دار الحضارة، طنطا، دار الثقافة، القاهرة،١٩٩٩م، ص ٢٧.

٤- دكتور أحمد فؤاد باشا، فلسفة العلوم بنظرة إسلامية، ط ١، دار المعارف، القاهرة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٣.

٥- محمد البشير الإبراهيمي، الرق في الإسلام، الأزهر، القاهرة، صفر ١٤٣٥ هـ/ ديسمبر ٢٠١٣م، ص٢٧٢.

٦- دكتور محمود حمدي زقزوق، مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ربيع أول ١٤٢٨ هـ/ مارس ٢٠٠٧ م، ط٢، ص٦٢.

٧- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل مكتبة الجمهورية، القاهرة، من دون تاريخ، ص٢٩٣.

٨-رواه الترمذي.

٩- رواه مسلم والنسائي وأبو داود والدارمي وابن ماجة والإمام أحمد.

١٠- دكتور محمد عمارة، المفهوم الإسلامي للإبداع، الأزهر، القاهرة، صفر ١٤٣٥ هـ/ ديسمبر ٢٠١٣ م، ص٢٢٧.

الشيخ كامل سميع الله مفتي تترستان لـ «الوعي الإسلامي»:

الشعوب التترية حافظت على هويتها الإسلامية

الدعم الدعوي لوزارة الأوقاف الكويتية فتح لنا آفاقا جديدة لمنهج الوسطية

وصل الإسلام إلى دول المنطقة في بداية القرن الرابع الهجري وانتشر سريعا بحوض نهر الفولغا

حوار: مهدي عبدالستار

تترستان هي إحدى الجمهوريات السوفيتية سابقا، تقع في حوض نهر الفولغا، تنسب إلى التتار، والتتار شعب كبير من شعوب الأمة التركية، ويزيد عددهم في كل أنحاء روسيا عن الثمانية ملايين مسلم تتري، وقد نقل التتار الإسلام إلى شمالي أوروبا، فوصلت الدعوة الإسلامية بجهودهم إلى روسيا الأوروبية، وإلى فنلندا وبولندا ودول شبه جزيرة إسكندنافية عامة، ولقد تمسك الشعب التتري في تتريل بعقيدتهم، وصمدوا لتحدي قياصرة روسيا طيلة أربعة قرون، ولم ينجح السوفييت رغم الحملات الشرسة في زعزعة إيمان التتار، ومازال الإسلام دين الأغلبية في جمهورية تترستان، رغم استقدام العديد من الروس إليها، وخضعت للحكم الشيوعي عام١٩٢٠م.

ويؤكد فضيلة الشيخ كامل سميع الله بن إسكندر أهمية التواصل الحضاري بين مسلمي روسيا وإخوانهم في البلدان العربية والخليجية، مذكرا أن وحدة الصف أمر أقرته الشريعة الإسلامية، ولو اختلفت الأعراق وتعددت الجنسيات، مشيرا إلى دور التواصل الدعوي الذي آتى ثماره الطيبة بين المسلمين في جمهورية تترستان، والذين يزيدون عن المليونين وربع المليون مسلم من بين أربعة ملايين نسمة هم عدد سكان الجمهورية، بما يعادل٥٣٪ من إجمالي عدد السكان.

وأشاد الشيخ سميع الله بالتعاون المبارك بين إدارة الإفتاء التي يترأسها في تترستان وبين وزارة الأوقاف الكويتية، لافتا إلى أن وكيلها د.عادل عبدالله الفلاح لم يدخر جهدا – كما يقول – في دعم مسلمي روسيا عموما ومسلمي تترستان على وجه الخصوص، وتبنى الدعوة فيهم وفق منهج الإسلام الوسطي الذي تسعى الوزارة عموما ووكيل الأوقاف تحديدا إلى نشره، ليعم خيره ويظهر صورة الإسلام الناصعة، مبينا أن هذا التعاون قد غرس أشجارا يافعة، فأثمرت دعوة طيبة في كل أنحاء الجمهورية التي زادت المساجد فيها من ٢٤ مسجدا قبل عشرين عاما إلى ١٥٢٤مسجدا اليوم، يشرف عليها دعاة أفاضل من خلال قسم الدعوة بإدارة الإفتاء.

وبيّن الشيخ كامل أن دعاة تترستان استطاعوا أن يتوسعوا في الدعوة بشتى الوسائل الحديثة، بما في ذلك استخدام شبكات التواصل الحديثة، وقد أنشأوا عددا من المواقع الإلكترونية التي تفتح آفاقا

احتفالية في تتارستان بمناسبة الإعلان عن المصحف الجديد

دعوية جديدة للرجال والشباب والنساء، ومنها موقع بيت الحكمة، وموقع الإسلام اليوم، وغيرها من المواقع الناطقة بعدة لغات، كالعربية والروسية والتترية، ويصل تعداد الزائرين لبعضها أكثر من ثلاثين ألف زائر يوميا.. وإلى تفاصيل الحوار:

● كيف وصل الإسلام إلى تترستان؟

– وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في بداية القرن الرابع الهجري، عندما وصل التجار المسلمون إلى حوض نهر الفولغا، وأسلم شعب البلغار، وأرسل إليهم الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥هـ – ٣٢٠هـ) من يفقههم في الدين، وكان الإسلام يسود منطقة الحوض الأدنى من نهر الفولغا، بل تجاوزها إلى منطقة القرم في شمال البحر الأسود، غير أن الدفعة الأساسية للدعوة الإسلامية في حوض الفولغا وصلت بإسلام التتار، فعندما احتلها قياصرة روسيا في سنة (٩٦٠هـ – ١٥٥٢م) كان الإسلام منتشرا بين سكانها، واضطهد أهلها، وحاول الروس جذبهم إلى المسيحية بالقوة والقهر، ولكنهم فشلوا، ولقد بذلت الإمبراطورة كاترين الثانية جهودا جبارة في هذا المجال في سنة (١١٩٢هـ – ١٧٧٨م)، فأمرت بأن يوقع معتنق المسيحية (الجديد) على إقرار كتابي يتعهد فيه بترك «خطاياه»، ويتجنب الاتصال بالكفار، ويظل على الدين المسيحي، وطبق هذا بالقوة على التتار المسلمين، ولكنهم كانوا مسيحيين اسما، ثم تخلصوا من هذا التعسف، وظلوا على إسلامهم. ولقد دونت أسماؤهم في السجلات المسيحية زورا، ووقف التتار في ثبات وقوة ضد المنصرين وحملاتهم، وشهد القرن التاسع عشر الميلادي عدة قوانين تحد من انتشار الدعوة، لدرجة أن القانون الجنائي الروسي كان يعاقب كل شخص يتسبب في

مواقعنا على شبكات التواصل تنطق بالعربية والروسية والتترية ويزورنا ثلاثون ألف زائر يوميا

تترستان على خريطة العالم

توجد جمهورية تترستان شرقي روسيا الأوروبية، وفي القسم الأعلى من حوض الفولغا، تحدها بشكيريا من الشرق، وأدمورت وماري من الشمال والشمال الغربي، والجوفاش من الغرب، وهي جمهوريات صغيرة، لها حكم ذاتي، وتتبع جمهورية روسيا الاتحادية، وتبلغ مساحتها ٦٨ ألف كيلو متر مربع، وسكانها ٣,٤ ملايين نسمة، وعاصمة البلاد كازان (قازان) وسكانها مليون نسمة، تقريبا وتوجد على الضفة اليسرى لنهر فولغا.

وتمتد أرض الجمهورية بين جبال أورال في شرقها وتلال بتزا في غربها، وأرضها سهلية في جملتها، وتلتقي بها بعض روافد نهر الفولغا، ونتيجة انبساط سطحها يتسع نهر فولغا في عبوره لها، والتربة رسوبية خصبة.

ومن أبرز سمات مناخها البرودة والتجمد في الشتاء، وتزداد الحرارة في الصيف، غير أن القاريّة والتطرف أهم ملامحه، ويتعرض لغزو الرياح الباردة في الشتاء، والأمطار كافية لنمو حشائش الإستبس وبعض الغابات.

قبل عشرين سنة كان بتترستان ٢٤ مسجدا فقط.. واليوم تسع ١٥٠٠ مسجد في كل أنحاء البلاد

تحويل مسيحي روسي إلى الإسلام بالأشغال الشاقة، ورغم هذا انتشرت الدعوة بصورة سرية، ولما صدر قانون حرية التدين في روسيا القيصرية في سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) حانت الفرص للدخول في الإسلام بصورة جماعية، فلقد بلغ عدد من أعلنوا إسلامهم في سنة (١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م) ثلاثة وخمسين ألفا، وفي سنة ١٩٠٩م دخلت ٩١ أسرة في الإسلام.

وسارت الدعوة الإسلامية قدما في حماسة بالغة، وكان كل مسلم داعية إلى دينه، ولقد خدمت الدعوة الإسلامية هجرة جماعات ممن احترفوا الحياكة في القرى الإسلامية في زمن الشتاء، واعتنق هؤلاء الإسلام، وعند عودتهم إلى قراهم تحولوا إلى دعاة للإسلام، وأثمرت دعوة التتار أنصارا في سيبيريا وغيرها، وقبل استيلاء السوفييت على السلطة كان في مدينة قازان عاصمة جمهورية تترستان، جامعة إسلامية بها سبعة آلاف طالب في مستهل القرن العشرين، وكان بها مطبعة أخرجت مليون نسخة من مائتين وخمسين كتابا في سنة ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م، كما كان بمدينة قازان مكتبة إسلامية يزورها عشرون ألف قارئ سنويا، وانتشرت المساجد حتى بلغت مسجدا لكل ألف مسلم في الجمهورية، ووصل عدد المساجد بها ثلاثة عشر مسجدا، وهكذا كان الإسلام مزدهرا قبل الثورة الماركسية في روسيا.

ولقد أنشئ في قازان مركز للدعوة الإسلامية، واجتهد علماء قازان في نشر الدعوة، وطبعوا منشورات لها، واهتموا بالتعرف على الإسلام باللغة التترية، وانتشر الدعاة (مليات) وطلاب جامعة قازان في القرى والفيافي يدعون الناس للإسلام، ونشطوا في هذا الأمر بعد صدور قانون حرية التدين في روسيا سنة ١٩٠٥م، ونجحوا في بث الدعوة الإسلامية بين تتار سيبيريا، وبعد أن استولى السوفييت على الحكم، انقلبت الأوضاع، وواجه التتار حربا قاسية على معتقداتهم، فأغلقت المدارس الإسلامية، ودمرت المكتبات والمطابع الإسلامية في قازان عاصمة تتاريا، وواجه المسلمون مواقف مؤلمة، ثاروا ضد الاضطهاد الديني، وقدموا العديد من الشهداء، حتى أولئك الذين تعاونوا مع الشيوعيين في البداية، مثل السلطان علي أوغلي، والذي دعاه السوفييت باسم عالياف، وقد نادى بتوحيد المسلمين في روسيا في كيان دولة واحدة تتحد مع السوفييت على مستوى واحد، فقبض عليه سنة (١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م)، وأعدم في سنة (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م)، ولقد رفض السوفييت وحدة الأراضي الإسلامية، بل أخذوا يجتهدون في تفتيتها إلى قوميات للقضاء على الوحدة.

ولقد أدمج الروس كل المناطق الإسلامية التي توجد في روسيا الأوروبية في إدارة دينية واحدة، مقرها في مدينة أوفا عاصمة جمهورية بشكيريا، وتشرف على المسلمين في سيبيريا أيضا، وجردوا هذه الإدارة من كل السلطات، فأصبحت أمرا شكليا، ولكن في الآونة الأخيرة تغيرت الأمور مع تنامي دعوات الحرية والانفتاح التي شهدتها فدرالية روسيا.

السكان والنشاط البشري

غالبية السكان من التتار، وهم شعبة من الأمة التركية، وينتشرون في بقاع أخرى غيرها، فتوجد منهم جماعات في غربي سيبيريا، يشكلون معظم سكان شبه جزيرة القرم، غير أن السوفييت أرغموا التتار على الهجرة وألغوا جمهوريتهم، وسكان جمهورية تتارستان حوالي ثلاثة ملايين ونصف، يشكل التتار أغلبيتهم، ويعتنقون جميعا الإسلام، ولقد استقدم الروس إليها أعدادا من روسيا الأوروبية للتقليل من الأغلبية الإسلامية، والتتار عموما يشكلون القومية الخامسة في الترتيب بين القوميات في الاتحاد السوفيتي -سابقا-، وينتشرون في مناطق متعددة من البلاد، ويصل عددهم حوالي ٨ ملايين نسمة، وتصل نسبة المسلمين في تترستان ٦٥٪ تقريبا.

والجمهورية غنية بثرواتها الزراعية، وكذلك بثرواتها المعدنية، وأهم منتجاتها الحبوب: كالقمح، والشعير، والشوفان، ويعتبر النفط موردا مهما فيها، ويستخرج من حوض نهر كاما، وأطلق على هذه المنطقة باكو الجديدة، وإنتاجها من النفط يزيد على عشرين مليون طن سنويا.

توجيهات د.عادل الفلاح نبهتنا إلى أهمية التوسع الدعوي عبر الوسائل الحديثة

مرض السكر

د. محمد عزيز الرحمن
كاتب هندي

ينتشر مرض السكر بسرعة في أرجاء العالم كله، وهذا المرض نفسه يؤدي إلى أمراض ومشكلات أخرى. ولذا، فإني أريد سرده بجزئياته وتفاصيله، ليتخذ كل واحد الخطوات اللازمة لتجنبه.

أولا: ينبغي لنا أن نعلم ما الديابيطس، أو مرض السكر؟ وكيف تتم بدايته؟ ومن يصيبه هذا المرض عامة؟

هذا في الواقع تنبيه من الله سبحانه بألا نهمل ونغفل عن أي شأن من شؤون الصحة، وأن نولي العناية التامة بها ونلتزم بتناول الوجبات على نحو نظامي.

إن الله سبحانه أودع في جسم الإنسان قدرة إنشاء مختلف الهرمونات، ومن هذه الهرمونات الأنسولين، الذي يحتل أهمية بالغة في جسم الإنسان، إذ إنه يعمل على استفادة الجسم من الغذاء بوجه صحيح. فعلى سبيل المثال، عندما يتناول الإنسان الطعام، فإن هذا الطعام، بعد المرور بنظام خاص، يتحول إلى الدم، الذي يعمل بدوره على تنشئة الإنسان وتقويته، عن طريق تغذية الخلايا والأعضاء، وهرمون الأنسولين هو الذي يؤهل الدم لأداء تلك الوظيفة.

وعندما يحدث في هذا النظام الخاص أي خلل أو نقص فإنه يسمى مرض السكر، مثل أن يتناول شخص ما الغذاء ثم يتحول الأخير إلى الدم بعد الهضم، غير أن الدم المعد لا يتم استعماله بوجه صحيح، أو بتعبير أصح لا يقدر الجسم على الاستفادة من ذلك الغذاء بشكل سليم، لأن الإنسان عندما يتناول الطعام، فإن معظمه يتحول – بعد الهضم – إلى الجلوكوز، الذي هو جزء من الدم، والذي يستخدمه الجسم غذاء أو وقودا له.

يلحق هذا الجلوكوز بالدم بدورانه عن طريق مسامات الأمعاء، ويصل إلى الكبد بدوران الدم، ثم يتحول نفسه عن طريق العملية الكيميائية للكبد إلى الجليكوجين، أو ما نسميه السكر الحيواني أو الكبدي، وكما أن المحرك يعمل بالبترول، فإنه بالطريقة نفسها يعود فضل كل نشاط وحيوية وحرارة موجودة في جسم الإنسان إلى السكر الحيواني.

ويصل السكر الحيواني إلى العضلات عن طريق الكبد، والعضلات تحتفظ به لتستخدمه عند الضرورة، وعندما يقوم الجسم بحركة فإن السكر الحيواني يصير محلولا ويتحول إلى حمض الكربوليك، والماء ويدير ماكينة الجسم الإنساني، أي إن العضلات عندما تتحرك تنشأ حرارة في الجسم، والحرارة تقتضي السكر الحيواني وتستهلكه. ما يتصل بالكبد من أجزاء البدن هو البنكرياس، أو ما ندعوه اللبلبة، ويوجد فيه نوعان من الرطوبة (أو الأنسولين)، أحدهما رطوبة اللبلبة التافهة، التي تسمى عصارة البنكرياس، والتي تدخل في الأمعاء مع الصفراء وتساعد في هضم السكر والنشا، وثانيهما بلل الرطوبة، الذي يصل إلى العضلات عن طريق الدم، ويساعد بعد اللحاق برطوبتها في تحليل السكر، وهذا النوع من الرطوبة يسمى بالهرمون.

يُحرق الخشب والفحم كوقود فتحدث الحرارة، كذلك السكر الأحمر عبارة عن مزيج من الكربون والماء، فإنك إذا وضعت السكر الأحمر على النار وسخنته فإنه يكون رقيقا بالذوبان في الماء، وإن زدت في تسخينه فإن الماء يتبخر ويبقى فقط الكربون، أي الفحم الأسود. وهكذا يُحدث هذا السكر الحرارة والنشاط في الجسم بعد استهلاكه في العضلات. والسكر الحيواني الذي يتبقى من العضلات يتجمع في الكبد، وعندما لا يجد الجسم النشا أو السكر من خلال الغذاء، فإن الكبد يوصل في تلك الساعة الجزء المخزون من السكر الحيواني إلى العضلات، وعندما تمتلئ خزانة الكبد بالسكر الحيواني، بوصول النشا أو السكر داخل الجسم من خلال الغذاء، فإن السكر المتبقي يتحول إلى الشحم ويصير موجبا لتصعيد كمية الشحم داخل الجسم. وبما أن الشحم والنشا والسكر كلها تتكون من الهيدروجين والأكسجين فإن تركيبها الكيميائي هذا لا ينافي استبدال وتقلب بعضها ببعض في أي حال، فالنشا يتحول إلى السكر خلال عملية الهضم، وكذلك السكر الزائد يتحول إلى الشحم خلال الهضم.

أدب العلماء مع الله

رشيد ناجي الحسن
باحث في وزارة الأوقاف الكويتية

هناك بشر ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الناس لفضل مكانتهم عند الله، اكتشفوا أسرار الله فيهم، في حواسهم: السمع، والبصر، والفؤاد، فاستنهضوها، وغذوها بالعبادة والطاعة، وتحلوا بالآداب والأذواق، حتى اشتعلت وتوهجت، وأرسلت من منابع روحها، وسلسبيل قلبها نبضات وموجات ذوقية وأدبية.

قوم عرفوا مقام الأدب ومكانه فأولوه اهتماما عظيما، فجدوا في طلبه لأنفسهم، ونصحوا به طلابهم، وأمروا به أبناءهم، وجعلوه مطلبا أساسيا قبل العلم، إذ كل علم بلا أدب لا منفعة فيه.

وقد كان أحدهم يرحل في الأدب الواحد السنة والسنتين،وكانوا يتعلمون الأدب كما يتعلمون الحديث، قال الحسن رحمه الله: إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين. وقال سفيان الثوري: كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدب وتعبد قبل ذلك بعشرين سنة.

وهذا الإمام مالك يقول لفتى من قريش: «يابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم».

لأنه أدرك فضل الأدب منذ صغره، وكان يقول: «كانت أمي تعممني وتقول: اذهب إلى ربيعة (وهو ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك) فتعلم من أدبه قبل علمه».

وقال إبراهيم بن حبيب بن الشهيد: قال لي أبي: «يا بني إيتِ الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إلي لك من كثير من الحديث».

وقال بعضهم لابنه: «يا بني لأن تتعلم بابا من الأدب أحب إلي من أن تتعلم سبعين بابا من أبواب العلم». وهذا الحسين بن إسماعيل يقول: سمعت أبي يقول: «كنا نجتمع في مجلس الإمام أحمد أكثر من خمسة آلاف أو يزيدون، أقل من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمت».

ويقول ابن وهب: ما تعلمت من أدب مالك أكثر مما تعلمت من علمه، بل في تصانيفهم المتقدمة ما يدل على علو شأن الأدب والسلوك، أليسوا صنفوا في أدب العالم والمتعلم وآداب طالب العلم، وما ينبغي أن يتصف به؛ صنفوا في ذلك كتبا مستقلة.. وما كان أولئك يعانون من فراغ أوقات لا يدرون بم يصرفونها، لكن عنايتهم بذلك دليل على أهمية ذلك الأمر وعلو شأنه في دين الله عز وجل، كيف لا وقد أخبر النبي ﷺ أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق.

إن الخلق والسلوك الأدبي عند بعض المسلمين، بل عند بعض طلبة العلم يأتي في مرتبة متأخرة وللأسف، حيث يشعر هؤلاء أن مجرد حفظ المسائل العلمية وإتقانها هو وحده ما يحتاجه طالب العلم، وحين يبدأ الحديث عن الخُلق وعن الهدي والسمت والسلوك يشعر هؤلاء أن هذا حديث الوعاظ، وأنه حديث ينبغي أن يوجه إلى عامة الناس، وليس إلى طلبة العلم، فطلبة العلم إنما يحدثون بقال فلان وفلان، وفي المسألة حديثان أو ثلاثة أقوال، وهو مجال لا ينبغي أن يقلل أحد من شأنه، لكن أن نتصور أن أبواب الخُلق والآداب ليست من شأننا، أو أنها قضية ثانوية فهذا أمر لا يليق.

وإليك أخي القارئ صورا من أدب العلماء وحسن تربيتهم، فهم الذين أخذوا بأيدي الأمة من حضيض المستنقعات والرذائل إلى الالتزام بشرع الله والتحلي بالفضائل.

فمن ذلك أدبهم مع الله عز وجل، حتى إن أحدهم كان إذا دخل الصلاة لم يلتفت قلبه لغير من هو واقف بين يديه. يروي حماد بن جعفر بن زيد أن أباه جعفر بن زيد أخبره فقال: خرجنا في غزاة إلى كابول، وفي الجيش صلة بن أشيم؛ فنزل الناس عند العتمة فصلوا، ثم اضطجع، فقلت: لأرقبن عمله، فالتمس غفلة الناس، حتى إذا قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبة منا، ودخلت على إثره فتوضأ فقام يصلي داخل مكان فيه

أشجار حتى يستتر عن الناس في الليل، ثم قام يصلي وجاء أسد حتى دنا منه؛ فصعدت شجرة، فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم، ثم قال: أيها السبع! اطلب الرزق من مكان آخر، فولى وإن له لزئيرا تصَدّع الجبال منه! قال: فما زال كذلك يصلي حتى كان عند الصبح جلس فحمد الله بمحامد، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ثم رجع وأصبح حتى كأنه بات -بين الناس- وأصبحت وبي من الفزع شيء لا يعلمه إلا الله.

أما الإمام البخاري رحمه الله فإنه قام ذات يوم يصلي، فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضى صلاته اشتكى، فنظروا فإذا الزنبور قد أصابه بالورم في سبعة عشر موضعا، ولم يقطع صلاته، فلاموه، فقال: كنت في آية فأحببت أن أتمها. وما قطع الصلاة. وعن علي بن محمد بن منصور قال: سمعت أبي يقول: كنا في مجلس أبي عبدالله البخاري، فرفع إنسان من لحيته قذاة وطرحها إلى الأرض، فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس رأيته مد يده فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كمه، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها وطرحها على الأرض، فكأنه صان المسجد عما تصان عنه لحيته.

أما أدبهم مع رسول الله ﷺ فقد بلغوا فيه القمة، فهذا الإمام مالك بن أنس -عالم المدينة الذي قيل فيه: لا يفتى ومالك في المدينة- من أشد الناس إجلالا لحديث النبي ﷺ، فقد روي أنه كان إذا أراد أن يحدث عن النبي ﷺ يتوضأ ويغتسل ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه، ويجلس على ركبتيه كجلسة الصلاة، ويبقى على هذه الصورة حتى ينتهي المجلس. كما نقل عنه أنه لدغته عقرب عدة لدغات، ولم يغير مجلسه أدبا مع حديث رسول الله ﷺ. فعمن اكتسب هذا؟ يقول مالك رحمه الله وقد سئل عن أيوب السختياني: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه، قال: وحج حجتين فكنت أرمقه -وكلمة «أرمقه» مهمة في معايشة أهل العلم والفضل والأدب والمربين- فلا أسمع منه غير أنه إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى اخضل، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه.

وقال مصعب بن عبدالله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه، وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت؛ لما أنكرتم علي ما ترون، لقد كنت أرى محمد ابن المنكدر، وكان سيد القراء، لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا ويبكي حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم؛ فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليا، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. ولقد كان عبدالرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف من الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر بن عبدالله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع، ولقد رأيت الزهري، وكان من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ كأنه ما عرفك ولا عرفته، ولقد كنت آتي صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين؛ فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلايزال يبكي حتى يقوم الناس عنه.

بل روي أن الخليفة أبا جعفر المنصور ناظر مالكا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدب قوما فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴿٢﴾﴾. ومدح قوما فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴿٣﴾﴾. وذم قوما فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴿٤﴾﴾. وإن حرمته ميتا كحرمته حيا، فاستكان أبوجعفر.

وكان من عادة هؤلاء العلماء في تربيتهم لتلاميذهم أنهم يشعرون المتلقي بعظمة العلم الذي يتلقاه وأهميته؛ فقد روى ابن أبي حاتم -رحمه الله- عن عمران بن عيينة أنه قال: حدثنا عطاء بن السائب، قال: أقرأني أبوعبدالرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعملك، ثم يقرأ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾. هذا المعلم يقول للمتعلم: انظر إلى العلم الذي تأخذه واعرف قدره ومنزلته. ولذلك كان للعلم تأثير عظيم في نفوسهم... وتعظيم نصوص الوحي والوقوف عندها وعدم الاعتراض عليها مبدأ مهم جدا في حياة المسلم، هذا المبدأ لو ألقيت فيه محاضرات وخطب لا يكون مستقرا في النفوس كما لو صار مستقرا بمواقف وأحداث. قال الذهبي رحمه الله: وفي مسند الشافعي: أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله القود». الدية أو القصاص، يقول الراوي: فقلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا الحديث؟! فضرب صدري وصاح كثيرا، ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: أتأخذ به؟! نعم. آخذ به، وذلك الفرض علي وعلى كل من سمعه، إن الله اختار محمدا ﷺ من الناس؛ فهداهم به وعلى يديه؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين لا مخرج لمسلم من ذلك.

فما أحوجنا والذين يتصدرون لدعوة الناس إلى الله وتعليمهم وتربيتهم أن يعتنوا بأمر الأدب والذوق، ليزرعوا في قلوب من يُعَلِّمُون تعظيم هذا الأمر مع الله ومع رسوله ﷺ.

تجليات حفظ الشريعة لمقصد «المال»

د.أمينة مزيغة
باحثة مغربية

مما لا شك فيه أن المال يحتل أهمية بالغة في حياة الأفراد والمجتمعات، نظرا لما يترتب عليه من آثار اقتصادية واجتماعية وتنموية جمّة، لذلك نجد الشارع الحكيم قد أولاه عناية خاصة، نظرا لأنه المحور الأساس الذي تدور حوله عجلة الاقتصاد، وبالتالي تتحقق التنمية الموسعة والشاملة للمجتمع.

من مقاصد الشرع

حفظ المال «مقصد لا يقل أهمية عن المقاصد الأخرى، إذ بالمال تقوم الحياة وتغطى الحاجات المتنوعة والمتجددة، وبه تقوم وظائف المجتمع والدولة، وتنفذ المشاريع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبه تتمكن الأمة من تحصين وجودها، والدفاع عن كيانها، ونشر رسالتها في الأرض، فوق كونه فطرة فطر الله الإنسان عليها، فكان لذلك حب شديد له وسعي متواصل لكسبه، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾، ومن ثم أكد الشارع على حفظه، حيث جُعل في مرتبة واحدة مع النفس من جهة ترتب الجزاء والفوز بالحسنى، قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ ﴿٩٥﴾﴾(١)، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ (٢-٣)، وهو في الزينة مساوٍ للنسل كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴿٤٦﴾﴾ (٤)، وهو في الدنيا قوام أهلها، بحيث لا تقوم إلا به»(٥).

فكلّي المال يعتبر واحدا من الضروريات الخمس «التي هي أسس العمران المرعية في كل ملة، والتي لولاها لم تَجْرِ مصالح الدنيا على استقامة، ولفاتت النجاة في الآخرة»(٦).

ولما كانت هذه الضروريات هي كل ما لا بد منه في «قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين»(٧)، وكانت الضروريات كما حددها علماء الأصول خمسة هي: «حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل»(٨)، وكما قال الإمام الغزالي رحمه الله في مستصفاه: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم»(٩)، لذلك نجدها مراعاة لدى جميع الشرائع والملل، يقول الإمام الغزالي مؤكدا ذلك: «حفظ هذه المسائل الخمس يستحيل أن لا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد لها إصلاح الخلق»(١٠).

حفظ كلّي المال في علاقته بكليات الشريعة الأخرى

يعتبر حفظ المال من الضروريات التي لا يمكن تجاهل أحدها لترابطها وتكاملها، يقول الإمام الشاطبي مبينا ذلك: «لو عدم الدين، عدم ترتب الجزاء المرتجى، ولو عدم المكلف لعدم من يتدين، ولو عدم العقل لارتفع التدين، ولو عدم النسل لم يكن في العادة بقاء، ولو عدم المال لم يبق عيش...»(١١).

فحفظ المال يعتبر شرطا في المحافظة على هذه الأصول الأربعة، إذ بدون المال لا تقوم لها قائمة، كما أن هذه الأصول الأربعة «تعتبر بمثابة الشروط اللازمة لتحقيق حفظ المال وتنميته، إذ بدونها لا يمكن أن يكون هناك مال أصلا...».

وتبعا لأهمية وحتمية هذه الأمور الخمسة كان لزاما العمل على حفظها وضمان استمرارها، والحفظ لها إنما يكون بأمرين «أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيه، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»(١٢).

جانب العدم

وأما مراعاة كلّي المال من جانب العدم فتكون بضمان بقائه واستمراره، وذلك بدحض كل ما من شأنه أن يكون حائلا

دون تحقيق وبقاء الأمن الاقتصادي، والاستقرار المعيشي، وسد أبواب الذرائع المفضية إلى ذهاب المال بالكلية وضياعه، وللمحافظة على المال من جانب العدم صور كثيرة منها: حفظ المال من الضياع والتلف، إذ يتم الحفاظ على المال بحمايته من كل الأسباب «التي تؤدي إلى تلفه وتلاشيه دون أن يحقق أغراضه التي من أجلها وجد، وإذا كان المال وجد تسخيرا من الله تعالى وكسبا من الإنسان من أجل أن ترقى الحياة الإنسانية لتحقيق الخلافة في الأرض... فإن إتلاف هذا المال يكون متمثلا في كل تبديد له يذهب بأعيانه دونما تحقيق لذلك الهدف الذي وضع له، سواء كان ذلك متمثلا في إتلافه في غير ما هدف أصلا، أو في إتلافه في أغراض غير صالحة للإنسان، بل هي ضارة به معيقة دون تحقيق خلافته»(١٣)، ومثال ذلك: النهي عن الاحتكار(١٤)، والاكتناز(١٥)، وغيرها.

المحافظة على المال من جهة الوجود:

وحفظ المال من جهة الوجود – كطرف مقابل لحفظ المال من جانب العدم – إنما كان بتشريع كل ما من شأنه أن يعمل على تنميته واستثماره...، ومن تجليات ذلك: حفظ المال بالكسب والتنمية، إذ أول ما يتبادر إلى الذهن من أسباب حفظ المال، هو كسبه بطرقه المشروعة، فإذا لم يكن ثمة مال مكسوب لم يكن لحفظه موضوع، ولما كان حفظ المال مقصدا شرعيا فإن ذلك يتضمن توجيها نحو كسبه ليكون الكسب مقدمة لحفظه، ويلحق بكسب المال تنميته وتكثيره، فما يحصل لدى الإنسان من مال بالسعي أو بالوراثة والهبة ونحوها يطلب منه دينا أن لا يتركه يتآكل بالإنفاق، وإنما عليه تنميته وتكثيره بأي أنواع التكثير المشروعة،...(١٦)، وكذلك حفظ المال بالاستثمار فقد تضافرت أحكام الشريعة على تحقيق مقصد حفظ المال ليقوم بدوره في تنمية الحياة الإنسانية وترقيتها وتعميرها من جهات متعددة، فحُفظ بالكسب والتنمية لينشأ المال ويتكاثر، وحُفظ بصيانته من التلف عبثا أو فسادا أو سرفا، وحُفظ بحماية ملكيته من الاعتداء، وحفظ بحماية قيمته من التدهور، وحفظ بتيسير رواجه ودورانه بين الناس، وحينما تلتقي هذه الأحكام عند تحقيق مقصد حفظ المال، فإنه يكون عاملا أساسيا من العوامل الناهضة بالإنسان في سبيل تحقيق وظيفته التي من أجلها خلق، وظيفة خلافة الأرض»(١٧).

التنمية الاقتصادية

لما كان حفظ المال مراعى في الشريعة الإسلامية، فقد وجب على الانسان التصرف فيه مستحضرا الأمانة التي حملها، وذلك باستخدام هذا المال واستثماره بطرق مشروعة، والحرص على جمعه بحيث يكون للناس فيها نفع سعيا وراء تنشيط الحركة الاقتصادية التي يحصل منها الجميع على الحد الذي يضمن به معاشه»(١٨).

فكثيرة هي الأحكام التي فرضها الشارع والتي كانت في مجملها نافية للضرر، أو مقللة منه، أو جالبة لمصلحة، أو دافعة لمفسدة، رفعا للضيق والحرج عن عباده، وتوسعة عليهم من غير أن تكون له في ذلك مضرة أو مصلحة(١٩).

ويعتبر حفظ المال بطرقه المشروعة وسيلة لتوظيفه وقت الحاجة إليه، فعلى المستوى الفردي بإخراجه وقت الحاجة إليه، وعلى مستوى المجتمع باستثماره، فيتم الإسهام في إبقاء عجلة الاقتصاد دائرة، فطبيعة النظام الاقتصادي الإسلامي توجب زيادة الإنتاج في المجتمع، وصيانة ثروته من التبديد والضياع، لذلك شجع الإسلام على كل عمل أو معاملة من شأنها أن تفضي إلى توفير المال، والحفاظ عليه، وتنميته واستثماره، وإغلاق الباب أمام كل تصرف من شأنه أن يؤدي إلى الحيلولة دون أدائه الوظيفة التي وجد لأجلها، كما حث أصحاب الأموال على استثمارها في كل ميدان مشروع، فكان لابد من توجيه الناس ليندفعوا في نشاطهم نحو الاستثمار والتنمية للمال الذي هو في حوزتهم، وفي ذلك نفع مشترك للجميع أفرادا ومجتمعا...»(٢٠).

هوامش

١- النساء ٩٥.
٢ – التوبة ١١١.
٣- الولاية على المال وتطبيقاتها في الفقه المالكي دراسة و مقارنة، د. عبد السلام الرفعي ٧.
٤ – الكهف ٤٦.
٥ – فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي، د. عبد السلام الرفعي، ط: ٤، مطبعة إفريقيا الشرق، البيضاء.ص:٩٠.
٦- الموافقات للإمام أبي إسحاق الشاطبي، شرحه وخرج أحاديثه: الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية لبنان، ٣/١ للإمام أبي إسحاق الشاطبي، مقدمة المحقق.
٧- الموافقات ٢٧/.
٨- الموافقات٢/٨.
٩- المستصفى من أصول الفقه للإمام الغزالي، تحقيق محمد سليمان الأشقر، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ، مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م، ١/٤١٧.
١٠- المستصفى١/٤٢٠.
١١- الموافقات١/١٤.
١٢- الموافقات٢/٧.
١٣- مقاصد الشريعة الإسلامية بأبعاد جديدة، للدكتور عبد المجيد النجار، ط:٢، ٢٠٠٨، دار الغرب الإسلامي: ص:١٨٩.
١٤ – الاحتكار هو شراء الشيء وحبسه ليقل بين الناس فيغلو سعره ويصيبهم بسبب ذلك الضرر، أو حبس سلعة من السلع أو جمعها من الأسواق حتى تشتد حاجة الناس إليها، فينزل بها محتكرها إلى السوق وليس هناك من ينافسه في شدة الحاجة إليها، فيفرض على الناس الثمن الذي يريده بالنظر إلى حاجتهم إليها وما عندهم من استعداد للبذل من أجلها لا بحسب قيمة السلعة، ولا بربح معقول على ما اشتراها به». الادخار في النظام الإسلامي، الهادي أحمد محمد حسن، جامعة القضارف، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ص: ٨.
١٥ – الاكتناز هو: «تجميد المال وحبسه وإبعاده عن التداول، أي عن المساهمة في الإنتاج، ولهذا السبب كان للاكتناز مضار اقتصادية فضلا عن مضاره الأخلاقية».
١٦ – مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ص: ٢٠٢.
١٧ – مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ص: ٢٠٦.
١٨ – في هندسة الخالق لخلقه الإنسان الخليفة نموذجا، للدكتور إدريس حمادي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص: ٢٣٢.
١٩- الادخار في النظام الإسلامي، الهادي أحمد محمد حسن، جامعة القشارف، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ص: ٨.
٢٠ – المقاصد العامة للشريعة الإسلامية د. يوسف العالم. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط:٢، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

مخطوطات دور الكتب المغربية

ياسين محمد كتاني
باحث دراسات إسلامية

فاس ومكناس، مراكش وطنجة، أغادير وتطوان، الرباط والدار البيضاء... أسماء لمدن ضربت جذورها في تاريخ المغرب الذي تعاقبت عليه عدة حضارات (الآشولية، والموستيرية، والعاتيرية،...) وغيرها.

وكان المؤرخون العرب في القرون الوسطى يستعملون لفظ «بلاد المغرب» للدلالة على ثلاثة أقاليم تقع في المنطقة المغاربية: المغرب الأدنى (تونس)، والمغرب الأوسط (الجزائر)، المغرب الأقصى (المملكة المغربية).

دخل القائد المسلم عقبة بن نافع (ت ٦٣هـ) رضي الله عنه إلى بلاد المغرب معلنًا انتشار الإسلام فيها، ثم توالت على هذا البلد العديد من السلالات التي تربعت على عرش قيادته، ومنها: (المرابطون، الموحدون، المرينيون، الوطاسيون، السعديون)، وازدهرت البلاد بشكل تدريجي مع كل سلالة تسوسه، حتى صار يجمع العديد من الثقافات التي أسست لعلوم ما زالت آثارها مشاهدة في التراث العالمي.

ومنها ما بات يُعرف بـ (خزائن المخطوطات)، أو (دور الكتب) المتميزة بالتنوع والثراء، والتي تؤدي دورًا ثقافيًا واجتماعيًا رائدًا، كما اشتهر المغرب باحتفاظه بمخطوطات نادرة لا توجد في مكان آخر في العالم. وهذه إطلالة سريعة على هذه الخزائن، وما تحتويه من النفائس، أبدؤها بالاطلاع على محتويات المجموعات الخطية في الخزانات المغربية:

أولاً: في الماضي، فترة (المرابطون)

إن المكتبات المغربية الأولى كانت تجمع المؤلفات المتعلقة بعلوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، والفقه وخاصة الفقه المالكي، واللغة، والنحو. والشاهد على ذلك ما وصلنا من المخطوطات المتعلقة بهذه المجموعة.

ومن الأمثلة على ذلك:

الخزانة الخاصة لـ «ابن العجوز السبتي» ت(٤١٣هـ - ١٠٢١م)، كانت مكونة - في جزء كبير منها- من مؤلفات الفقه، وما أخبر به ابن فرحون أن عالم سبتة أثناء عودته من القرويين - مدينة القيروان بتونس- كان يحضر فيها محاضرات ابن أبي زيد القيرواني، حمل معه مجموعة من المؤلفات الفقهية وخاصة «النوادر»، و«المختصر» لـ «ابن أبي زيد» نفسه.

وبقيت المكتبات على حالها حتى القرن العاشر والحادي عشر، والشاهد على ذلك الخزانة الملكية للملوك المرابطين، فقد كان الأمراء المرابطون المتشددون والمغالون في المذهب المالكي يحثون ويشجعون فقهاء عصرهم على تأليف كتب متعلقة بالمذهب المالكي، مما أدى إلى كثرت المؤلفات والشروحات في ذلك العصر، وأتاحت هذه الحركة (التأليف) للأدباء والخواص أن يمتلكوا خزانات كتب خاصة عامرة.

ولم يكن يُسمح بأن تحتوي هذه المكتبات أو يُوضع فيها كتب الفلسفة، وأصول الدين، والتصوف وغيرها من الكتب البعيدة عن الفقه والسنة، ومن خالف هذا تعرض لأقسى العقوبات وصُودرت ثروته.

فترة (الموحدون):

ظلت المكتبات على هذا الحال- التي كانت عليه في عصر المرابطين - حتى عصر الموحدين حيث تفتحت العلوم

التي كانت محظورة فيما قبلهم، وهكذا بدأت كتب العلوم والفلسفة وأصول الدين والتصوف تجاور كتب الفقه والنحو واللغة في دور الكتب المغربية.

فقد دعا الموحدون الفلاسفة إلى نسخ الآثار الفلسفية اليونانية، فطلب الخليفة الموحدي «يوسف» ت (١١٩٨م) من ابن رشد أن يشرح آثار أرسطو.

كما شجعوا الأطباء على تأليف مؤلفات في الطب، فقد نشد الملك «عبدالمؤمن»- عبدالمؤمن بن علي الكومي (٤٨٧ هـ- ٥٥٨ هـ، ١٠٩٤ - ١١٦٣م) وكان الخليفة المؤسس لدولة الموحدين، فحكمها من العاصمة مراكش من سنة ١١٤٧ م وحتى ١١٦٣م- من «أبي مروان عبدالملك بن زهر» ت (٥٥٧هـ - ١١٦٢م)، تأليف مصنف في الأطعمة، فاستجاب لطلب الملك وألف كتابه المسمى (كتاب الأغذية)، وهو مخطوط محفوظ في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم (١٥٩٠)، ونسخة أخرى مبتورة الأول محفوظة ضمن مجموعة تحت رقم (٢٤٣٠)، وهي أقدم من النسخة الأولى. وقد وصف ابن زهر في هذا المصنف مختلف الأطعمة من حيث الضرر والنفع، ووقت استهلاكها.

فترة (المرينيون)

بعد وصول المرينيين إلى الحكم في القرن (٧هـ - ١٢م)، بدأت كل العلوم المعروفة في ذلك العصر تدرّس وتنتشر بشكل واسع. وبهذا تم اقتناء وانتساخ عدد كبير من المؤلفات في علوم الرياضيات والحساب والفلك والطب وعلوم أخرى.

فكل الثروات المختلفة المحفوظة حاليًا في المغرب تشكلت انطلاقاً من الفترة المرينية.

ثانياً: في الحاضر

ترجع المخطوطات المحفوظة حاليًا في المغرب إلى القرون الستة الأخيرة، وتبين لنا الفهارس التي أنجزت في الفترة المعاصرة ما تخفيه هذه الخزانات من كتب قيمة، وبالرغم من سعة هذه الفهارس وشموليتها فإن كثيرًا من المخطوطات النادرة مازالت مجهولة وغير معروفة حتى للكُتبيين أنفسهم.

وسنكتفي هنا بالحديث عن ضروب من المجموعات غير المدروسة، والتي تضم عددًا كبيرًا من المخطوطات النفيسة والنادرة.

المجموعة الأولى: الفهرسة:

كلمة من أصل فارسي، ولها معنيان ذكرتهما كتب اللغة:

الأول: الكتاب تجمع فيه أسماء الكتب مرتبة بنظام معين.

الثاني: لحق يوضع في أول الكتاب، أو في آخره، يذكر فيه ما اشتمل عليه الكتاب من الموضوعات والأعلام، أو الفصول والأبواب، مرتبة بنظام معين، فهي مؤلفات تضم معلومات متنوعة عن الحياة الثقافية لفترة معينة، كما أنها تحيلنا على المواد والدروس، وخاصة الكتب المدروسة في مختلف مؤسسات التعليم في المغرب. فكان المحدثون أول من أودع فيها أسماء شيوخهم، ومنها جاءت تسمية «مشيخة»، وبعد أن بدأ المؤلفون يرتبون فيها أسماء الشيوخ وعناوين الكتب ألفبائيًا استبدلت «مشيخة» بلفظة «معجم»، واستقرت أخيرًا على كلمت «ثبت». أما في المغرب الإسلامي فاستخدمت لفظة «برنامج» في الأندلس، «وفهرسة» في المغرب للإشارة إلى هاته الأنواع من المجاميع.

لقد بلغ عدد الفهارس كثرةً حتى صار من غير الممكن أن نحصرها في لائحة شاملة، ولذا سنكتفي بذكر بعض النماذج منها:

- «الغنية» للقاضي عياض السبتي ت (٥٤٤هـ - ١١٤٩م): وهي من أقدم الفهارس المغربية، وليس هناك خزانة كبيرة لا تتوفر على نسخة منها، كما توجد نسخة منها في الخزانة الوطنية بمدريد برقم (٣٠٧)، ونسخة في دار الكتب بالقاهرة برقم (٤٩١٣).
- فهرسة العلامة«أبي سعود الفاسي» ت (١٠٩١ هـ - ١٦٨٠ م): هناك نسخة منه محفوظة في الخزانة الأحمدية في فاس.
- فهرسة «عبدالملك التجموعتي» ت (١١١٨هـ -١٧٠٦م): تحتفظ بنسخة منه الخزانة الفاسية بفاس.
- فهرسة «ابن الطيب القادري» ت (١١٨٧هـ - ١٧٧٣م): يوجد مخطوطها الأصلي في الخزانة الخاصة للأستاذ «إبراهيم الكتاني»، محافظ جناح المخطوطات في الخزانة العامة بالرباط.
- فهرسة «المهدي بن سودة» ت (١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م): مخطوطها الأصلي محفوظ في الخزانة الأحمدية في فاس.

المجموعة الثانية: الكناشات:

الكناشة حسب الاصطلاح المغربي: هي مجموعة من الملاحظات والمقاطع التي ألفها شخص معين في شؤونه الخاصة. فيدون فيها الكتب التي قرأها أو درسها، ويضيف إليها أحيانًا بعض آثاره الخاصة، ويذكرون فيها بعض الأحداث التاريخية التي أهملها المؤرخون، فهي تشتمل على الأحداث التي شاهدها صاحب الكناشة وأشعاره ومساجلاته الأدبية وفوائده، وقد بدأ المغاربة في تأليف هذا النوع من المجموعات ابتداء من القرن(١٤م)، وقد كتب العديد من المؤلفين المغاربة كتبًا بهذا العنوان نذكر منها:

- كناشة «عبد الرحمن بن محمد الجادري الفاسي» ت (٨١٨هـ - ١٤١٥م)، وهي أقدم كناشة عرفت في المغرب، وقد اعتبرت في عداد المفقودات إلى أن تم العثور على أجزاء منها ضمن آثار محمد العربي الفاسي، وعبد الرحمن الونشريسي.
- كناشة «محمد بن قاسم الزجالي الفاسي» ت (١٠٧٢هـ - ١٦٦٢م):وهي أقدم كناشة موجودة اليوم.
- كناشة «عبد الرحمن الفاسي» ت (١٠٩٦هـ - ١٦٨٤م).

كما أن هناك كناشات على شكل سيرة ذاتية، مثل:

- كناشة «أحمد زروق البرنسي

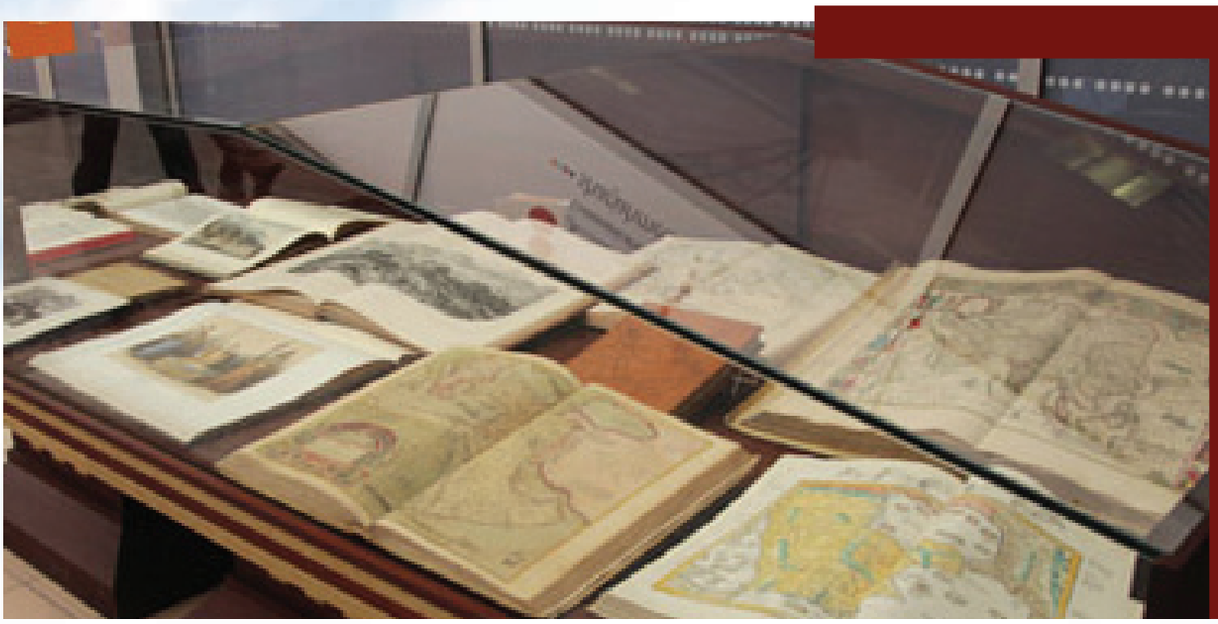

الفاسي» ت (٨٩٩هـ - ١٤٩٣م)، وهو مخطوط خاص لـ«عبدالحي الكتاني».

● كناشة «عبد الواحد الونشريسي» ت (٩٥٥هـ - ١٥٤٨م).

وفي بعض الأحيان كان المؤلف يصنع أكثر من كناشة، مثل كناشة «أبي العباس أحمد بن عبدالله التناني الصويري» ت (١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م)، وهي تتألف من كناشتين في العلوم الرياضية والفلكية. وأكبر كناشة عرفت في المغرب هي كناشة «اليحمدي»(١١٣٢هـ - ١٧١٩م)، توجد منها نسخة في (١٠) أجزاء، ونسخة في (٨) أجزاء.

خصائص الكناشات

● أنجزها أصحابها في أغلب الأحيان بخط نسخي مغربي.

● لم تكن تتوفر على عنوان، ولا حتى على فصول، وحتى اسم المؤلف لم يوجد إلا نادرًا.

● محتواها يعكس تخصص أصحابها (الفقه في كناشة الفقيه، والأدب في كناشة الأديب...).

المجموعة الثالثة: المجاميع

هي أسفار تحتوي على العديد من الكتب دفعة واحدة ذات محتوى متنوع، مصنفة تحت رقم واحد.

فهذه المجاميع تضم تقريبًا كل المجالات المعرفية التي كانت تدرس في المغرب منذ منذ العهود الأولى.

ولم تقتصر هذه المجاميع على العلوم الدينية فقط، بل ضمت أيضًا علومًا متنوعة كعلم الطب والبيطرة.

ومن الأمثلة على ذلك:

● المجموع المحفوظ في الخزانة الملكية تحت رقم (٣٤٧٧)، يحتوي على نسخة قديمة جدًا من كتاب «سر صناعة الطب» للرازي ت (٣١١هـ - ٨٢٣م).

● ومجموع آخر من نفس الخزانة يحتوي على مؤلف في علم الصيدلة عنوانه «الأدوية المفردة»، لمؤلفه أبو الصلت الداني ت (٥٢٩هـ - ١١٣٤م).

كما تحتوي هذه المجاميع على نسخ من الفهرسة مثل:

● فهرسة آثار الإمام السيوطي ت (٩١١هـ - ١٥٠٥م)، التي كتبها هو بنفسه.

● فهرسة ابن الغازي ت (٩١٩هـ - ١٥١٣م)، وفهرسة المنجور ت (٩٠٥هـ - ١٥٨٧م).....

وتحتوي أيضًا هذه المجاميع على:

● رحلات الرحالين المغاربة مثل: ابن العبدري والغساني ت (١١١٩هـ - ١٧٠٧م)، ضمن مجموع الخزانة الملكية تحت رقم (٣٦٣٧).

● كتب ومناقب الأولياء مثل: كتاب «الدر النفيس والنور الأنيس» لأحمد ابن عبدالحي الحلبي الفاسي، ضمن مجموع الخزانة الملكية تحت رقم (٣٨٢).

● مؤلفات التراجم مثل:كتاب «الوفيات» لابن القنفذ القسنطيني ت (٨١٠هـ - ١٤٠٧م).

لقد كان لهذه المجاميع أهمية بالغة، فلم تكن تخلو منها أي خزانة كتب عامة أو خاصة.

ولقد قامت بعض الخزانات بفهرست مجاميعها وترقيمها في حين أن الكثير من الخزانات الأخرى لم تقم بذلك.

الخلاصة:

مما سبق يتبين لنا قيمة الدرر النفيسة التي تحتويها دور الكتب المغربية، وما يميزها من تنوع في علوم شتى ما زالت ترمي بظلالها على المكتبات العربية والعالمية، لتنير الحاضر بعراقة الماضي.

والمدقق بين ثنايا هذه المكتبات العريقة يقع نظره على مخطوطات نادرة لا يمكن للباحث أن يتجاهل ذكرها والحديث عنها، ولكن لما حكمتنا الكلمات، وضاق بنا المقال؛ آثرنا أن تكون في بحث مستقل لاحق إن شاء الله.

المراجع

● تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، للدكتور مصطفى طوبي (وهو أساس المادة).

● فهرس الفهارس، للكتاني.

● الكناشات المغربية، للمنوني، في مجلة المناهل العدد ٢-١٩٧٥م.

● الدليل لابن سودة.

● معجم البلدان، لياقوت الحموي.

● ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

دراسات غربية أكدت تنامي الظاهرة

الخوف من الإسلام.. مسؤولية من؟!

ريهام عاطف - القاهرة
دار الإعلام العربية

«الإسلاموفوبيا»، أو الخوف من الإسلام، هو أحد المصطلحات المتداولة في الفضاء المعرفي المعني بعلاقة الإسلام بالغرب، مجسدا تنامي المشاعر السلبية للمجتمعات الغربية، والتي تزايدت بصورة قياسية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الطرفين. كما ارتبط استخدام المصطلح بردود الأفعال تجاه بعض الإساءات التي تعرض لها الإسلام من قبل شخصيات ومؤسسات غربية مختلفة، وهو ما حدث في أزمة الرسوم المسيئة إلى الرسول ﷺ. فهل نحن كمسلمين لم نقدم الإسلام كما ينبغي بحضارته ووسطيته؟ هل قدمنا وجها متطرفا ولم نحسن تقديم الإسلام كما أمرنا رب العالمين؟ هل قدمنا الإسلام في صورة فظة أعطت للغرب المتربص كل الحجج والوسائل؛ لكي يحاربنا ويمتلئ منا خوفا وكرها، أم أن الإعلام الغربي ساهم بشكل واضح في ترسيخ صورة ذهنية مشوهة للإسلام والمسلمين من تلقاء نفسه؟

في البداية، يرى أستاذ الفلسفة والعقيدة في جامعة الأزهر د.صلاح العادلي، أن مواجهة الإسلاموفوبيا، وتحسين صورة الإسلام لدى الغرب، لا بد أن يقترنا بدعوة حقيقية لنبذ أشكال الخطاب الذي يميل إلى عدائية مفرطة تجاه الغرب، وأن نستخدم أسلوبا أكثر اعتدالا، يناسب وسطية الإسلام وسماحته، فالأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة للمختلفين مع الإسلام والصورة الحضارية الراقية، هي خير سفير والسبيل الوحيد لمواجهة أعدائه.

وربما فشلت أساليبنا في هذا الشأن لأن كثيرا من علمائنا يسيرون على الطريقة النمطية التي يعرفونها عن الإسلام، كأنهم يخاطبون المسلمين وليس الغرب. لذلك، هم بحاجة إلى معرفة ودراسة كيف يفكر العقل الغربي، وما وسائل التأثير على المواطنين هناك، وهذا يقتضي دراسة عادات شعوب هذه الدول وثقافاتهم، والعوامل التي تؤثر فيهم وفي خطابهم، إضافة إلى أن علماء العرب، الذين يخاطبون الآخر، يفتقدون معرفة لغة الغرب، كما يفتقدون الأدوات التكنولوجية والمعرفية الحديثة التي أصبح لها دور كبير في التأثير على عقلية الإنسان الغربي. لذلك، ينبغي الخروج من عباءة الخطابة التقليدية إلى استخدام الطرق العلمية الحديثة، مثل الإعلام وشبكة المعلومات الدولية.. فهذه كلها أساليب تقنية وعلمية ينبغي على العلماء استخدامها لتحسين وبيان حقيقة الإسلام والتعريف به، ورد الشبهات عنه، لمواجهة تنامي الإسلاموفوبيا، بدلا من الاعتماد فقط على أسلوب الوعظ، والدعوة التي تناسب المسلم داخل الأوطان الإسلامية ولا تتناسب كثيرا مع الآخر.

المشكلة الحقيقية

من ناحية أخرى، يؤكد أستاذ الشريعة في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة د.محمد المنسي، أن المشكلة الحقيقية تكمن فينا كمسلمين وليست في الغرب، فنحن كمسلمين نقول الشيء ونفعل غيره.. وعلينا أولا أن نفهم الإسلام ومنهجه، ونتصرف كمسلمين قبل أن نوصله للآخرين.. وقبل أن نشرع في تحسين صورته للغرب، علينا أن نحسن صورته بين أنفسنا. فللأسف، عالمنا الإسلامي لديه ثروة ضخمة، ولا نعرف كيف نستفيد منها! ولمواجهة تلك الكراهية المغروسة في قلوب كارهي الإسلام، علينا استخدام اللغة الموضوعية واحترام الآخر، ومحاولة جذبه بطريقة هادئة إلى المنهج الإسلامي، فقط لتخفيف تلك الكراهية المزروعة في القلوب، وليس ليعتنقوا الدين الإسلامي، وهو السبيل الأفضل والطريق المناسب لتصحيح صورته لديهم.

كما يؤكد المنسي أن للإعلام دورا ليس بالهين في ازدياد اتساع الفجوة بين المسلمين والغرب، فإعلامنا الحالي ليس إلا تابعا للإعلام الغربي، كما أنه لا يتسم بالحيادية والموضوعية، ودائما ما يعبر عن أهواء البشر. لذلك، فمن الطبيعي أن نفتقد ذلك الإعلام الذي ينقل الصورة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين، ولكن -مع الأسف- ما يحدث الآن من آفات غريبة على الإسلام، زرعت داخل المجتمعات الإسلامية، بل وتتحدث باسمهم، وهي بعيدة كل البعد عن الدين الإسلامي ومنهجه، كان السبب في تضاعف كراهية الغرب للإسلام والمسلمين، يوما بعد يوم، واتساع الفجوة بينهما.

ترويج

بدوره، يؤكد الأمين العام الأسبق للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية د.محمد الشحات، أن كثيرا من البلدان الغربية أصبحت تتفنن في ترويج الإسلاموفوبيا، وخلق الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، علاوة على ما تقوم به حكومات هذه البلدان وأجهزتها الإعلامية والدولية، والتي تقف وراء صناعة «الإسلاموفوبيا» وتساندها،

المسلمات أكثر الضحايا

«٥٨ في المئة من حوادث «الإسلاموفوبيا» التي وقعت في بريطانيا خلال عامي ٢٠١٢ و٢٠١٣، طالت نساء مسلمات».. هذا ما أكدته إحصائية مؤسسة «أخبر ماما» لتسجيل الجرائم والحوادث المعادية للمسلمين في بريطانيا.. بخلاف الانتهاكات والتهديدات عبر شبكة الإنترنت. وكان ٨٠ في المئة من النساء اللواتي تعرضن لهذه الحوادث يرتدين البرقع أو الحجاب أو غيرهما من الملابس المرتبطة بالإسلام.

من دور كبير في مواصلة الطعن والتشويه. والإساءة تهدف في المقام الأول، إلى النيل من العالم الإسلامي، وهو ما يسهم -بلا شك- في زيادة الاحتقان بين العالم الإسلامي والغرب، ونفور الأخير المستمر من المسلمين، وارتباط صورة الإسلام في أذهان أهله بـ«الإرهاب». والشواهد الحديثة عديدة في هذا الأمر، فعلى سبيل الذكر وليس الحصر، بالنظر إلى ما قررته المحكمة الروسية في سبتمبر الماضي، حول حظر واحدة من ترجمات معاني القرآن في البلاد، سنجد ذلك القرار دليلا يمثل طعنة جديدة في سلسلة معاداة الإسلام وتدليس صورته وتشويهها.

ويضيف: لا شك أن الانحرافات في الممارسات واختلالات الفهم التي أصابت بعض مناطق المجتمع الإسلامي، وما تبعها من ظهور انحرافات فكرية وعقائدية لبعض الدخلاء، والتي لا تمت للدين الإسلامي بصلة، زادت من كره المجتمعات الغربية لنا، وتحريك مشاعر السخط والعداء نحونا، وساهمت في اتساع الفجوة. لذلك، على المجتمعات الدولية ضرورة احترام الأقليات والجاليات المسلمة الموجودة في كل دول العالم، وعدم انتهاك حقوق الإسلام، ومحاربة من يستشرون الفساد والغل والحقد لكل المسلمين، مع ضرورة خلق صورة ذهنية صحيحة عن الإسلام وتعاليمه السمحة وأخلاق المسلمين الحقة، ومقاومة هذه الصناعة الخطيرة التي لا تسيء فقط إلى الإسلام بقدر ما تسيء إلى الإنسانية كلها، وتوعية المجتمعات بغرضها الدنيء في النيل من الرصيد الحضاري الإسلامي، الذي أسهم في إثراء الحضارة الأوربية كلها.

د.صلاح العادلي: نحتاج إلى خطاب دعوي يخاطب الغرب بلغته ليبدد مخاوفه

تأهيل

أما الداعية في وزارة الأوقاف المصرية، وعضو المركز الإسلامي في سويسرا عماد مختار، فيرى أن السبيل الوحيد لمواجهة الإسلاموفوبيا وكارهي الإسلام، يتمثل في إعادة تأهيل الدول الإسلامية؛ لتعرف كيف تتعامل مع غير المسلمين، كما تتعامل الدول بعضها مع بعض، فتحسن دائما اختيار سفرائها؛ للحرص على بقاء المصالح المشتركة والود المتبادل. فالإسلام في أوروبا لا يجد من يمثله، فيلجأ الأوروبيون إلى معرفة الإسلام من المسلمين المقيمين هناك، وغالبا ما يكونون غير مؤهلين للتحدث باسم الدين أو تمثيله، فتصل إليهم الفكرة مشوهة تنتابها العديد من الأخطاء. ولا بد من أن نحسن اختيار الأئمة المتحدثين باسم الإسلام في تلك البلاد؛ إذا أردنا توصيل صورة ذهنية صحيحة عن الإسلام ومنهجه، فالخطاب الإسلامي الحالي في تلك البلاد يعاني قصورا شديدا، وهو ما قد ينفر الناس من الإسلام وعقيدته، فنجد بعض القضايا الفرعية تهيمن وتأخذ الأولوية، ولا يصح أن تقال للمسلم الجديد، في حين يغفل الحديث عن القضايا الحقيقية الممثلة للعقيدة، فيتصيد الإعلام الغربي ذلك ويستغله في تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

أيضا لا بد من طرح بديل إعلامي جيد من خلال توظيف بعض وسائل الإعلام المتخصصة من المسموعة والمرئية والمقروءة؛ لتقوم ببث خطاب إسلامي واضح، يبتعد عن خلط الأمور بعضها ببعض، على أن يكون بلغة البلد الموجه إليه نفسها. فالمشكلة الآن، هي أن وسائل الإعلام الدينية المتخصصة تبث رسالتها إلى المسلمين وباللغة العربية، وهو ما لا يحقق لها أي تأثير أو صدى في بلاد الغرب.

الخروج ممنوع!

في دراسة حديثة وثّقت بعض الانتهاكات والإهانات التي تتعرض لها المسلمات في بريطانيا، استكمالا لسلسلة المعاداة ضد الإسلام و«الإسلاموفوبيا»، والتي قام بها الدكتور كريس ألين، المحاضر في السياسات الاجتماعية في جامعة برمنغهام البريطانية، مع ٢٠ امرأة مسلمة، تتراوح أعمارهن بين ١٥ و٥٢ عاما، جاء أن رجلا حاول دهس امرأة مسلمة بسيارته حين طلبت منه تحريكها من أمام مدخل منزلها، وأبلغها قبل أن يهاجمها بأنه «سيدهسها بسيارته لأنها مسلمة»! وفي حالات أخرى وُضعت أربعة رؤوس لخنازير متحللة أمام منزل امرأة مسلمة، وإرسال مفرقعات إلى مسلمة عبر البريد، والاعتداء بصورة متكررة على مسلمة، تدعى شريفة (٣٣ عاما)، من قبل مجموعة من الشباب أطلقوا عليها نعوتا مثل «النينجا».

ونقلت الدراسة عن مسلمات أن هجمات «الإسلاموفوبيا» جعلتهن «يخشين من الخروج إلى الشارع أو إلى أي منطقة بمفردهن، ويشككن في هويتهن البريطانية، ويفكرن في مغادرة المملكة المتحدة».

التعصب... مفسد للدين والدنيا

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحافي

في موضوع شائك كهذا، تبدو الحاجة أكثر إلحاحا إلى الوقوف قليلا مع تعريفات ومضامين المفاهيم التي نحن بصددها؛ حتى ننطلق من أرضية واضحة في المعالجة والحوار.

● أما «التسامح» فهو من اللين والسهولة؛ يقال: «سمح- سمحا وسماحا وسماحة: لان وسهل، وانقاد بعد استصعاب» (١). وهو: «سعة صدر تفسح للآخرين أن يعبّروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول. ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصة على الآخرين» (٢).

● وأمّا «التعصب»، فهو من «عصب اللحم بالكسر، أي كثر عصبه. وانعصب: اشتد. والعصب: الطي الشديد. وعصب الشيء يعصبه عصبا: طواه ولواه، وقيل: شده. وتعصب، أي شد العصابة. والعصابة: العمامة. والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أم مظلومين. وفي الحديث: العصبي من يعين قومه على الظلم» (٣).

وجاء في «المعجم الفلسفي»: «التعصب»، غلو في التعلق بشخص، أو فكرة، أو مبدأ، أو عقيدة؛ بحيث لا يدع مكانا للتسامح. وهو ضرب من الحماسة الشديدة التي قد تؤدي إلى العنف والاستماتة. وهو بهذا حال غير سوية على مستوى الفرد والجماعة، ويصاحبها ضيق أفق وبعد عن التعقل (٤). والتعصب نقيض الحرية والتسامح. إذا ازداد التعصب قلّت الحرية، والعكس بالعكس» (٥).

● وهناك مصطلح يتقاطع مع التعصب وهو «الغلو». و«الغلو: تجاوز الحد. يقال ذلك إذا كان في السعر غلاء، وإذا كان في القدر والمنزلة غلو. قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ (النساء:١٧١). والغلواء: تجاوز الحد في الجماح؛ وبه شبه غلواء الشباب» (٦).

من هذه التعريفات يمكن أن نخلص إلى أن: التسامح حالة نفسية بالأساس تستتبع موقفا فكريا؛ فمجرد العلم لا يؤدي إلى التسامح إلا إذا تحلى صاحبه بأخلاق فاضلة. والتسامح والحرية مترابطان، وإن شئت فقل: مترادفان.

أما التعصب ففيه معنى الطي واللي والشد، أي الانغلاق والانطواء؛ فالمتعصب لا يحب أن يرى أو يسمع خلاف ما يعتقد، أو يسمع سماع المعرض لا سماع من يبحث عن الحقيقة. وقد يتطور التعصب من مجرد موقف فكري إلى فعل مادي، بالعنف والقتل.

بينما الغلو هو تجاوز الحد لشيء ليس بالضرورة أن يكون خطأ، بل قد يكون صحيحا في أصله، مثل المغالاة في حب الأنبياء بعبادتهم! أو المغالاة في حب الأوطان بالعنصرية! والغلو أقرب أن يتسرب إلى الشباب؛ لأنها مرحلة عمرية تتصف بالاندفاع والحماسة وعدم الروية.

إشارات

إذا نظرنا إلى المنهج الإسلامي -كدعوة وعملية تغيير- نجد أننا أمام عدة أركان يقوم عليها هذا المنهج، وهي: «المرسِل» وهو الله سبحانه، و«الرسالة» وهي الإسلام، و«المرسَل» وهو النبي محمد ﷺ، و«المرسَل إليهم» وهم المسلمون، والناس كافة.

وقد وردت إشارات في القرآن الكريم والسنة النبوية تدلنا على أي مدى أن الإسلام بهذه الأركان هو أبعد ما يكون عن إقرار التعصب، فضلا عن الدعوة إليه.

فالله سبحانه أخبرنا عن ذاته العلية بأنه لم يخلق الناس ليعنتهم ولا ليوقع بهم الحرج والمشقة؛ فقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٧). ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥). ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ (الحج:٧٨).

و«الرسالة» قال الله تعالى عنها: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦). كما قال عنها النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» (رواه أحمد من حديث أبي أمامة).

و«الرسول ﷺ» قال الله تعالى عنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

و«المسلمون» حدد لهم النبي ﷺ المنهج الذي ينبغي عليهم اتباعه، فقال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» (رواه البخاري من حديث أبي هريرة).

والسؤال: إذا كانت هذه الإشارات -وغيرها كثير- قد تواترت بحق المنهج الإسلامي، فكيف تسرب التعصب إلى واقعنا، وغاب التسامح بما يستلزمه من حرية في الفكر وتعددية في المواقف والرؤى؛ حتى تطور ذلك -أو تدهور- إلى عنف مادي، أساء إلى الإسلام بما لم يسئ به أعداؤه؟!

أسباب مشتركة

التعصب؛ سواء كان فكريا، أو سياسيا، أو اجتماعيا، أو متعلقا بموقف أو بشخص، له أسباب عامة مشتركة تقف وراء هذه الظاهرة؛ أهمها:

اضطراب الأسرة: فإذا نشأ الطفل في بيئة أسرية مضطربة ممتلئة بالمشكلات، يتسلط فيها أحد الأبوين على الآخر؛ فإنه -لا شك- سينشأ منطويا أو عدوانيا تجاه الآخرين، وهو في الحالتين لن يعتد إلا برأيه، ولن يثق بغيره(٧).

قلة العلم: فكلما ازداد الإنسان علما أدرك أنه يجهل أكثر مما يعلم، وأنه لا يلم إلا بطرف من الحقيقة وغابت

عنه أشياء، وأن ما يظنه صوابا محضا قد يكون هو الخطأ المحض! أو على الأقل قد يكون أحد أوجه الصواب. حينئذ لا يسعه إلا أن يتبع منهج الإمام الشافعي القائل: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب».

وإن الدارس لتاريخ الحركات التي انجرفت إلى هوة التعصب، واتخذت العنف طريقا، ليجد أنها قامت على أناس قليلي العلم، وأخذوا عن الكتب أكثر من العلماء؛ فأورثتهم قلة العلم، والطريقة الخاطئة في التلقي، فهما سقيما حسبوه الحقيقة المطلقة.

لكن المنهج الصحيح يقتضي أن ندور مع الدليل أينما دار، ونبحث عن الحق ولو لم يوافق هوانا، ونأخذ به ولو جاء ممن خالفنا في المذهب.. وندرك أن محكمات الشرع وقطعياته التي لا يجوز الخلاف بشأنها قليلة جدا، وأن ما دون ذلك كثير، والباب فيه مفتوح لتعدد الآراء والاجتهاد المنضبط؛ وهنا تكون القاعدة أنه «لا إنكار في المختلف فيه».

غياب الحريات: إن كلمة ابن خلدون الجامعة: «الظلم مؤذن بخراب العمران»، تلخص الآثار الكارثية التي تنتج عن بيئة القهر والتسلط، وعن غياب الحريات، وانعدام الأفق السياسي الذي يسمح بالتعددية والحوار، وانطلاق المواهب والأفكار من عقال الخوف والريبة.

وحين يجهر الفرعون بـ ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ (غافر:٢٩)، فإنه لن يقابل إلا بردة فعل في الاتجاه المضاد؛ لا تعترف بالحوار، ولا تؤمن بجدوى الأفكار، ولا ترى إلا ذاتها.. وهل ثمة بيئة لتفريخ التعصب والغلو أفضل من هذه؟!

الانغلاق على الذات: إن من سنن الله الثابتة، أنه لم يخلق الناس على نمط واحد، بل قرر فيهم «سنة الاختلاف» في الألسنة والألوان والأعراق، بل حتى في الشرائع والمذاهب، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢). وقال سبحانه أيضا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٨ و١١٩).

لكن المنغلق على ذاته لا يرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا صوته، ولا يعترف بحق الآخرين في الاختلاف والاجتهاد، بل ربما لم ير لهم حقا في الحياة أصلا! وهذه الرؤية الأحادية مخالفة لسنة الله في الكون، ومن شأنها أن تجعل صاحبها يستهين بحقوق الآخرين، ويستخف بحرماتهم.

شيء من التسامح

في مقابل ظاهرة التعصب والغلو، التي لها آثارها المفسدة للدين والدنيا، تبدو أهمية قيمة التسامح كإحدى القيم الضرورية التي لا غنى عنها لمن ينشد مجتمعا متماسكا، ويبتغي تدينا صحيحا يتساوق مع الفطر السليمة والعقول المستقيمة.

والتسامح كقيمة فكرية وموقف عملي يقتضي أن نؤكد عدة أمور:

- إن كل إنسان -فيما دون العقائد؛ إذ الدين عند الله الإسلام- يملك طرفا من الحقيقة، مثلما أن العلم لا يعرف الكلمة النهائية؛ فهناك دائما ما يدعو إلى التغير والتطور، وتجربة الإمام الشافعي في مذهبه الجديد بعد القديم، خير شاهد؛ وما قرره الفقهاء من أن الفتوى -لا الحكم- تتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، يساند هذا ويعضده.
- التسامح يعني بالضرورة وجود من يخالفنا؛ وإلا فلا معنى للإشارة إلى التسامح والتأكيد عليه لو أن ثمة إجماعا على رأي واحد!
- التسامح مع المخالف لا يعني الرضا بما يقول به، ولا التنازل عن قناعاتنا الذاتية؛ بل يعني فقط السماح بوجوده والإقرار بحقوقه.
- إذا كانت إرادة الله سبحانه قاضية باختلاف الناس وتنوعهم، فلا راد لذلك؛ ومهمتنا أن ننقل هذا الاختلاف من دائرة الصراع والمواجهة إلى دائرة التدافع والتكامل.
- علينا أن نحذر من دعوات التسامح التي توجه بطريقة ملتوية بغرض أن ينصرف أهل الحق عن التمسك بحقهم ويرضوا بما وقع من ظلم؛ فهذه الدعوات تفقد قيمتها الأخلاقية إذا أريد لها أن تكون ستارا لتسويغ الظلم وتبرير الاستسلام.
- ينبغي أن تقدم النظم السياسية نموذجا للتسامح من نفسها أولا؛ فالناس على دين ملوكهم، والشعوب تربى وتعلم؛ وإذا كان المجتمع بفئاته مطالبا بإشاعة التسامح وجعله قيمة راسخة في الحياة بمختلف اتجاهاتها، فإن من بيدهم الأمر والنهي يصبحون أكثر مسؤولية في تحقيق تلك القيمة المهمة، التي هي -بلا شك- لازمة لعمارة الدنيا واستقامة الدين.

الهوامش

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، ص: ٤٦٥، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٨م.

(٢) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي، ص: ٤٤، المطابع الأميرية، من دون رقم الطبعة، ١٩٨٣م.

(٣) ابن منظور لسان العرب، مادة (عصب)، ص: ٢٩٦٣/٤، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، من دون رقم الطبعة وتاريخ النشر.

(٤) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص: ٤٩.

(٥) جميل صليبا، المعجم الفلسفي ٣٠٦/١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، من دون رقم الطبعة.

(٦) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ٤٧٣/٤٧٢، مكتبة نزار مصطفى الباز، من دون تاريخ.

(٧) ذكر د. طارق حجي في كتابه «تجربتي مع الماركسية»- الفصل الأول: الماركسية والماركسيون والأخلاق- أن الجماعات اليسارية المتطرفة كان يلاحظ انحدار شبابها من أسر مضطربة، وأنهم يعانون انحرافات نفسية وأخلاقية جعلتهم حانقين على المجتمع. كما ذكر أن هذا كان رأي الأستاذ عباس محمود العقاد أيضا.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعيـة والمعلومة الصحيحة المنضبطة بضوابط التوثيق العلمي، فقد رأت المجلة أن تعيد التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي من الشروط:

ما يتعلق بالكاتب

- أن يكون الكاتب متخصصا في مجال كتابته وأن تؤهله ثقافته للكتابة في الموضوع الذي يتطرق إليه.
- أن يرسل صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- أن تكون المراسلات باسم رئيس التحرير.
- أن يكون العنوان كاملا، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، وضرورة إرسال البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- أن يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- أن يكون المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- أن تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- أن تكون المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية.
- ألا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، وأن يبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- أن تكون الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات مقرونة بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال منشورًا في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

الوعي الإسلامي

الإيغال في دروب التدين: حالة جنوح...!

د. محمد سعيد باه
باحث دراسات إسلامية

أرى، وقد يرى غيري خلاف ذلك، أن التعصب ليس سوى صورة جزئية من إفرازات «الغلو» مثل البغي، المروق، الفتنة. أما الغلو فهو أصل البلاء، ومصدر الشقاء، وعامل الشقاق، وسبب تفجر النزاعات وتمزيق الكيانات المتجمعة.

هذا ما قد يظهر لنا حين نلقي نظرة استجلائية في حالة المجتمعات البشرية اليوم عن كثب، فنجد أن ظاهرة عدم الاستقرار سببها الغلو بحيث لا يكاد يخلو مجتمع من كدرها، وهو ما تعبر عنه الصراعات الداخلية والحروب البينية التي عصفت بأمم، وحطمت دولا كانت تنعم بالتماسك بين الشرائح المكونة لها. والمؤسف أن أوسع مسرح لهذه الحزازات يقع ضمن دائرة المناطق التي تقطنها الأمة الإسلامية داخل العالم الإسلامي وخارجه.

ولدى البحث عن العلة الكامنة وراء هذا العصف، الذي يكاد يقتلع كل شيء، لا يندر أن نجد من بين المسببات الأكثر حضورا ما يمكن أن نطلق عليه هنا «سيطرة عقلية جانحة». لكن هذه العقلية لم تنشأ هي الأخرى من فراغ، بمعنى أنها تعبير وليست هي العلة، كما تتغذى من ثقافة ذات طعم مر لا يمكن أن ينتج عنها إلا مثل هذا النوع من النظر الحاد إلى الحياة وإنتاج مفاهيم تتعلق بالآخر، كائنا من كان هذا الآخر، غالبا ما تتسم بالعقم، وتعبر عن نفسها متى نشأت ظروف مواتية.

والملاحظ كذلك أن هذه العقلية الجانحة تتطور حتى تظهر في مرحلة ما على شكل ممارسات تتسم بقدر كبير من العنف بكل أنواعه: قولا عند العجز وفعلا عند التمكن. وذلك ببساطة لأن الخيط الفاصل بين الضفتين غاية في الرقة!

ولتشعب ميادين الغلو وتباين الطرائق التي يتبعها المغالون للتعبير عن حالة الغليان الداخلي التي يكابدونها، سنحاول أن نتناول الموضوع في إطار المقاربة المرتكزة على البعد «التديني»، الذي يمثل في العالم المعاصر أبرز عناوين الجنوح الحاد، الذي يعتبر الكثير من الاختلالات الاجتماعية والسياسية والفكرية من أهم انعكاساته، والتي يأتي الإرهاب -بكل أنواعه ومصادره ومستوياته وتجلياته- على رأسها. وبالتالي، يبقى الطرح المنبثق من القراءة الجادة في إطار النص الديني من أقوم السبل لتناول الموضوع بقصد تصحيح الرؤية.

نؤكد أولا بأن طرحنا للموضوع ينهض على فكرة أن الغلو مرض نفسي يصيبنا أو يخطئنا (ليس التدين إلا شكلا للتجلي). ومن سماته أنه يتخذ أشكالا متباينة تتفاوت في درجات العنفوان وفق مؤشرات سنعرض نماذج منها، مثل مدى حدة مزاج المغالي، فالإنسان الذي يعاني من هذا الاختلال الوظيفي في المزاج النفسي سيعبر عنه خشونة في ساحات المنافسة إذا كان رياضيا، أو عنفا ضد زوجه داخل عش الأسرة، أو حدة في العبارة حين يسطر مقالا أو يعلي نبرة في قصيدة إذا كان من أرباب القلم..، فهذا الذي سيفجر القنبلة أو يطلق الرصاصة متى حازها.

لكن السؤال الذي يلاحقنا: ما مبرر ربط الغلو بأصحاب الديانة؟

قد يكون مرد هذا اللصق، الذي غالبا ما نستهجنه ونؤسس دفوعاتنا على

أن خصومنا يغالون في طرح هذه التهمة على ظهورنا، إن طبيعة الديانة قابلة لتمكين هذا الصنف من الناس بأن يتقمصوها في إطار سعيهم إلى احتلال مواقع متقدمة في صفوف المجتمع الذي يعيشون فيه، لكن المؤهلات المكرسة والمتعارف عليها تنقصهم؛ وهنا يبحثون عن مرتكز بديل يعولون عليه من أجل إشباع الجوع الشديد الذي يعالجونه من أجل البروز والتميز. ونستطيع التعبير عن هذا النزوع من الناحية النفسية بعقدة التصدر.

يمكن أن يتقوى هذا الاستنتاج بالنهج الذي اختطه القرآن الكريم في تناوله لمسألة الغلو مع ما يترتب عليه من نتائج وخيمة، حيث حصر حديثه، حين وجهه إلى أهل الكتاب، في البعد التديني، مما يدل على خطر الغلو فيه مقارنة مع غيره.

فلنتل الآيتين اللتين لم يستخدم كتاب الله مصطلح الغلو إلا فيهما فقط، ثم نسرد بعض الخواطر التي يمكننا استخلاصها منهما:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ..﴾ (النساء:١٧١). ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾، (المائدة: ٧٧). وبالتأمل في آية المائدة نلاحظ الدقة التي عالج بها القرآن إشكالية الميلان الذي سيقود -مهما طابت النوايا وسلم القصد- إلى نتيجتين خطرتين هما: الضلال والإضلال.

ثم تلمِّح الآية إلى أن هذا الجنوح الذي ننتقل به إلى حافة الهاوية حالة مجازفة محفوفة بالمخاطر، إنما يأتي حين نحطم تلك الحواجز الواقية التي تحمينا من السقوط في مهاوي الغلو، وقد عبرت الآية عن هذا الانحراف الحاد بـ: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

إذن، فالمنهجية التي ترسمها الآية بطريقة ضمنية تتمثل في السير وسط السبيل السوي القادر على إيصالنا إلى وجهتنا، شريطة أن تتحدد بجلاء، ونحث الخطى نحوها في ثبات، وفق ما نملك من قدرات ونحمله من زاد حري أن يبلغنا، مع الحرص على ألا نكون المنبت الذي حذرنا منه المصطفى ﷺ.

بناء على التحليل السابق لبعض جوانب الإشكالية، نملك جملة من المؤشرات التي نستدل بها على وجود حالة من الجنوح تستدعي الرصد والتوصيف تمهيدا للمعالجة:

- النزوع إلى ممارسة السلطة افتئاتا على أصحاب السلطة الحقيقيين، من دون الأخذ في الاعتبار ما يمكن أن ينجم عن ذلك من مضار.
- التعامل مع القضايا الأساسية بقدر كبير من السطحية مع اتباع أساليب غاية في الخشونة لمعالجة أدنى تعارض لوجهات النظر.
- الاتجاه نحو أقسى الخيارات من باب الدلالة على التميز، أو التهويل الذي يمكِّن من التسلل من الدائرة الرحبة التي تستوعب الجماعة، حيث يتسنى خلق دوائر ضيقة لا تتسع إلا لشخصه فقط.
- التضخيم الذي يفضي إلى الهيجان بدلا من التدقيق الذي يؤدي إلى التروي ووزن الأمور، والخروج بأقرب النتائج إلى المنطق البسيط.

لكن البؤرة الرئيسية التي نرى التوقف عندها لتلخيص هذه المؤشرات التي تدل على وجود حالة الغلو هي «النقمة»، فكثير من هؤلاء الذين ابتلوا بداء الجنوح الفكري يشعرون بوجود شحنة كبيرة من الحقد في دواخلهم تجاه من يوجهون إليهم سهام غلوهم، باعتبار هؤلاء مصدر ما يعانون منه من الضيق؛ هذا ما يفسر استهداف المتطرف فئات بعينها: الأئمة، رموز السلطة السياسية، المخالف في الدين، الشخصيات المجتمعية، المؤسسات الناجحة.

ومع ميلنا إلى قبول الفكرة القائلة: إن هناك أجهزة متخصصة في صناعة ظاهرة الغلو وأخرى تقوم بمهمة الدفع بها إلى السطح، والاستمرار في النفخ فيها لأهداف تخفى أو تتكشف، فإن ثمة دوافع أخرى تمثل أرضية لقابلية التطويع.

في الواقع، وجدت، بعد طول تأمل، أن كثيرا من حالات الميلان عن جادة الصواب في الحكم على الآخر وفي ضبط علائق التعامل مع الغير، والتعاطي مع ما يطرأ للجماعة التي تحتوينا، إنما مرده وجود شحنات هائلة من الغضب المكتوم، الذي سيجد طريقه إلى العلن ما لم يعالج وينفس بطريقة مثالية، تشعر الغاضب بأنه قد أخذ حقه الذي كان يرى بأنه مهضوم. (١)

هذه الملاحظة تقودنا إلى نتيجة بسيطة، لكنها مفيدة، ألا وهي أن الغلو لا يواجه بالغلو كما فعلت الأنظمة السياسية الغربية والإسلامية التي لجأت إلى الحديد والنار، وقد تُؤجج نيرانه لدرجة الاستفحال، كما نشاهد اليوم في كثير من الحالات.

وبواقع التجربة توصلت إلى قناعة بسيطة في مجال التعاطي مع هذا الصنف من الناس، تتمثل في أن كثيرا من الحالات التي تصنف بأنها من الغلو لا يجدي التعاطي معها من منطلق محاولة تعديل المزاج أو تفعيل المحرك الإيماني، وإنما تتطلب الاستعانة بخبرات الطبيب المختص ضمن خطة علاجية متكاملة.

من أروع ما نلخص به هذه الملاحظات قولة مطرف بن عبدالله: «الحسنة بين السيئتين»!

هوامش:

(١) لا يعني هذا أننا نحصرها في هذا ونستبعد دوافع أخرى مثل: العروق الدساسة، ضآلة التجربة، أثر التربية التي تقوم على الانغلاق أو تتسم بالتعالي، أو ادعاء الطهر الزائف.

التحصين الفكري ضد التشدد

د. إبراهيم نويري
كاتب وباحث أكاديمي

التشدد -كما ورد في بعض التعريفات- هو حالة انغلاق أو جمود ثاوية في النسيج النفسي والفكري، توحي لصاحبها أو لمن يتمثلها في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته، وقبل ذلك في ذهنه وفكره، بأنه ليس فقط الأقرب إلى الصواب. بل هو -دون سواه- أنموذج الصواب والهدى والحق وسواء السبيل. وبالتالي فإن الحقيقة معه وحده، وعلى الآخرين إذا أرادوا السلامة وعدم الزيغ، أو الوقوع في مهاوي الضلال أن يتبعوه، وأن يقتفوا أثره، وينسجوا على منواله، فيما صغر أو كبر من المسائل والقضايا والإشكالات التي تعرض لهم في حياتهم.

إن هذه الحالة الغريبة علامة واضحة على وجود مرض داخلي خطير، لا علاقة له بأي نوع من أنواع القناعة العقلية المؤسسة على سلامة الضمير وتفحص الأدلة، والترجيح بين الآراء، وفق معادلة منطقية مقنعة.

وجوهر هذا المرض النفسي غرور سيطر على كل جوانح النفس. فأحدث ظلاما حالكا في جنباتها، لأن سلامة الضمير ونقاوة التفكير كلاهما يدفعان إلى احترام وجهات نظر الآخرين، حتى في حالة الاقتناع أو التيقن بوجهة نظر مختلفة.. فما بالك إذا كانت المسألة المعروضة أو المثارة من قبيل المسائل التي لا يتضح فيها وجه الحق بسهولة!

لقد كان الإمام الشافعي (رحمه الله) وهو مؤسس علم أصول الفقه والقواعد الكلية لفن الاستنباط والترجيح يقول: «ما جادلت أحدا إلا وتمنيت أن يكون الحق إلى جانبه». فسلامة الضمير لابد أن تتجه بصاحبها إلى البحث عن الحقيقة والانتصار لها، بغض النظر عن مصدرها. أما من يعشش الغرور في جنبات نفسه ولواعج صدره، فهو لا يلهث إلا وراء الانتصار للذات المريضة. وهذه إحدى أخطر علل بعض المثقفين، وبعض المتدينين في زماننا هذا!!

وأسوق هذه القصة لأنها تلخص جانبا كبيرا من الفكرة التي أردت شرحها وتحذير جمهور القراء منها ومن تبعاتها.

يقول فضيلة الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي، رحمه الله: كنت يوما أحاور أحد الشباب المتشددين المغالين بغير علم. فسألته: هل تفجير ملهى ليلي في إحدى الدول حلال أم حرام؟ فقال لي: طبعا حلال، وقتل رواده جائز.

فقلت له: لو أنك قتلتهم وهم يعصون الله، فما هو مصيرهم؟ قال: النار بطبيعة الحال!!

فقلت له: إذن أنتم والشيطان تشتركون في الهدف نفسه، الذي هو إدخال الناس إلى النار!! ثم ذكرت له حديث النبي ﷺ، عندما مرت عليه جنازة يهودي، فأخذ يبكي، فقالوا ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: نفس أفلتت مني إلى النار.

ثم قلت للشاب: لاحظ الفرق بينكم وبين رسول الله ﷺ الذي يسعى إلى هداية الناس وإنقاذهم من النار. أنتم في واد والحبيب المصطفى في واد آخر!!..

أعتقد أن معالجة مثل هذه العلل المستحكمة، لا يكون إلا بالحوار والتوسع في العلم، والاستقامة على المنهج النبوي، والرجوع الدائم لأهل النظر الحصيف والعلم الصحيح والفكر الراشد، والتخلق بأخلاق التواضع وحسن الإنصات لآراء الآخرين.

أما الاعتداد بالرأي والانتصار للذات والهوى وحظ النفس الأمارة بالسوء، فطريقه ومآله واضح بيّن، إنه الخسران والبوار لصاحبه، وإيذاء خلق الله وإحراج الدين وتدمير الأوطان والمكاسب العامة.

لابد أن تتضافر الجهود وتتآزر مواقف أهل العلم والاستقامة في سبيل التحصين الفكري والنفسي ضد هذه الآفة الخطيرة، خدمة لأوطاننا ودِيننا وقيمنا. والله ولي التوفيق.

غلو العلمانية

محمد شعبان أيوب
باحث مصري في التاريخ والتراث

كلما ذكر الغلو والتعصب، جاءت إلى الأذهان صورة إسلامي طويل اللحية، متجهم الوجه، ضيق الأفق، ناقم على مجتمعه وناسه! والحق أن هذه الصورة الذهنية الشائهة لعبت وسائل الإعلام والنشر العلمانية أكبر الأدوار في ترسيخها في الثلاثين عاما الأخيرة، فلم يخل بلد من البلدان الإسلامية والعربية من سطوة هذه الصورة الشائهة، وهي إن كان لها وجود على الأرض وفي الواقع، غير أنه لا يمكن أن يركز عليه بهذه الصورة التي لم تقل غلوا وتعصبا هي الأخرى، فيؤخذ الصالح بالطالح حتى كاد أن يصبح الإسلام ذاته مرادفا للإرهاب والعنف والغلو والتعصب في بلده وبين أهله وناسه!

علم الاجتماع والغلو

يهتم علم الاجتماع النفسي بدراسة الاتجاهات والعلاقات داخل المجتمع، ويندرج موضوع «الاتجاهات التعصبية» في لب حقله المعرفي والدراسي؛ فالاتجاهات التعصبية، السلبية على وجه التحديد كأحد شكلي الاتجاهات بين الجماعات (التعصب الإيجابي والتعصب السلبي)، لها قدر كبير من الأهمية لما يترتب عليها من آثار سلبية على جوانب عديدة، تشمل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في سائر المجتمعات الإنسانية، وتنعكس هذه الآثار السلبية على المجتمعات في عمومها، مثلما تعود على الأفراد تماما. وهناك العديد من المجتمعات التي عانت، وما زالت تعاني، فالتعصب إذا وصل إلى درجة معينة من الحدة يصبح عاملا من عوامل تقويض وحدة المجتمع، وينم عن اضطراب في ميزان الصحة النفسية الاجتماعية، مما يفسد المجتمع ويهدد كيانه (١).

وأحد الأسباب الجوهرية التي تقود الفرد داخل المجتمع إلى التعصب الإيجابي أو السلبي إنما يعود إلى الأفكار والقيم التي يعتنقها الفرد، أو التي تسود في المجتمع فينشأ عليها، فقد أوضحت «بعض الدراسات أن التعصب العنصري لدى الأطفال لم يكن دالا على خبراتهم في موضوعات التعصب، بقدر ما كان دالا على ما يسود ثقافتهم من قيم معينة. بمعنى آخر، فإن اتجاه الطفل الأبيض نحو الطفل الأسود لم يكن انعكاسا لتعامله مع الأسود بقدر ما كان انعكاسا لتعامل الطفل الأبيض مع الاتجاهات السائدة عن هذا الطفل الأسود» (٢).

أسباب الغلو العلماني

إن العلمانية ما نشأت أصلا إلا من الصراع المسيحي في القرون الأوروبية الوسطى، والقيم والفلسفة التي كانت قد انتشرت وترسخت حول الدين المسيحي وسطوة رجال الكنيسة وتحكمهم في الحياة والأفكار والناس.

يقول الدكتور محمد عمارة: «لقد ظلت المسيحية منذ نشأتها وعبر

قرون طويلة من حياتها في المجتمعات الأوروبية دينا لا دولة، وشريعة محبة لا تقدم للمجتمع مرجعية قانونية ولا نظاما للحكم، ورسالة مكرسة لخلاص الروح، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وعبر القرون حكمت العلاقة بين الكنيسة والدولة نظرية «السيفين»، أي السيف الروحي أو السلطة الدينية للكنيسة، والسيف الزمني أو السلطة المدنية للدولة؛ فلما حدث وتجاوزت الكنيسة حدود رسالة الروح ومملكة السماء؛ اغتصبت السلطة الزمنية أيضا، وأضفت على الدنيا قداسة الدين، فدخلت بالمجتمعات الأوروبية مرحلة الجمود والانحطاط وعصورها المظلمة. وفي مواجهة هذا الانحطاط الحضاري، كانت «الثورة العلمانية»، التي فجرتها فلسفة التنوير الأوروبي، والتي أقامت قطيعة معرفية مع فلسفة الحكم الكهنوتي، وأسست النزعة العلمانية الحديثة على التراث الأوروبي القديم، التي أحلت العقل والتجربة محل الدين»(٣).

ونظرا لهذه الملابسات التاريخية التي نشأت في ظلها العلمانية، فقد كان من أخطر مبادئها وأهدافها نزع القيمة المرجعية عن تنظيم الحياة البشرية والروحية. وقد تراوحت العلمانية بين عداء الدين بالكلية وحجره في زاوية ضيقة من زوايا الإنسان، وهي بهذا المنظور لا شك أنها تعادي الإسلام والإسلاميين بكل قوتها، ولم تلق بالا للفارق الجوهري بين الإسلام والمسيحية.

وقد استمر الصدام المباشر بين العلمانية والإسلام عبر أجيال مختلفة من المؤلفين والمفكرين- ممن نالوا أعلى الشهادات الجامعية من الجامعات الأوروبية- ولم يفتأ هذا الصراع أن يهدأ منذ مئة عام على الأقل حتى اليوم.

لكن من اللافت أن الخطاب العلماني «المدني» المقدم إلى الجماهير في الأعوام الأخيرة، قد شهد تغيرا ملحوظا في الشكل دونما تغير في المضمون والغلو، فقد «اكتنفته أربعة ظروف رئيسية شكلت أضلاع الوعاء الجوهري لتناميه، ألا وهي: مناخ سبتمبر، والضخ الفرنكفوني، وحفاوة وسائل الإعلام، ورد الفعل تجاه البغي الإلكتروني. فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تعرض الاتجاه الإسلامي إلى حالة محاكمة عالمية شرسة، حدت من انسيابه ودويه، وتراجعت معها شعبيته بشكل ملموس. وفي ظل هذا الفراغ الجزئي الذي خلفه انكماش الحالة الإسلامية برزت أبحاث المدرسة الفرنكفونية/المغاربية كإجابة جديدة نجحت في استغلال الظرف الأمني وحققت اكتساحا استثنائيا في فترة قصيرة» (٤). فقد ابتعدت هذه المدرسة العلمانية بخطابها التقليدي عن الصدام المباشر للشريعة إلى إعادة تفسير التراث الإسلامي بأدواتها هي ووفق هواها ومنطلقاتها، فلبست على كثير من المثقفين مضامينها وأفكارها.

نموذج من الغلو العلماني

يعد المستشار محمد سعيد العشماوي من أبرز منظري العلمانية في نصف القرن الأخير في مصر والعالم العربي، وقد شهدت كتاباته هجوما شرسا وحادا وعنيفا على الإسلام وتراثه وفكره وصحوته، فقد وقف في أواخر السبعينيات أمام مشروع تقنين «الشريعة» الإسلامية والعمل به، واعتبر أن القانون المصري الوضعي، القائم في كثير من أسسه ومبادئه على القوانين والمبادئ الفرنسية، لا يختلف كثيرا عن الشريعة الإسلامية. بل يرى العشماوي أن عصر الرسالة والخلافة الراشدة قد دخلت فيه يد الاختلاف والتغاير والتباين والتناقض، وهو قول يصيب ذات الإسلام في عقيدته وشريعته، ويرجع سبب هذا التبدل والتغير إلى «اتجاه عسكري» للعهد النبوي، فيقول: «ويرى بعض المؤرخين أن الإسلام تشكل في صيغة حربية عندما بدأت أول سرية للمسلمين على قوافل تجارة قريش فيما بين الشام ومكة. ويرى آخرون أن الاتجاه العسكري في الإسلام بدأ منذ غزوة خيبر». وهو لا يقنع بطعن الإسلام -بادعاء تحوله إلى دين عسكري وصيغة حربية- بفعل الرسول ﷺ وصحابته-رضوان الله عليهم-، وإنما يدافع عن يهود خيبر، ويعيب على الرسول ﷺ والمسلمين قتالهم، فيقول: «ذلك أن أهل خيبر لم يكونوا من المشركين، أهل مكة الذين عادوا النبي والمؤمنين وأخرجوهم من ديارهم، كما أن أهل خيبر لم يكونوا قد أساءوا إلى النبي أو إلى الإسلام بشيء». وحتى يوهم القارئ أن هذا الاتهام ليس من عنده وأنه رأي «لبعض المؤرخين»، وأنه على العكس منهم، لا يتفق معهم فيه، أضاف إضافات توجه المطاعن إلى الوحي الإلهي ذاته، وليس فقط إلى الرسول ﷺ والمؤمنين (٥). وقد أحسن الدكتور محمد عمارة إذ فكك فكر العشماوي المتهافت في كتابه المهم «سقوط الغلو العلماني» ووقف معه بتؤدة وهدوء.

ستظل العلمانية على غلوها وتعصبها، شأنها شأن كل الفرق الفكرية التي ناهضت الإسلام وتراثه في القديم والحديث، لكن إذا كان الإسلام قد ثبت أمام الأفكار المناهضة له قديما وعبر تاريخه الطويل، فهو سيثبت -لا ريب- أمام فكر العلمانية المتهافت في واقعنا المعاصر، ليس لقوة بنيان الإسلام ونظمه وفكره فقط، بل لأن في العلمانية آفة فنائها!

هوامش:

١- معتز سيد عبدالله، الاتجاهات التعصبية ص١٣، منشورات سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مايو ١٩٨٩م، إصدار رقم ١٣٧.

٢- محيي الدين حسين، القيم الخاصة لدى المبدعين، ص٥٤ و٥٥ نقلا عن الاتجاهات التعصبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

٣- د.محمد عمارة، العلمانية بين الغرب والإسلام، ص٦ و٧، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، المنصورة، ١٩٩٦م.

٤- إبراهيم السكران، مآلات الخطاب المدني ص١٢ و١٣.

٥- د.محمد عمارة، سقوط الغلو العلماني ص١٧ و١٨، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

العلوم الإنسانية.. وخرائط التمدن

د. هبة رءوف عزت
أستاذة جامعية - مصر

هذه إطلالة من العلوم الاجتماعية لمحاولة استجلاء سبيل العقل وتحريه للرشد وتأسيسه على الوعي بالفطرة، وذلك في دورانه مع مقومات التصور الإسلامي في مسائل «فقه التمدن» و«مقاصد العمران».

فما يزال جدل المجتمع المدني يتجدد دون مزيد بحث في معنى التمدن ذاته، وما يزال العقل الإنساني يسعى لفهم معناه مقترنا بالطبيعة الإنسانية تارة، وبأسس الاجتماع تارة، سعيا لأقوم المسالك لتحقيق رسالة البشرية وبناء الحضارة.. تجتهد في ذلك العقول وترشد لذلك النبوات والكتب، وتدل عليه السنن والآثار.

ويمكن تصنيف اقترابات كتب التراث الإسلامي في فهم مقومات «الاجتماع البشري» لخمس مدارس: أولها «المدرسة الفلسفية» وهدفها تحقيق السعادة للإنسان، وفي ذلك تكلم كثير من الفلاسفة، ومنهم على سبيل المثال: الفارابي، عندما تحدث

عن «العلم المدني»، وجمع فيه بين الاجتماع والأخلاق والسياسة، وقال: إن هدف هذا العلم أو غايته أو مقصده هو تحقيق سعادة الناس في الدارين، وبالتالي بدأ يقسم المدن والحواضر المختلفة إلى أنواع، منها: ما هو مدن فاضلة، ومنها ماهو غير ذلك، وصنفها وتحدث عن أهلها، وصاغ نظرية في البحث عن السعادة والفضيلة، وكيف تنجح بعض المدن، وبعض الصيغ العمرانية الاجتماعية والإنسانية في تحقيق الفضيلة، وكيف أن بعضها لا يتمكن من ذلك، أو يبدأ هذه البداية ثم يبدأ في السقوط والبعد عن هذه القيم والمعاني.

المدرسة الثانية: التي ننظر إليها ونتأمل فيها هي التي نظرت إلى علوم الاجتماع، أو نظرت إلى العمران باعتبار أن غايته تحقيق أحكام ومقاصد الشرع، من أجل بناء مجتمع أخلاقي، وأن قِوام هذا المجتمع هو تزكية الأنفس، فأبوحامد الغزالي على سبيل المثال يرى أن: «الدين أصل والسلطان حارس، فما لا أصل له فهو مهدوم، وما لا حارس له فهو ضائع»، وربط بين الإمامة والولاية من جهة، والأخلاق من جهة أخرى، فالأخلاق أساس العمران والتمدن.

المدرسة الثالثة: هي التي نظرت إلى العمران في إيقاعه المؤسسي والإداري، و«كيف» ندير هذا العمران، أي سياسات القوة والسلطة، فتحدث «الماوردي» عن الأحكام السلطانية، وبسط وفصل في كيفية إدارة الجوانب المختلفة في الحكم، وبنية الدولة الإسلامية، أي نظر إلى العمران من جهة طرق إدارته.

المدرسة الرابعة: هي المدرسة «الفقهية»، والتي قد يظن البعض أنها انشغلت بتفاصيل تنزيل الأحكام، والحقيقة أنها انشغلت أساسا بمسألة العلاقة بين العقل والنقل، وإصلاح الدنيا بالعقل والوحي، ولدينا الرسالة الصغيرة التي كتبها ابن رشد «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، ثم كتب أيضا ابن تيمية نصا طويلا نفيسا في «درء تعارض العقل والنقل» وكيف يقترب العقل من النص، وما هي القواعد المختلفة للفهم، واختلاف المفاهيم والتحرز فيها لأنها مساحة الدلالة، وكيف يمكن المقارنة والمقايسة بين المفاهيم في علوم الإنسان وعلوم الشرع.

ثم تطورت بالتوازي المدرسة الخامسة وهي المدرسة «الاجتماعية/التاريخية» التي كان أحد أبرز رموزها ابن خلدون، عندما تحدث عن التمدن والتأنسن والتوحش، والبداوة والحضارة، والعصبية، وتحدث عن العمران في مساراته ومدارجه وصيغه وتحولاته، والفرق بين الخلافة والملك، وفصل في الجوانب المختلفة لشروط الاجتماع وأبعاده المعمارية، والاقتصادية، والتنظيمية، والثقافية في صيرورتها.

من التوحيد والتكامل إلى النسبية والمادية

تجاوزا لهذا التراث -ليس الإسلامي فحسب، بل كافة الأنساق الدينية والفلسفية المقارنة في الحضارات القديمة- كان العقل التنويري، ثم الحداثي في أوروبا، ثم في مرحلة ضعف المجتمعات الإسلامية وبدايات الاستلاب والسيطرة السياسية والفكرية والجغرافية، يسعى لتقديم رؤية تُعلي نظر العقل في الشأن والحالة الإنسانية، وتعمل على أن تحرره من الغيب والوحي والتاريخ؛ بإحياء الفلسفات التي تأسست على الوثنية والأساطير، ليهيمن هذا النسق في النهاية ويغلب كل محاولات التوفيق والتلفيق مع النسق الديني، فيتم تهميش الغيب ثم تسفيهه في النهاية، وانصرف منهج النظر إلى العقل والواقع لخدمة مصالح الاقتصاد والجغرافيا وتطويع المفاهيم لهذه الغاية.

إن هذا التحول قد شهد البدايات الأولى للحديث عن المجتمع المدني كمجال وقطاع تحت مظلة الدولة القومية القُطرية الناشئة... من هنا فإن صعود الحديث عن المجتمع المدني عبر القرون الثلاثة الماضية لم يقابله حفاوة مماثلة بمفهوم التمدن ذاته وقواعده ومقوماته في ظل تلك العلاقة الحداثية بين المجتمع والدولة، بل كان الاهتمام جُله منصبا على مفهوم المواطنة، حيث للدولة اليد العليا ولقوتها اليد الطولى.

وقد بدأت العلوم الإنسانية كما نعرفها اليوم في تقسيماتها الكبرى تتطور في ظل هذه الخلفية، تلك العلوم التي نشأت في إطار هذا الواقع الذي يحتفي بالعقل وكشوف العلوم الطبيعية، ففصلت نفسها عن المنظومة الغيبية والأخلاقية والروحية، وسادت النظرة للحال دون تحسب للمآل في العلوم الطبيعية (بما أدى لاستنزاف الموارد وخلل التوازن البيئي)، ولم تملك العلوم الإنسانية المكانة ولا الرؤية التي تؤهلها لتحجيم النظرة المادية للحياة وتدارك آثارها.

سؤال التمدن.. ومنطق الاجتماع وغاياته

ماهي غايات الاجتماع الإنساني؟

سنجد أن هذه الغايات إذا أردنا أن نختصرها تتبلور فيما رآه الفقيه من مقاصد الشريعة، وسنجد أن غاية الاجتماع الإنساني حتى في المجتمعات التي لم تتبن النظر الشرعي، ولم تتبن رؤية الوحي للإنسان ولدوره في هذا الكون، تسعى لتلمس نفس المقاصد التي طورها الفقهاء:

فـ«حفظ الدين» هو حفظ المنظومة أو الميزان الذي يقوم عليها أي مجتمع، فأي مجتمع يريد أن يحفظ لنفسه منظومته القيمية والأخلاقية حتى وإن كانت منظومة من صنع الإنسان أو من صنع عقل الإنسان منفكة عن الوحي والرسالات والنبوات، فالدين هنا بالمعنى الذي فسره القرآن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي التصور والمسلك. فهناك لكل جماعة دين، لا يوجد جماعة لا يوجد لديها منظومة أفكار وتصور للكون والحياة، حتى وإن كان

إلحاديا ووثنيا أو غيره، والأصل أن ننظر في هذه المنظومات لنفهم هذه الأنساق ورؤيتها للاجتماع البشري.

و«حفظ النفس» كان مسألة أساسية في أي اجتماع بشري، حتى في نظرية الخيار الرشيد التي تأسس عليها فهم الاجتماع بقياسه على حسابات الاقتصاد، وقياس المواطن في دائرة المجتمع والدولة على المستهلك في دائرة الاقتصاد والمنفعة المادية، وكانت نظرية العقد الاجتماعي قد انبنت على فكرة حفظ النفس، وعليها بنت نشأة الدولة وأسست الاجتماع، فالعقد الاجتماعي الذي يؤسس للتمدن وللعمران قائم على الاضطرار وقائم على هيمنة السلطة، لأنه بدون ذلك وبدون هذا الالتزام من قبلهم يتفكك المجتمع مرة أخرى ويتشظى إلى ذرات. لكن النفس هنا هي محض الحياة دون منح النفس تعريف يربطها بالأزل والأبد.

و«حفظ العقل» كان من المقاصد.. فالفنون والآداب، والتفلسف والتفكير بدا احتفاء بالعقل، لكنه كان عقلا فرديا يدور في مدارات الطبيعي، ولا يتجاوز سقف المادي.

«حفظ المال» كان أيضا حاضرا في الغايات الأساسية لنمو المدن التجارية ثم الصناعية، بل تعداه لتحصيل ثروات الأمم الأخرى بالاستيطان والاحتلال العسكري، وهو مثال على انفكاك حفظ المال من أخلاقية المصدر وخيرية الغاية.

ولدينا نماذج مختلفة للمدن والحواضر عبر التاريخ الإنساني كان لكل منها منطق وتأسس على كل منها صيغة للاجتماع، بعضها ظالم لنفسه.. ولغيره، وبعضها سابق بالخيرات.

ويظل السؤال: هل يمكننا اصطفاء مفهوم للتمدن يغدو الأكثر إنسانية، ويصير مقياسا نموذجيا بحيث تقاس عليه مستويات التمدن، مثالية ثم نقصانا ثم هبوطا للتوحش والبهيمية والطينية؟

خرائط المعنى.. والذات.. والوجود

أحسب أن هناك عدة عناصر يمكن أن تساعدنا في بناء المفهوم ورسم خرائط المعنى، وأن هذا بقدر ما يتطلب مساهمة العلوم الإنسانية بقدر ما سيؤدي هو ذاته -كمراجعة وإعادة بناء العديد من المفاهيم- إلى تطوير العلوم الإنسانية خلال هذا المسعى.

أول هذه العناصر هو «عنصر الميزان». فما هو الميزان الذي به نقيس؟ وهل نجح العقل وحده خلال القرون الثلاثة الماضية في ضبط الميزان وتحقيق العدل والسعادة كما تطلعت الفلسفة في تاريخها الطويل، بعيدا عن ميزان الغيب والنبوة والوحي؟

هناك محاولات حثيثة منذ فترة طويلة للحديث عن مراجعة العلوم الاجتماعية و«أسلمة المعرفة»، سواء بالبينية وعبور الفجوة بين العلوم المختلفة لتتكامل، أو بوَصل ما انقطع بين النظر العقلي والنظر الشرعي. وتتوازى معها محاولات في العالم المسيحي ودوائر الحضارات القديمة في الشرق، يقودها رجال دين وتيارات محافظة وروحية تسير على سبيل مشابه.

والغاية هي النظر للإنسان من وجهة متكاملة ترد له تكامله واتساقه، لكن البينية بين العلوم من جهة لا تكفي دون تغيير الخريطة المعرفية ذاتها، ووصل ما انقطع يحتاج بناء عقلية تجمع بين معارف شتى، ولديها القدرة على الاجتهاد والتوليد، وهذه نادرة في المؤسسات التعليمية التي انبنت على التقسيم والتفتيت والاحتفاء بالتخصص، والعزوف عن الموسوعية وهجرها، فضلا عن مسألة ثالثة هي الربط بين ذلك.. حصاد تلك التحولات والسياق السائد في الدوائر العلمية الدولية كي تتحقق غاية «الرحمة للعالمين»، ولا يكون ما ينتجه العقل المسلم معزولا ومهمشا أو عاكفا على ذاته مقصرا في رسالته.

ويبقى سؤال علاقة العلم بالأخلاق، ثم علاقة العلم بالواقع والوظيفة الكفاحية للعلم للتهيئة للعمران والتمدن في الواقع وليس في التصور- إنشاء أو استدراكا أو نماء وترقية- هو السؤال الفارق.

العنصر الثاني: هو عنصر أو تصور الإنسان.

تصورات الإنسان في كثيرها تصورات مركبة، الإنسان في تصوره الفلسفي/ الإنسان وتجليات المكان، وعلاقات الأبدان في الحيز، فالتمدن تصوراته لا تنفك عن المساحة والحيز بين مدينة.. والمعمورة وكوكبة العولمة. العلوم الاجتماعية هنا رافد مهم لفهم العقل الشرعي للمستجدات. و«المشكاة المقاصدية» أسميها في غاية الأهمية في هذا السياق.

البعد الثالث: إذا أردنا أن نعيد خريطة العلوم الاجتماعية ونمزج ليس خلطا للفقه بالاجتماع، وإنما النظر والفهم بمعنى الحكمة بمعنى النظر هو: «بُعد المكان» ذاته، التمدن في حد ذاته أصبح مختلفا عن تصور ابن خلدون، مثلا عندما نتحدث عن صيغ التمدن الآن نتحدث عن مدن لا يمكن وصفها بأنها مدن فاضلة، مدن اختلط فيها الفاضل بغير ذلك، مدن مساحتها هي مساحات أسواق، أو بنيت بالأساس في المرحلة الرأسمالية في أوروبا، والتي نقلنا عنها تخطيط المدن بشكل يعتمد على تسهيل حركة التجارة، بأكثر مما يعتمد على تواصل البشر في داخل المدينة، ومن المهم هنا أن نفهم نظر فقهاء الإسلام إلى العمران من الناحية المساحية، وتحولاتها المعقدة في مرحلة العولمة، واختصار المسافات وتعدد الجنسيات، وتقاطع الأسواق، ناهيك عن «اللامكان» في العالم الافتراضي ومنتجات تكنولوجيا الاتصالات.

لذلك من المهم فهم كيف استوعب الفقيه مسألة المساحة والمكان والأرض والملكية والحقوق المشتركة بين الناس، وموازنة المصالح العامة والخاصة، لكن الآن لدينا علم كامل هو علم

اجتماع المدن الذي يبحث في الأمكنة التي يتحرك فيها الناس، والتي بدأت في إثارة مشكلات حقيقية في إدارتها وفي خلق المنظومة الأخلاقية والقيمية التي كان يمكن أن تتنزل عليها كثير من الأحكام الشرعية، فالمدينة لم تعد تقترن بالتمدن وفضائله، بل بالفردية وتفكك الأبنية المجتمعية في أحيان، وفي أشياء كثيرة، فهذه مسائل أيضا تحتاج أن ينظر فيها الفقيه بعقلية الشرع والمقاصد، وأن ينظر إليها باحث العلوم الاجتماعية ويشترك في النظر في كيف ننظم الأمكنة والملكية والمساحات والخصوصيات، وإن لم يعد هذا ممكنا نتيجة للعشوائية، وغياب التخطيط العمراني، والوعي المعماري على المساحات القائمة الآن.. ماذا نفعل وكيف نتعامل مع هذه المستجدات؟

العنصر الرابع: هو «عنصر الزمان» سواء كانت امتداداته كيف ننقل الفهم والحكمة التي نظر بها الفقيه أو عالم الاجتماع أو الفيلسوف المسلم إلى واقعنا باختلاف الأزمنة وباختلاف طبيعة الوقت والتنظيم، وعلى خريطة اليوم، وكذا يعني مفهوم الزمن والوقت وما يحويه من علاقات إنتاج وملكية ورأسمالية وعلاقات إنسانية وأنماط استهلاكية، كيف ننظر إلى المآل وكيف يؤخذ في الاعتبار وضع السياسات العامة وفي التعامل مع حقوق الناس وغيرها؟ هذه مسألة غائبة رغم أن تقاطع الأزمنة في الوعي والمرجعية التاريخية في اشتباكها مع الواقع وصدامها معه، وما يحويه التاريخ من أنماط تفاعلات يعاد إنتاجها في أزمنة أخرى من أبرز المشكلات التي نواجهها في المجتمع وفي السياسة اليوم..

العنصر الخامس: هو بُعد «العمران»، كما ذكرت في مسألة المكان والمساحة، ولكن بشكل أكثر تركيبا، بمعنى بنيان العلاقات والمؤسسات التي يتم من خلالها إدارة هذه العلاقات بين الطبقات المختلفة، إدارة المحليات، وتقسيم الموارد، وملكية الأرض، والثروة، وإدارة القوة في مسألة التعامل الأخلاقي بين الدولة والقوى الاجتماعية، ودرجة وعي النخب بالسنن وانعكاس ذلك على توطيد أو تآكل رأس المال الاجتماعي والأخلاقي والفضائل المدنية.

العنصر السادس والأخير: هو «بُعد الأكوان»، نحن أهملنا كثيرا الربط ما بين مقاصد الشريعة ومقاصد العمران والنظر في الأكوان، ونحن مسؤولون عن هذه الأكوان المحيطة بنا، والأمم أمثالنا التي ذكرها القرآن.. حيث يلاحظ أننا لا نعبأ بها أبدا ولا نهتم بها إطلاقا، رغم أنه تاريخيا انتشر الوقف على الحيوانات والطيور الموجودة بالمدينة الإسلامية، واعتبر أحد مؤشرات وجود الأمن في تلك المدينة، ومستوى التمدن الإسلامي.. فضلا عن العوالم الإنسانية التي لا يصلها نموذجنا التوحيدي، ولا تعرف شيئا عنا (أميركا اللاتينية على سبيل المثال).

التمدن من حيث هو منظومة كرامة إنسانية

في سورة الشورى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(الشورى:٣٨) فوجدت أن الشورى قبل الإنفاق وبعد الصلاة، يعني ترتيبها بين الصلاة والنفقة، أي الصلاة وإنفاق المال، تم تسكينها في المرتبة الثانية في الترتيب بعد الاستجابة لله تعالى، وبعد الصلاة، وقبل إنفاق المال أو الاستخلاف في القول، فوجدتها مسكنة بشكل يمزجها مزجا بما قبلها وما بعدها، هذا أمر ربما يدفع إلى التفكير في هل الوسائل والوسائط المختلفة يجب أن تأخذ في الاعتبار التفاصيل اليومية؟ أن تسكن في التفاصيل اليومية غاية من غايات التمدن الإسلامي، وهي الكرامة والشورى وغيرها، بدون أن نضيف جديدا إلى المقاصد، وإنما نعتبرها تفصيلا للمقاصد الشرعية، وكان أستاذنا الدكتور سيف الدين عبدالفتاح قد نظر في المقاصد فقال مرة: إن هذه المقاصد الشرعية بكل ضوابطها وتأسسها على الأحكام والنصوص هي في الحقيقة لها ثلاثة مستويات، وعلى الفقيه أن يجتهد في كيفية تحقيق هذه المستويات عبر العلوم الاجتماعية التي تعينه على البحث والنظر وإدراك حالة الناس، وهي أن يكون حفظ المقاصد على مستويات: حفظ البقاء وحفظ النماء وحفظ الارتقاء، كيف توضع السياسات العامة لتحفظ النفس، لكنها تنمي هذه النفس لتكون نفسا مطمئنة من خلال كل السياقات التي تحدثنا عنها في المكان والزمان، وغيرها لازم فقط أن تحفظ النفس بناء على أن تحفظ الحياة محض الحياة، وإنما ما هي النفس الإنسانية ومستوياتها ومدارجها التي هي العلم الاجتماعي أوعلم التمدن أو العلم المدني كما أسماه الفارابي الذي يجمع بين الأخلاق والسياسة والاجتماع، أي أن ينمي هذه النفس ثم يرتقي بهذه النفس إلى مستوياتها الأعلى.

حفظ الحياة وحفظ المال ليس فقط حفظ البقاء، وإنما سعي في مدارات الخيرية، ومن دوائره التواصل مع الأمم المختلفة، لأنه من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا...، والملكية استخلاف لا إتلاف واستنزاف للطبيعة- وهكذا.

يبقى في النهاية الإشارة إلى أن التمدن الاسلامي بمعنى الفضائل المدنية بدأ قبل تأسيس «المدينة»، فالفضائل تدور مع الأفراد لا مع السلطة التي وظيفتها الرعاية والأمن، واليوم لدينا مدن حديثة بلا تمدن ولا فضائل، وربما يكون السؤال الذي يقفز لذهن الباحث هو: هل لو رأى ابن خلدون انفكاك المدينة عن التمدن كيف كان سيصوغ نظريته في العمران، وموقفه من مراحل الحضارة صعودا.. وهبوطا؟

ويبقى الملف مفتوحا..

والله أعلم

تطبع مؤلفاته وتنشر تراثه وتعرف به على أوسع نطاق

مؤسسة علال الفاسي
منارة المغرب الثقافية

كتب : رئيس التحرير
تصوير : هدايت الله نثار

مؤسسة علال الفاسي في المغرب منارة ثقافية تحمل اسم الأستاذ العلامة محمد علال الفاسي (١٩١٠-١٩٧٤م)، أسست بناء على الوثيقة العدلية التي أمر بها ملك المغرب الراحل الحسن الثاني، بتاريخ ١٧ أبريل ١٩٧٩م، والتي قرر بموجبها تحويل منزل سكنى علال الفاسي إلى مؤسسة ثقافية، تخليدا لاسمه، وتقديرا لعلمه وتفانيه في خدمة وطنه.

«الوعي الإسلامي» زارت المؤسسة في العاصمة الرباط مؤخرًا، بصحبة مدير معهد البحوث العربية د.فيصل الحفيان، والتقت بحفيد علال الفاسي الباحث هاني الفاسي، ومدير المؤسسة مختار باقه.

المؤسسة تساهم في جمع الإنتاج الأدبي والقانوني والسياسي والفكري للمرحوم علال الفاسي، من أجل نشره وتعميم الفائدة منه، ووضع المستندات والوثائق التي تحتوي عليها خزانة المرحوم والمكتبات الملحقة بها، رهن إشارة الباحثين والمثقفين والمهتمين.

وتنظم العديد من المحاضرات والندوات الفكرية، والموائد المستديرة حول موضوعات مختلفة، ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية، تشغل الرأي العام، المحلي والعالمي، وذلك إسهاما

منها في الإشعاع الثقافي، وإبرازا لأهم الأفكار والقضايا الكبرى التي كانت تستأثر باهتمام الزعيم الراحل، وتأخذ حيزا كبيرا من كتاباته وكفاحه اليومي.

وتعمل المؤسسة، إلى جانب ذلك، على طبع مؤلفات علال الفاسي، ونشر تراثه، والتعريف به على أوسع نطاق، وكذلك طبع المحاضرات والندوات التي تقوم بها، بقصد تعميم الفائدة المرجوة منها.

وخصصت جائزة علال الفاسي للباحثين والطلبة منذ العام ١٩٩٦م، وهي تعقد كل سنتين، وتمنح لأجود البحوث في موضوع فكري تختاره لجنة علمية تشرف على هذه الجائزة.

خزانة المؤسسة

تشتمل المؤسسة على خزانة كبرى، هي الخزانة الخاصة بالمرحوم علال الفاسي، وقد أضيفت إليها مكتبات أخرى أهداها أصحابها إلى المؤسسة.

فخزانة الفاسي تعتبر من أهم خزائن الكتب في المغرب، إذ تحتوي -فضلا عن مؤلفاته الشخصية وإنتاجه العلمي والأدبي المتنوع- على مجموعة كبرى من كتب التراث الإسلامي والعربي، والمغربي على الخصوص. وكان بعض محتويات هذه الخزانة العلمية قد آل إليه من خزانة والده العلامة المرحوم عبدالواحد الفاسي، أحد علماء القرويين المشهورين.

رئيس التحرير يهدي مدير المؤسسة أحد أعداد المجلة

ومحتويات هذه المكتبة تنقسم إلى:

مؤلفات علال الفاسي، وبحوثه، ومقالاته، ورسائله وإنتاجه، الذي طُبِع جزء كبير منه في كتب، ولا يزال بعضه مخطوطا في دفاتره وكناشاته وأوراقه الخاصة، وبعض آخر مبثوثا في ثنايا الصحف والمجلات المغربية وغيرها.

قسم المخطوطات: ويحتوي على أكثر من ٨٠٠ مجلد، منها ٢٤٢ مجلدا يحتوي كل منها على أكثر من مؤلف. وبذلك يصل عدد المؤلفات المخطوطة في هذه المكتبة إلى أكثر من ٢٤٠٠ عنوان. ويوجد لهذه المخطوطات فهرس مطبوع في أربعة مجلدات، أعده المرحوم عبدالرحمن بن العربي الحريشي، المدير السابق للمؤسسة.

المطبوعات الحجرية: وهي ذات قيمة خاصة ترقى إلى مستوى المخطوطات، لأهميتها وندرتها، ويبلغ عددها في هذه الخزانة ١٧١ كتابا.

المطبوعات العادية: أمّا بقية المطبوعات فيفوق عددها سبعة آلاف كتاب، بما فيها ٥٢ من المصاحف الشريفة في مختلف طبعاتها.

المجلات والدوريات: ويبلغ عددها في المؤسسة أكثر من ٢٠٠ مجلة وصحيفة.

الكتب الأجنبية: وهي الكتب والمجلات المكتوبة بغير العربية من الفارسية والفرنسية والإنجليزية وغيرها. ويبلغ عددها زهاء ألفي مجلد.

الوثائق: تشتمل خزانة علال الفاسي على كم هائل من الوثائق المتعلقة بتاريخ الحركة الوطنية المغربية والمغاربية، بما فيها الرسائل المتبادلة بين صاحب الخزانة وعدد من الشخصيات المغربية والعربية والإسلامية والأجنبية.

مجموعة من الصور الفوتوغرافية: للزعيم المرحوم علال الفاسي، وشخصيات أخرى وطنية وعربية ودولية، لها قيمة خاصة في تاريخ المغرب الحديث.

أهم الأنشطة

قامت مؤسسة علال الفاسي بمجموعة من الأنشطة، في شكل ندوات ومحاضرات وأيام دراسية، أهمها:

- ندوة: «علال الفاسي ومعركة الديموقراطية»، بمشاركة نخبة من الأساتذة والباحثين.
- حفل توزيع الجوائز على الفائزين بجائزة علال الفاسي لسنة ١٩٩٧م حول موضوع: «المنظور الإسلامي

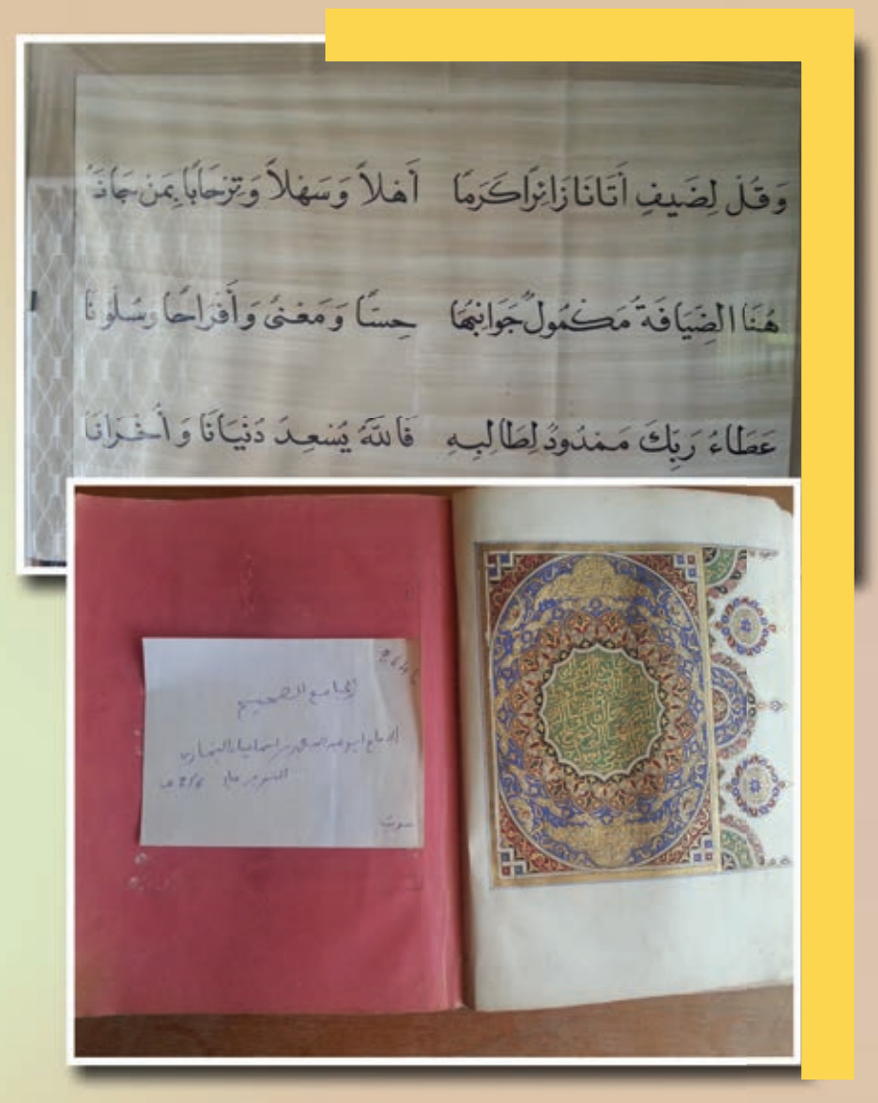

في الفكر الإصلاحي لبناء المجتمع الجديد عند علال الفاسي».

- محاضرة ألقاها الدكتور محمد الكتاني، مستشار صاحب الجلالة وعضو أكاديمية المملكة، في موضوع: «مشروع النهضة المغربية انطلاقا من النقد الذاتي».

- محاضرة ألقاها الدكتور عبدالهادي التازي في موضوع: «الصدى الدولي لعلال الفاسي».

- محاضرة ألقاها الدكتور عباس الجراري، مستشار صاحب الجلالة وعضو أكاديمية المملكة، في موضوع: «حقيقة العولمة والموقف منها».

- ندوة لمناقشة كتاب: «التيارات الإيديولوجية في العالم العربي» لعلال الفاسي، بمشاركة نخبة من الأساتذة والباحثين.

إذن، مؤسسة علال الفاسي أحد المقاصد الثقافية المهمة في المغرب لطلبة العلم والباحثين للاطلاع على الكنوز العلمية والمعرفية والتراثية الموجودة فيها.

نبذة عن الفاسي

الأستاذ علال الفاسي من عائلة عربية، هاجرت من الأندلس تحت اسم آل الجد، وسكنت فاس، فعرفت بعائلة الفاسي، أو الفاسي الفهري.

عرفت العائلة الفاسية بمساهمتها في ميادين المعرفة، فكان منها علماء، ومؤلفون، وقضاة كثيرون.

اشتغل والده عبدالواحد بالتدريس في القرويين، وكان قاضيا، ومفتيا لعدة سنوات، وموظفا في المجلس العلمي بكلية القرويين، وتوفي حينما كان علال الفاسي في المنفى سنة ١٩٤١م.

ولد علال الفاسي سنة ١٩١٠م في فاس، ودرس في الكتاب القرآني، ثم في المدرسة العربية الحرة الأولى في فاس، واستمر في دراسته في القرويين حتى أحرز شهادة العالمية سنة ١٩٣٢م.

بدأ حياته العلمية بالتدريس، قبل الحصول على العالمية كأستاذ في المدرسة الناصرية، التي كان من منشئيها، ثم في القرويين بعد ذلك.

يعتبر علال الفاسي مفكرا مذهبيا كبيرا، تجلت أفكاره السياسية والاقتصادية والفقهية في مختلف كتبه. وقد كتب عنها وحللها عدد من مؤرخي الفكر الإسلامي والعربي الحديث، باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.

شرح أفكاره المذهبية والسياسية والاجتماعية في التقارير التي تقدم بها لمؤتمرات حزب الاستقلال، وهي التي صدرت في الكتب الأربعة:

١- عقيدة وجهاد

٢- منهج الاستقلالية

٣- معركة اليوم والغد

٤-دائما مع الشعب

يعتبر كتابه: «النقد الذاتي» من أهم الكتب المذهبية، فقد كتبه ما بين سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٠م، من القرن الماضي، وحدد فيه المنهج الفكري لبناء المغرب المستقل، متخذا من الحرية أساسا لكل تفكير أو ممارسة. وفي هذا الكتاب يعتبر الفاسي التحرر أساسا لكل تفكير أو ممارسة، ويعتبر العقل حكما مطلقا لكل عمل فكري، ويعتبر حرية التفكير حقا عقليا وطبيعيا.

توفي في بوخارست عاصمة رومانيا يوم الأثنين ٢٠ربيع الآخر ١٣٩٤هـ - ١٣مايو ١٩٧٤م.

صدر حديثا:

«الوقف الإسلامي.. فنون إدارته والدعوة إليه»

صدر عن إدارة الإعلام والتنمية الوقفية في الأمانة العامة للأوقاف في الكويت، كتاب من القطع المتوسط، بعنوان: «الوقف الإسلامي فنون إدارته والدعوة إليه». ألفه وأعده د.عيسى صوفان القدومي -مستشار التوعية الوقفية في مكتب الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف- ليكون دليلا عمليا ومنهجا تطبيقيا لكل متخصص في العمل الوقفي.

وقد صيغ الكتاب بطابع تثقيفي وتدريبي شيق، فقد جمع بين دفتيه ٢٣٥ صفحة ملونة ومصممة تصميما يجذب القارئ ويمتع المتصفح.

حوى الكتاب مقدمة للأمين العام للأمانة العامة للأوقاف د.عبدالمحسن الجار الله الخرافي، الذي حرص كل الحرص على أن يرى هذا الإصدار النور؛ ليخدم الوقف الإسلامي ومؤسساته والعاملين فيها، والداعين لإعادة الوقف إلى دوره الحضاري والمجتمعي.

وفي الفصل الأول من فصوله الستة، حرص المؤلف على تعريف المفاهيم والمبادئ الأساسية للوقف، فقد عرّف بالوقف، وأنواعه، ومشروعيته، وحكمه، وأركانه، ثم فصّل المؤلف في مقاصد الوقف، وسماته، وخصائصه.

أمّا الفصل الثاني فكان بعنوان: «فنون إدارة الوقف»، وحوى معنى ومفهوم إدارة الوقف، وكيف أنه يجمع بين العلم والفن، ثم جمع الكاتب الخطوط الرئيسية لإيجاد مؤسسة وقفية ناجحة، وذكر أسباب تراجع العمل الوقفي، وأوضح كيفية اختيار العاملين في المؤسسات الوقفية وتطويرهم، وكذلك أسلوب التدريب للعاملين والمتطوعين في المؤسسات الوقفية. وحدد المؤلف استراتيجيات إدارة الأوقاف، وطرق تحديث المؤسسة الوقفية. وختم الفصل بذكر مقومات التميز في العمل الوقفي.

والفصل الثالث جاء بعنوان: «أسس ومهارات نشر ثقافة الوقف»، وابتدأه بمفهوم نشر ثقافة الوقف، وأهدافنا في نشر هذه الثقافة، ثم ذكر المؤلف مرتكزات نشر ثقافة الوقف والمتطلبات الأساسية لنشرها، ومما ميز الفصل الثالث أن المؤلف جمع «الأصول العشرة في منهج نشر ثقافة الوقف». وقد حدد الكاتب الأخطاء الشائعة في نشر ثقافة الوقف، ومعوقات نشرها، وفي خاتمة الفصل جمع المؤلف قائمة بالبشائر النبوية للأعمال الوقفية والخيرية.

وتحدث الكاتب في الفصل الرابع عن «الدعوة إلى الوقف بصيغ عصرية»، وابتدأ الفصل بتعريف الإعلام، وأهداف الإعلام الوقفي، وكيف نوظف الإعلام لنشر ثقافة الوقف؟ ومضمون الرسالة الإعلامية الوقفية، ومتطلبات الدعوة إلى الوقف بطرق عصرية، والقدرات المطلوبة للمختصين في الرسالة الإعلامية للوقف.

وجاء الفصل الخامس بعنوان: «أساليب المخاطبة والإقناع وتغيير المفاهيم»، وحوى التعريف بثقافة الخطاب الوقفي، وأسرار الحديث الرائع في الوقف، وأساليب المخاطبة والإقناع، وترتيب الحديث للخطاب الوقفي، ومواضيع أخرى متنوعة تخدم أساليب الإقناع وتغيير المفاهيم.

أمّا الفصل السادس فقد اختاره المؤلف ليجمع فيه التدريبات والتمارين العملية والنماذج التطبيقية لتنمية المهارات ورفع القدرات. وجاءت التدريبات متنوعة ومشوقة، وتخدم فكرة الكتاب وعنوانه.

ولا شك أن الكتاب يهدف -كما ذكر مؤلفه- إلى إحياء سنة الوقف، وفق ثوابت الشرع ومعطيات العصر ومتطلبات المستقبل. وحوى الكتاب أحكاما وفوائد جمة وروائع للواقفين من المتصدقين، وللقائمين على المؤسسات والمشاريع الوقفية، ونظّار الوقف والهيئات والمؤسسات، في رعاية الأصول الوقفية وتنميتها.

وقد حرص المؤلف على ربط مادة الكتاب بالدليل الشرعي من الكتاب والسنة، بوصفهما الأصل في كل خير، ثم ربطها بالواقع المعاصر مع ضرب الأمثلة للتوضيح. وامتاز الكتاب كذلك بالاختصار؛ لتقريب المعنى وتسهيل الحصول على المعلومة، بهدف الارتقاء بدور المؤسسات الوقفية ليعود دورها الريادي كما كانت عليه في العصور الإسلامية الأولى، وما كان لها من دور في تنمية المجتمع ونهضته والتقدم به نحو مدارج الرفعة والريادة.

وما يميز الكتاب تخصص كاتبه، الذي له مسيرة عطاء في العمل الخيري والوقفي امتدت إلى ما يزيد على ٢٦ سنة، وكذلك حرص المؤلف على مراعاة النظريات الحديثة في الإدارة وعلى الجوانب الاجتماعية والإنسانية التي لها علاقة مباشرة ومؤثرة في العمل الوقفي.

مذاهب العلماء في طرق التخلص من تعارض الأدلة

د. صالح سالم النهام
دكتوراه في الشريعة الإسلامية

لا شك أن التعارض الحقيقي بين الأدلة الشرعية لا وجود له، وذلك لعدم وجود دليلين صحيحين يجمع المسلمون على تعارضهما، وإذا وجد حديثان يوهم ظاهرهما التنافي والتخالف؛ فإن مرد ذلك هو قصور في نظر المجتهد.. وفي هذا الصدد يقول الشافعي كما نقل عنه الصيرفي: «لا يصح عن النبي ﷺ حديثان صحيحان متضادان، ينفي أحدهما ما يثبته الآخر من غير جهة الخصوص والعموم، والإجمال والتفسير، إلا على وجه النسخ، وإن لم يجده».. وقد جاء اختيار مسلك دفع التعارض بين الأدلة لأشهر ثلاثة مذاهب؛ وبيان ذلك فيما يلي:

أولا: مذهب جمهور الأصوليين من المالكية، والشافعية، والحنابلة، في طرق التخلص من التعارض(١):

١- الجمع والتوفيق: والجمع والتوفيق بينهما فرق دقيق، وهو أن الجمع وسيلة مؤدية إلى التوفيق، والذي هو نتيجة لهذا الجمع، مع أنهما يوردان معا على أنهما مسلك واحد في دفع التعارض.. والجمع يكون بين الدليلين المتعارضين ما أمكن، وذلك بحمل كل واحد منهما على وجه دون الوجه الآخر الذي حمل عليه، لأنه أولى من إعمال أحدهما وإهمال الآخر.

وللعمل بالدليلين ثلاث حالات:

الحالة الأولى: فهي قبول حكم كل من الدليلين المتعارضين للتبعيض، وذلك بأن يثبت بعضه دون بعض.

ومن أمثلته: دارٌ بين اثنين تداعياها وهي في يدهما، فإنها تقسم بينهما نصفين، لأن يد كل منهما دليل ظاهر على ثبوت الملك له، وثبوت الملك قابل للتبعيض، ونحكم لكل واحد ببعض الملك، جمعا بين الدليلين من وجه، ومنها إذا تعارضت البينتان في الملك على قول القسمة.

الحالة الثانية: أن يتعدد حكم كل من الدليلين المتعارضين.

ومعناه: أن يقتضي كل واحد من الدليلين أحكاما متعددة، فيحمل واحد منهما على بعض تلك الأحكام، ويحمل الثاني على البعض الآخر، ومثاله: قول رسول الله ﷺ: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» (أخرجه الدارقطني، برقم:(٨٠)، والحاكم في المستدرك، برقم:(٨٩٨))، فإنه يعارض تقريره فيمن صلى في غير المسجد مع كونه جارا له. فقال: «إذا صليتما في رحالكما ثم أتيتما مسجد جماعة فصليا معهم، فإنها لكما نافلة» (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، برقم: (٢١٩)).

فهذان الدليلان يشتملان على أحكام متعددة بحسب مقتضى كل واحد منهما، فإن الحديث الأول يحتمل نفي الصحة ونفي الكمال، ونفي الفضيلة، وكذا التقرير في الحديث الثاني، يحتمل ذلك أيضا، فحمل الخبر على نفي الكمال، ويحمل التقرير على الصحة.

الحالة الثالثة: أن يكون كل من الدليلين عاما أو مطلقا: ويقصد بذلك: أن يكون كل من الدليلين مثبتا لحكم في الموارد المتعددة، فيوزع الدليلان عليهما، ويحمل كل منهما على بعض تلك الموارد، ومثاله: قول رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر» (أخرجه البخاري، برقم:(٥٧٠٧)، ومسلم، برقم:(٢٢٢٠))، فإنه معارض بقول رسول الله ﷺ: «لا يوردن ممرض على مصح» (أخرجه البخاري، برقم:(٥٧٧١)، ومسلم، برقم: (٢٢٢١)).

فالحديث الأول فيه نفي صريح لوقوع العدوى، وهي انتقال المرض من المريض إلى السليم بالمخالطة والمعاشرة، والنفي جاء بصيغة التنكير فأفاد العموم. بينما جاء الحديث الثاني صريحا في إثبات العدوى عموما، وأن لها تأثيرا، ودل على هذا نهيه عن إيراد المريض على الصحيح، ولا مبرر لهذا النهي إلا خشية انتقال المرض إلى الصحيح بطريق العدوى.

قال الإمام النووي: وأما حديث: «لا يوردن ممرض على مصح»، فأرشد فيه إلى مجانبة ما يحصل الضرر عنده في العادة بفعل الله تعالى وقدره. فنفى في الحديث الأول العدوى بطبعها، ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالى وفعله، وأرشد في الثاني إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته

وقدره... (٢).

وممن قال بهذا الوجه في الجمع بين الأحاديث: القاضي أبو بكر بن العربي، وأبو عمرو بن الصلاح، وابن القيم، والمنذري، والبيهقي(٣).

٢- الترجيح: ويكون ذلك لأحد الدليلين على الآخر، إذا تعذر الجمع بينهما، وذلك بأحد وجوه الترجيح المعروفة عند أهل الاختصاص.

٣- النسخ: ويكون لأحد الدليلين في حال تعذر الجمع والترجيح، وذلك بعد النظر في تاريخ المتعارضين، فإن علمه كان المتأخر منهما ناسخا للمتقدم. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ ﴿٢٣٤﴾﴾(سورة البقرة، آية رقم:(٢٣٤))..

معارضة بقوله تعالى:﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴿٤﴾﴾(سورة الطلاق، آية رقم:(٤)).

فالآية الأولى تفيد بعمومها أن المتوفى عنها زوجها تعتد بالأشهر، سواء أكانت حاملا أم غير حامل، بينما تفيد الآية الثانية أن المرأة الحامل تنقضي عدتها بوضع الحمل، سواء أكانت متوفى عنها زوجها أم مطلقة، ومن هنا وقع التعارض بين الآيتين في الحامل التي توفي عنها زوجها.

وقد ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن الثانية متأخرة في النزول عن الأولى»، فحكمنا بأنها ناسخة لها في هذا القدر، وأن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد بوضع الحمل. (انظر: نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي: (٣/٢٥٦)).

٤- التساقط: ويأتي تساقط الدليلين بعد تعذر الوجوه السابقة، فيترك العمل بهما معا، ويعمل بغيرهما من الأدلة، ثم يكون بعدها الرجوع إلى البراءة الأصلية، وكأن الواقعة لا نص فيها(٤). وهناك من قال بالتخيير بين الدليلين المتعارضين بدلا من سقوطهما، وإذا حكم بالسقوط رجع إلى البراءة الأصلية(٥).

ثانيا: مذهب جمهور الحنفية في طرق التخلص من التعارض(٦):

مما يلاحظ أن الحنفية أيضا لهم أربع مراحل لدفع التعارض - كما تقدم عند الجمهور - غير أنهم يختلفون عنهم في ترتيبها.. قال ابن الهمام في حكم التعارض: «حكمه النسخ إن علم المتأخر، وإلا فالترجيح ثم الجمع، وإلّا تركا إلى ما دونهما على الترتيب إن كان، وإلا قررت الأصول». وبمثل ذلك يقول البزدوي، والسرخسي، والنسفي.

وبيان ذلك فيما يلي:

١- النسخ: أي نسخ أحد الدليلين المتعارضين في حال إذا علم التاريخ بينهما، فيكون المتأخر منهما ناسخا للمتقدم، بشرط أن يكون الدليلان المتعارضان متساويين في القوة.

تقرير الأصول هو إبقاء الحكم على ما كان عليه قبل ورود الدليلين

٢- الترجيح: أي ترجيح أحد الدليلين على الآخر بأحد وجوه المرجحات، وذلك إذا لم يعلم التاريخ. وعللوا سبب تقديم الترجيح على الجمع، بأن تقديم الراجح على المرجوح هو المعقول.

٣- الجمع: ويتم الجمع بين الدليلين إذا تعذرت الوجوه السابقة، فيلجأ المجتهد إلى الجمع بين الدليلين المتعارضين وفق طرق الجمع بحسب طبيعة الدليلين، فيجمع بين العامّين بالتنويع، وبين المطلقين بالتقييد، وبين الخاصّين بالتبعيض، وبين العامّ والخاصّ بأن يخص العام به.

٤- ترك العمل بالدليلين: ويقصد بذلك: أن يستدل المجتهد بما دون المتعارضين رتبة فيعمل به، وذلك في الصور التالية:

الصورة الأولى: تعارض الآيتين ظاهرا والمصير إلى السنة: ومعناه: أن تتعارض آيتان في نظر المجتهد، فيترك العمل بهما ويعمل بما دونهما رتبة، وهي السنة، ولا يذهب إلى العمل بآية ثالثة، لئلا يفضي ذلك إلى الترجيح بكثرة الأدلة.

ومثال ذلك: قول الله تعالى:﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴿٢٠﴾﴾(سورة المزمل، آية رقم:(٢٠))، وقوله تعالى:﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾(سورة الأعراف، آية رقم:(٢٠٤))، فتعارضتا في قراءة المقتدي، حيث إن الأولى بعمومها توجب القراءة على المقتدي، والثانية تنفي وجوبها، لأن الإنصات لا يكون معه القراءة، فترك الدليلان من القرآن وعمل بالسنة، لقول رسول الله ﷺ: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» (أخرجه ابن ماجه، برقم:(٥٨٠))..ولا يعارضهما قول رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» (أخرجه البخاري، برقم:(٧٥٦)، مسلم، برقم:(٣٩٤))؛ لأنه محتمل في نفسه، لجواز أن يكون المراد به نفي الفضيلة(٧).

الصورة الثانية: تعارض السنتين والمصير إلى القياس:

أي يتعارض حديثان فيعمل المجتهد بما دونهما رتبة، وهو القياس، أو أقوال الصحابة، وذلك على خلاف في أيهما مقدم على الآخر.

ومثال ذلك: ما روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «صلى صلاة الكسوف ركعتين، كل ركعة بركوع وسجدتين»(أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار: (١/٣٢٩))..وما روته عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ: «صلى صلاة الكسوف ركعتين، بأربع ركوعات وأربع سجدات»(أخرجه مسلم، برقم: (٩٠٢)).

فتعارضا، فصار المصير إلى القياس على سائر الصلوات. وقد قال ابن نجيم: «إن قولهم يصار إلى السنة في تعارض الآيتين وإلى القياس في تعارض السنتين، ليس ترجيحا

بالأدنى ليلزم الترجيح بالمماثل، وإنما معناه أن المتعارضين يتساقطان، ويقع العمل بالمتأخر الأدنى»(٨).

الصورة الثالثة: تعارض القياسين: وهناك حالتان للتخلص منهما:

الحالة الأولى: أن يكون بأحد القياسين وجه يترجح به على الآخر، وحينئذ يرجح القياس الذي فيه ذلك الوجه، فيعمل به ويهمل القياس الآخر(٩).

الحالة الثانية: إذا لم يكن بأي منهما وجه رجحان، فلم يسقطا، بل إن المجتهد يختار أحدهما ويعمل به مطلقا عند الجمهور. أما الحنفية: فإنه يختار أحدهما ويعمل به، لكن بعد التحري واستفتاء قلبه. حيث إنه ليس وراء القياس حجة يصار إليها، وإذا اختار أحدهما تعين بالنسبة له(١٠).

ومثال ذلك: في مسألة الثوبين، وهي أن يكون مع شخص ثوبان ولا يعرف الطاهر من النجس، وليس له ثوب آخر طاهر ولا ماء يغسلهما به؛ فإنه يتحرى. بمعنى: يتحرى قلبه إلى أحد القياسين الذي اطمأن إليه بنور الفراسة التي أعطاها الله لكل مؤمن، لقول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». (أخرجه الترمذي، برقم:(٣١٢٧)).

ويصلي في الذي يقع تحريه على أنه طاهر، لأن الضرورة قد تحققت ها هنا، لأنه لا يجد بُدا من ستر العورة في الصلاة، وليس للستر بد يتوصل به إلى إقامة الفرض، فجاز له التحري لهذه الضرورة(١١).. وكذلك من اشتبهت عليه القبلة ولا دليل معه أصلا، عمل بشهادة قلبه، وإذا عمل بذلك لم يجز نقضه إلا بدليل(١٢).

الصورة الرابعة: تقرير الأصول (البراءة الأصلية):

ومعنى ذلك: أن يقع تعارض بين آيتين أو حديثين ولم يكن هناك دليل أدنى، أو وُجد لكنه متعارض، وجب العمل بالأصل العام، وهو العمل على ما كان عليه حكم المسألة قبل ورود الدليلين (١٣).

ومثال ذلك: ما روي عن رسول الله ﷺ أنه: «نهى عن لحوم الحمر الأهلية في يوم خيبر، وأمر بإلقاء قدور طبخ فيها لحومها»(خرجه مسلم، برقم: (١٩٣٧)).. وروى غالب بن فهر أنه قال لرسول الله ﷺ: «لم يبق من مالي إلا حميرات. فقال: «أطعم أهلك من سمين حمرك» (أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (٣٨٠٩)).

فأباح له لحومها، فلما وقع التعارض في لحومها، لزم الاشتباه في سؤرها، لأنه متولد منها، ومن جهة أخرى روى أنس أن رسول الله ﷺ: «نهى عن الحمر الأهلية، وقال: إنها رجس»(أخرجه مسلم، برقم: (١٩٤١)).. وروى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أنتوضأ بماء هو فضالة الحمر؟ قال: «نعم» (أخرجه الشافعي في مسنده، برقم: (٣٣٦)).

فقد تعارض قياسان: قياسه على عرقها الذي هو طاهر، فيكون سؤرها أيضا طاهرا، وقياسه على لبنها الذي هو نجس، فيكون أيضا نجس، والجامع في كل منهما أنه مائع يخرج من بدنه لا من مخرج النجاسة، فتعارض القياسان(١٤).

فلما تعارضت الأحاديث في حل لحوم الحمر الأهلية وحرمتها المستلزمين طهارتها ونجاستها، وتعارضت أيضا أقوال الصحابة - رضوان الله عليهم والأقيسة في ذلك-: وجب تقرير الأصول، وهو إبقاء الحكم على ما كان عليه قبل ورود الدليلين، فيبقى كل من الماء والمتوضئ على أصله، فنحكم بطهارة الماء، لأن الماء كان طاهرا بيقين، فلا تزول طهارته المتيقنة بالشك فيه، والمتوضئ لما كان في الأصل محدثا بيقين بقي كذلك، ولا يزول حدثه المتيقن بهذا الماء المشكوك فيه، ولهذا قالوا: بأنه يحتاج إلى ضم التيمم إليه حتى يتأكد من رفع الحدث وصحة صلاته(١٥).

ثالثا: مذهب المحدثين في طرق التخلص من التعارض:

لقد جاءت طريقة المحدثين في التخلص من التعارض وفق الترتيب التالي: (الجمع - النسخ -الترجيح - التوقف)..إلا أنهم في التوقف قد اختلفوا في الأخذ به إلى فريقين:

الأول: وهو لبعض الحنفية، والمالكية، والشافعية حيث لم يذكروه(١٦).

والثاني: لباقي الجمهور حيث عدوه مسلكا رابعا لدفع التعارض.. وهو قول ابن الصلاح وغيره(١٧).

وبهذا قال ابن حجر العسقلاني: «فصار ظاهره التعارض واقعا على هذا الترتيب: الجمع إن أمكن، فاعتبار النسخ والمنسوخ، ثم الترجيح إن تعين، ثم التوقف عن العمل بأحد الحديثين»، وذكر السخاوي النص نفسه(١٨).

ومن الأصوليين الذين ذهبوا إلى هذه الطريقة الإمام الغزالي حيث قال: «إن عجزنا عن الجمع وعن معرفة المتقدم والمتأخر، رجحنا وأخذنا بالأقوى»(١٩).

وإلى هذا ذهب ابن قدامة، والشيرازي، وابن النجار الفتوحي، والشاطبي، والباجي المالكي(٢٠).

وبعد عرض طرق دفع التعارض عند المذاهب الثلاثة، إليك الأمور التالية:

الأمر الأول: أن أول شيء يبدأ به الحنفية هو النسخ، ويقدمونه على ما سواه. بينما جمهور الأصوليين من المالكية والشافعية والحنابلة والمحدثون فيقدمون الجمع على ما سواه، لأن إعمال الدليلين أولى من

إهمال أحدهما، والنسخ - كما هو معلوم - فيه إبطال لأحد النصين».

الأمر الثاني: لا خلاف بين مذهبي الحنفية والمحدثين في تقديم النسخ على الترجيح، بينما مذهب الجمهور تقديم الترجيح على النسخ. وكل من النسخ والترجيح إعمال لأحد الدليلين وإهمال الآخر، ففي النسخ يكون العمل في الناسخ ويترك المنسوخ، وفي الترجيح يعمل بالراجح ويترك المرجوح، إلا أن النسخ من عمل الشارع الحكيم، بينما الترجيح فمن عمل المجتهد، ولا شك في وجوب تقديم عمل الشارع، لأنه أولى من عمل المجتهد(٢١).

الأمر الثالث: إذا ثبت النسخ بنص الشارع فلا شك في تقديمه على بقية المسالك، وجمهور العلماء لما قدموا الجمع على النسخ، كان مرادهم النسخ بالطرق الاحتمالية، أو ما يثبت بالتاريخ وليس بالنص.

وفي هذا الصدد يقول اللكنوي: «والنسخ حقيقة لا يتحقق إلا بنص من الشارع بأن هذا ناسخ لهذا، أو بما يدل عليه دلالة ظاهرة، أو بما قام مقام نص الشارع إقامة ظاهرة، وفيما سوى ذلك لا يتجاسر على القول بنسخ النصوص الشرعية، بل يطلب طرق الجمع بينها بالإشارات الشرعية»(٢٢).

الأمر الرابع: إن القول بالتوقف أو التساقط حال تعذر دفع التعارض بالجمع أو النسخ أو الترجيح، اعترض عليه كثير من العلماء، وأذكر بعض أقوالهم على النحو التالي:

- لقد حكى الجرجاني قول الكرخي بالمنع، ثم قال: وهو اختلاف قول أبي حنيفة في سؤر الحمار، لما تساوى عنده الدليلان توقف عنه، وليس كما قال، لأن أبا حنيفة لم يخير في الأخذ بأيهما شاء، بل أخذ بالأحوط وجمع بين الدليلين، فقال: يتوضأ به ويتيمم، وقد حكي عنه التخيير في مسألة وجوب زكاة الخيل(٢٣) وعدمه، وهذا هو الخلاف الذي يعبرون عنه بتكافؤ الأدلة.

-وقد رجح الشيرازي عدم الجواز، وقال: لابد من ترجيح أحدهما على الآخر. وهو الذي نصره ابن السمعاني وغيره، ويقرر الشاطبي هذا المعنى فيقول: «لا يوجد دليلان تعارضا أجمع المسلمون على التوقف فيهما»(٢٤).

- وذكر اللكنوي عن التساقط: «إن إخراج نص شرعي عن العمل به، مع إمكان العمل به، غير لائق، فالأولى أن يطلب الجمع بين المتعارضين بأي وجه كان، بشرط تعمق النظر وغوص الفكر».

وهذا كقول سليم: إنه الأشبه، لأن الأحاديث آحادية، تؤدي إلى تكافؤ الأدلة وتعارضها، وهو خلاف موضوع الشريعة؛ لئلا يلزم خلو الوقائع عن حكم الله (٢٥).

- قال القاضي أبو يعلى الحنبلي: «ولا يجوز تكافؤ الأدلة في أدلة التوحيد، وصفات الله، والقضاء والقدر، وأما دلائل الفروع مثل: الصلاة والصيام والحج والزكاة وغير ذلك فيجوز أن تتكافأ، فهو يجعل النزاع في دلائل الفروع قطعية أو ظنية لكونها أكثر احتمالا لوقوع التعارض، ولأن الإصابة والتخطئة محلها الفروع لا الأصول(٢٦).

الهوامش:

(١) انظر: تنقيح الفصول: (ص:٤٢١)، شرح المحلى على جمع الجوامع: (٣٩٥/٢)، العدة: (١٠١٩/٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٢١٣/١٤، ٢١٤).

(٣) انظر: عارضة الأحوذي: (٣١١/٨، ٣١٣)، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث: (ص:١٤٣).

(٤) انظر: شرح تنقيح الفصول: (ص:٤٢١)، المحصول: (٣٨٠/٥)، شرح الكوكب المنير: (٦١٣/٤).

(٥) انظر: المستصفى: (١٣٩/٢-١٤٤)، حاشية العطار: (٤٠١/٢)، شرح الكوكب المنير: (٦١٣/٤).

(٦) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٠/٣)، أصول السرخسي: (١٢/٢)، كشف الأسرار للنسفي: (٨٦/٢-٨٩).

(٧) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٢/٣)، فتح الغفار بشرح المنار المعروف بمشكاة الأنوار في أصول المنار: (ص:٣١٠-٣١١).

(٨) انظر: مشكاة الأنوار: (ص:٣١١).

(٩) انظر: تعارض الأقيسة والترجيح بينها للدكتور محمد عبد العاطي: (ص:١٢١ وما بعدها).

(١٠) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٧/٣). فواتح الرحموت: (٣٦٦/٢-٣٦٧).

(١١) انظر: كشف الأسرار للنسفي: (٩١/٢)، التبيين: (٦٢٨/١-٦٢٩).

(١٢) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢٦/٣-١٢٧).

(١٣) انظر: فواتح الرحموت: (٣٦٣/٢-٣٦٥)، التلويح بهامش التوضيح: (٢٠٧/٢).

(١٤) انظر: تعارض الأقيسة والترجيح بينها: (ص:١١٤).

(١٥) انظر: شرح المنار وحواشيه من علم الأصول والمرقاة والمرآة:(٣٧٣/٢-٣٧٥).

(١٦) انظر: كشف الأسرار للبخاري: (١٢١/٣)، الموافقات: (٢١٧/٤)، اللمع: (ص:٨٣).

(١٧) انظر: ، شرح الكوكب المنير: (٦١٢/٤)، اختصار علوم الحديث لابن كثير: (ص:١٧٠).

(١٨) انظر: نزهة النظر: (ص:٦٣-٦٤)، الباعث الحثيث: (ص:١٧٥).

(١٩) انظر: المستصفى:(٦٣٢/٢).

(٢٠) انظر: روضة الناظر: (٤٥٧/٢)، اللمع: (ص:٨٣)، شرح الكوكب المنير: (٦١١/٤-٦١٢)، الموافقات: (٢١٨/٤)، إحكام الفصول في أحكام الأصول: (ص: ٦٤٦-٦٤٧).

(٢١) انظر: تعارض الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والترجيح بينها، لمحمد وفا: (ص:٨٩).

(٢٢) الأجوبة الفاضلة للكنوي: (ص:١٩٣).

(٢٣) بدائع الصنائع: (٣٤/٢).

(٢٤) الموافقات: (٢١٧/٤).

(٢٥) انظر: إرشاد الفحول: (ص:٤٥٨).

(٢٦) انظر: المسودة: (ص:٤٤٨).

القواعد الكاشفة عن الخطأ في الاعتبار بالقاعدة الفقهية

د. لخضر بوغفور
أكاديمي جزائري

ينقدح في ذهن البعض منا أن ربط أحكام الشارع بكلياته وقواعده الكبرى غاية سهلة المنال بالنظر إلى بعض مسلماته وجلياته، ولكن ما إن يسبر هذا المسلك على حقيقته، وينتقل بين أنواعه، وينظر في دقائقه، ويعالج تطبيقاته، ويقف على غامضه وعويصه حتى يدرك خطأ ما عنّ له وظنّه. قال ابن تيمية في إشارة إلى بعض محال هذا العسر: «اعلم أن تعليق الأحكام بالأسباب المقتضية حصول المصالح من الأحكام أمر مضبوط، فأمّا الحكم والمصالح فإن تعليق الأحكام بها عسير؛ لكونها قد تكون خفية، وقد تكون غير مضبوطة»(١).

وإذا كان هذا العسر واردا على النظر المصلحي، فهو كذلك بالنسبة إلى التقعيد الفقهي على معناه الاصطلاحي الخاص؛ لعمق الاشتراك بينهما من جهة الاعتبار بالمقاصد في كليهما، ومن جهة أخرى لما يكتنف هذا المجال من خلاف في جملة واسعة من مفرداته، ومن ثم تشكلت فكرة بحث موضوع قوادح ما بني على الاعتبار بخصوص القاعدة الفقهية بهدف أن يشرق نور الصواب لطارق مثل هذه المسالك، ويزداد لها إحكاما على حد مقولة القائل: «لولا الخطأ ما أشرق نور الصواب»(٢).

ويعظم بحث هذه القوادح في زمننا هذا الذي عظمت فيه الجرأة على تقحم مجال الفتوى بناء على ملاحظة جملة من القواعد الفقهية الشهيرة؛ كالحال بالنسبة إلى قاعدة الحاجة، وقاعدة استباحة المحظور بالضرورة وغيرهما من القواعد.

وإذا كانت هذه المشكلة قد عانت منها الأمة قديما، فكيف بحالنا اليوم؟! قال الشاطبي في صدد تحذيره من التساهل في إعمال قاعدة الرخص: «ربما استجاز هذا بعضهم في مواطن يدّعى فيها الضرورة وإلجاء الحاجة، بناء على أن الضرورات تبيح المحظورات، فيأخذ عند ذلك بما يوافق الغرض حتى إذا نزلت المسألة على حالة لا ضرورة فيها، ولا حاجة إلى الأخذ بالقول المرجوح أو الخارج عن المذهب، أخذ فيها بالقول المذهبي أو الراجح في المذهب، فهذا أيضا من ذلك الطراز المتقدم؛ فإن حاصله الأخذ بما يوافق الهوى الحاضر. ومحال الضرورات معلومة من الشريعة، فإن كانت هذه المسألة منها، فصاحب المذهب قد تكفل ببيانها أخذا عن صاحب الشرع، فلا حاجة إلى الانتقال عنها، وإن لم تكن منها، فزعم الزاعم أنها منها خطأ فاحش، ودعوى غير مقبولة....»(٣).

والقدح في التقعيد الفقهي أو أي استدلال يرد على سبيل القطع، ويرد على سبيل الظن الغالب الذي يقوى حتى يقارب القطع، وربما تراجع هذا الظن حتى ظهر في مقابله رأي المخالف وعسر نوعا ما القدح فيه ودق.

وعسى ما ورد في هذه البحوث من قدح لا يخرج عن هذه الرتب؛ فإنه إذا نزل عن هذه الرتب هوى إلى مجرد الوهم الذي لا يوجد ما يسنده.

المبحث النظري: القوادح

القادح الأول: فساد الاعتبار، وهو في معناه الاصطلاحي العام -الذي يتعلق بكل دليل يرد عليه القدح- هو كما قال سيدي عبدالله العلوي الشنقيطي:

والخلف للنص أو إجماع دعا
فساد الاعتبار كل من وعى(٤)

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح مخالفة الفرع المبني على القاعدة الفقهية للوحي أو الإجماع».

وإن أيسر طريق وأظهره وأقواه دلالة على كشف خطأ الاعتبار بالقاعدة الفقهية في الاستدلال الفقهي هو أن يثبت الخصم مخالفة الناظر لنص من كتاب أو سنة صحيحة، أو لإجماع ثبت واستقر لعلماء الأمة في زمن معين.

القادح الثاني: المنع، وهو: «منع مقدمة فأكثر من مقدمات الدليل»(٥).

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح عدم تسليم الخصم بصحة القاعدة الفقهية ذاتها أو غيرها من مقدمات التقعيد الفقهي».

القادح الثالث: المعارضة، وهي: «مقابلة الخصم للمستدل بمثل دليله أو بما هو أقوى منه». قاله الباجي(٦).

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح معارضة الخصم للاستدلال بالقاعدة الفقهية بمعنى أقوى منها في الاعتبار».

ومن ذلك القدح في المناسبة بإبداء مفسدة أرجح أو مساوية، أو العكس بالنسبة إلى المصلحة مع المفسدة المعتبرة.

القادح الرابع: القلب، وهو: «مشاركة الخصم للمستدل في دليله، ومعنى ذلك أن يستدل المستدل على إثبات حكم بدليل ما يدعي اختصاصه به، فيقلبه السائل ويطبق عليه ضد ذلك الحكم بالدليل نفسه». وهذا التعريف مستفاد من كلام الباجي في حدوده(٧)، إلا أنه خص شرحه له بدليل القياس، وأطلقته ليوافق المعنى العام(٨).

وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه «قادح إبداء الخصم نقيض حكم المستدل بعين القاعدة الفقهية».

القادح الخامس: القول بالموجب، وهو: «تسليم الدليل مع بقاء النزاع». قاله ابن السبكي(٩)، وأما فيما يتعلق ببحثنا فيمكننا حده بأنه: «قادح نفي الخصم دلالة القاعدة الفقهية على محل النزاع».

المبحث التطبيقي: آراء فقهية في ضوء القوادح الكاشفة

التطبيق الأول: أورده القاضي عبدالوهاب المالكي في صدد حديثه عن المسح على الخفين للمقيم، حيث نقل عن الإمام مالك روايتين في المسألة، وكان مما علل به رواية المنع أن «المسح جوز لضرورة السفر بانقطاع المسافر عن صحابته ورفقته بتشاغله بخلع خفيه كل وقت أراد الطهارة، وهذا معدوم في الحضر...»(١٠). وهذا الاستدلال يرجع إلى قاعدة الشريعة في أن ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها(١١).

ولكن يرد عليه قادح فساد الاعتبار لكونه يخالف ما ورد في سنة المصطفى من شمول هذا الحكم للسفر والحضر معا(١٢).

ومن ذلك ما جاء في الصحيح أن عليا رضي الله عنه سئل عن المسح على الخفين فقال: جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوما وليلة للمقيم(١٣).

بل نقل بعضهم ما يفيد استقرار الإجماع على جواز المسح في الحضر قبل زمن مالك، ومن هذا قول ابن عبدالبر: «عمل بالمسح على الخفين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر أهل بدر والحديبية وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين أجمعين، وفقهاء المسلمين في جميع الأمصار، وجماعة أهل الفقه والأثر كلهم يجيز المسح على الخفين في الحضر والسفر للرجال والنساء»(١٤).

وإذا ثبت هذا كانت رواية المنع أيضا فاسدة الاعتبار من جهة مخالفتها لهذا الإجماع.

ويمكننا أيضا القدح في هذا التقعيد بقادح المنع، ذلك أن الحكمة التي جوز من أجلها المسح -وهي دفع المشقة المصاحبة لنزع الخفين(١٥)- موجودة في حال الترحال والإقامة، فهي وإن كانت أبلغ في حق المسافر من جهة مبادرته وعدم استقراره في مكان، فإن المقيم لا يخلو منها، خصوصا في حال البرد الشديد الذي لا يفرق بين مكان ومكان.

قلت: ولربما عظمت هذه المشقة في حق المقيم أكثر من جهة أخرى، ألا وهي لزوم كل صلاة في وقتها وكثرة ما يتوضأ عادة مقارنة مع المسافر الذي يترخص بالجمع بين الصلوات الرباعية.

التطبيق الثاني: أورده أيضا القاضي عبدالوهاب في صدد حديثه عن المسح على الجرموق(١٦)، حيث نقل عن الإمام مالك روايتين في المسألة، وكان مما علل به رواية المنع أن «المسح على الخف رخصة ولا يقاس عليها..»(١٧)، وهذا الاستدلال يرجع إلى ما قعده بعضهم من عدم جواز القياس على الرخص الشرعية.

وهي قاعدة مختلف فيها، وعن الإمام نفسه روايتان فيها، قال القرافي في بيان تعليلهما: «حجة المنع: أن الرخص مخالفة للدليل، فالقول بالقياس عليها يؤدي إلى كثرة مخالفة الدليل، فوجب ألا يجوز.

حجة الجواز: أن الدليل إنما يخالفه صاحب الشرع لمصلحة تزيد على مصلحة ذلك الدليل عملا بالاستقراء، وتقديم الأرجح هو شأن صاحب الشرع، وهو مقتضى الدليل، فإذا وجدنا تلك المصلحة التي لأجلها خولف الدليل في صورة وجب أن يخالف الدليل بها عملا برجحانها، فنحن حينئذ كثرنا موافقة الدليل لا مخالفته»(١٨).

وكما يظهر جليا من هذا التعليل فرواية الجواز من القوة بمكان طردا لاعتبار الشارع الحكيم للمصالح المتجددة وطردا لأصل القياس.

وبناء عليه لا يسلم التقعيد الفقهي لهذه المسألة ما دامت القاعدة الفقهية نفسها غير مسلمة، ويرد عليه حينئذ قادح المنع.

التطبيق الثالث: تشدد الأحناف في المسح على العمامة، ومنعوه بالكلية بناء على أنه لا حرج في نزعها(١٩).

وهذا الاستدلال -كما هو ظاهر- يرجع إلى الاعتبار بمفهوم قاعدة المشقة تجلب التيسير، ولكنه فاسد الاعتبار لمخالفته لما ثبت في الصحيح من حديث المغيرة بن شعبة،

وفيه أنه ﷺ لما توضأ مسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه(٢٠).

ويمكننا أيضا أن نورد على هذا القول قادح المنع من نفيهم مطلق الحرج فيما لو نزعها، قال ابن عثيمين: «الحكمة من المسح على العمامة لا تتعين في مشقة النزع، بل قد تكون الحكمة أنه لو حركها ربما تنفل أكوارها.

ولأنه لو نزع العمامة، فإن الغالب أن الرأس قد أصابه العرق والسخونة فإذا نزعها، فقد يصاب بضرر بسبب الهواء؛ ولهذا رخص له المسح عليها»(٢١).

التطبيق الرابع: سبقت الإشارة في مقدمة هذا البحث إلى خطأ من يحمل القاعدة الفقهية ما لا تحتمل فيوردها على محل النزاع مع عدم انطباقها عليه، ومن ذلك ما صنعه أحمد أبو المجد حينما مثل لما يمكن أن يتغير من الأحكام بتغير الزمان بسنة إعفاء اللحية، معتبرا إياها تشريعا زمنيا متغيرا، ورام تأييد رأيه بما قرره العز في قواعده من أن كل تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو باطل(٢٢).

وهذا التقعيد الفقهي المقاصدي من أبي المجد يرد عليه قادح القول بالموجب؛ حيث إن هذه القاعدة لا تنطبق على مسألتنا هذه، بل ستظل هذه السنة النبوية محصلة لمقاصدها الجليلة من مسايرة الفطرة ومخالفة الكفار وظهور المسلم في أشرف هيئة.

قال ولي الله الدهلوي -في صدد تعليله لحديث النبي ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية...» الحديث(٢٣)-: «هذه الطهارة منقولة عن إبراهيم عليه السلام متداولة في طوائف الأمم الحنيفية وأشربت في قلوبهم، ودخلت في صميم اعتقادهم، عليها محياهم، وعليها مماتهم عصرا بعد عصر، ولذلك سميت بـ«الفطرة»، وهذه شعائر الملة الحنيفية، ولا بد لكل أتباع ملة من شعائر يعرفون بها، ويؤاخذون عليها، ليكون طاعتها وعصيانها أمرا محسوسا، وإنما ينبغي أن يجعل من الشعائر ما كثر وجوده، وتكرر وقوعه، وكان ظاهرا، وفيه فوائد جمة تقبلها الناس أشد قبول.

والجملة في ذلك: أن بعض الشعور النابتة من جسد الإنسان يفعل فعل الأحداث في قبض الخاطر، وكذا شعث الرأس واللحية، وليرجع الإنسان في ذلك إلى ما ذكره الأطباء في الشرى(٢٤) والحكة وغيرهما من الأمراض الجلدية: أنها تحزن القلب وتذهب النشاط.

واللحية هي الفارقة بين الصغير والكبير، وهي جمال الفحول وتمام هيئتهم فلا بد من إعفائها. وقصها(٢٥) سنة المجوس، وفيه تغيير خلق الله ولحوق أهل السؤدد والكبرياء بالرعاع...»(٢٦).

التطبيق الخامس: منع جمهور العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة من ترخص المسافر العاصي بسفره، كأن يكون عبدا آبقا من سيده أو خرج لقطع الطريق على المسلمين. ومن جملة ما استندوا إليه القاعدة الفرعية: الرخص لا تناط بالمعاصي(٢٧).

ومما ذكروه أيضا أن: «الترخص شُرِع للإعانة على تحصيل المقصد المباح توصلا إلى المصلحة، فلو شرع ها هنا لشرع إعانة على المحرم تحصيلا للمفسدة، والشرع منزه عن هذا»(٢٨)، وهذا يشبه أن يكون رجوعا منهم إلى القاعدة الكلية: الوسائل لها أحكام المقاصد.

ولكن كلا التقعيدين أباه المخالفون من الحنفية ومن وافقهم، فأوردوا على الأول ما يمكننا اعتباره قادح المنع، فإنهم لا يسلمون للجمهور بالقاعدة الفرعية السابقة.

وأيدوا رأيهم في خصوص رخصة السفر بأن النصوص الشرعية الواردة في ترخص المسافر جاءت مطلقة وخلت من قيد إباحة السفر، قال ابن تيمية: «لم ينقل قط أحد عن النبي ﷺ أنه خص سفرا من سفر مع علمه بان السفر يكون حراما ومباحا، ولو كان هذا مما يختص بنوع من السفر لكان بيان هذا من الواجبات، ولو بين ذلك لنقلته الأمة وما علمت عن الصحابة في ذلك شيئا»(٢٩).

وأما التقعيد الثاني فيمكننا القول إنهم قدحوا فيه بقادح القول بالموجب، حيث نفوا انطباق القاعدة على مسألتنا، فإن السفر نفسه ليس بمعصية، وإنما المعصية ما تكون بعدما صار مسافرا كما في مثال قطع الطريق أو ما تكون مجاورة للسفر كما في مثال إباق العبد، ومن ثم يصلح أن يكون السفر سببا للرخصة جريا على مبدأ انفكاك الجهة(٣٠).

كما غلط ابن تيمية هذا التقعيد الفقهي المقاصدي من جهة معارضته لأمر الشارع للمسافر بأن يقصر الصلاة، وفي هذا أيضا تنبيه إلى قادح فساد الاعتبار على غرار ما جاء في نص كلامه السابق(٣١).

التطبيق السادس: يعد ابن تيمية من أبرز المانعين لزيارة النساء للمقابر، ومن جملة ما استند إليه في اختياره كون مصلحة الاتباع أعظم من مصلحة الزيارة؛ بناء على أن الشارع قصد إقامة الأولى على سبيل اللزوم الكفائي، وليس شيء من ذلك في الثانية. ومن ثم نتج عنده أنه إذا نهي عن الأولى فالنهي عن الثانية من باب أولى؛ جريا على قاعدة الشريعة المعلومة في تقديم رتبة الفروض على رتبة السنن والمستحبات.

قال: «مطلق الاتباع أعظم من مصلحة الزيارة؛ لأن في ذلك الصلاة عليه التي هي أعظم من مجرد الدعاء؛ ولأن المقصود بالاتباع الحمل والدفن، والصلاة فرض

على الكفاية، وليس شيء من الزيارة فرضا على الكفاية... فإذا كان النساء منهيات عما جنسه فرض على الكفاية، ومصلحته أعظم إذا قام به الرجال، فما ليس بفرض على أحد أولى»(٣٢).

وهذا التقعيد الفقهي المقاصدي من ابن تيمية يرد عليه قادح القلب، حيث كان ينبغي -فيما ظهر لي- أن يؤدي إلى عكس الحكم الذي توصل إليه؛ ذلك أن الاتباع لما كان فرض كفاية علم أن مصلحته الأصلية ترجع إلى الميت، وناسب قيام الرجال به وكراهته للنساء لضعفهن عن هذه المقامات، وأما الزيارة فإن مصلحة التذكر قصدها الشارع الحكيم أصالة للأعيان؛ فناسب الإذن بها لهن من باب أولى، وإن لم تكن فرضا.

ويمكننا أيضا أن نورد على هذا التقعيد قادح فساد الاعتبار من جهة مخالفته لما ثبت في الصحيحين دالا على مشروعية زيارة المرأة للقبور، ومن أصرحه ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه..الحديث(٣٣). وروى مسلم من حديث عائشة خروج النبي ﷺ في إحدى الليالي إلى البقيع للاستغفار لأهله وعائشة رضي الله عنها في إثره، وفي آخره: «فقال -يعني جبريل عليه الصلاة والسلام-: إن ربك يأمرك أن تأتي على أهل البقيع فتستغفر لهم. قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟! قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين..» الحديث(٣٤).

ويرد عليه أيضا قادح المعارضة بإبداء المصلحة الراجحة التي رتبها الشارع الحكيم على زيارة القبور في حال أمنت عليهن وبهن الفتنة، فقد روى مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها..» الحديث(٣٥). وزاد أبو داود والترمذي -واللفظ له-: «فإنها تذكر الآخرة»، وحكم عليه بأنه حسن صحيح(٣٦).

ولا ريب أن كلا الجنسين بحاجة ماسة إلى تذكر الآخرة.

التطبيق السابع: أفتى علماء متأخرون من الحنفية بجواز بيع الوفاء، وحقيقته: «البيع بشرط أن البائع متى رد الثمن يرد المشتري المبيع إليه»(٣٧).

ومن جملة ما فرع عنه هذا الرأي قاعدة أن العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني، ومقصود المتعاقدين هنا هو الرهن وليس البيع(٣٨).

وجمهور العلماء على فساده لكون «اشتراط البائع أخذ المبيع إذا رد الثمن إلى المشتري يخالف مقتضى البيع وحكمه، وهو ملك المشتري للمبيع على سبيل الاستقرار والدوام. وفي هذا الشرط منفعة للبائع، ولم يرد دليل معين يدل على جوازه، فيكون شرطا فاسدا يفسد البيع باشتراطه فيه.

ولأن البيع على هذا الوجه لا يقصد منه حقيقة البيع بشرط الوفاء، وإنما يقصد من ورائه الوصول إلى الربا المحرم، وهو إعطاء المال إلى أجل، ومنفعة المبيع هي الربح»(٣٩).

سوء استعمال «التعدد» صار من خلال أعداء الإسلام

وإذا تأملنا في هذين الدليلين وجدناهما راجعين إلى قادح المعارضة وقادح القلب، وبيانه كالآتي:

أما قادح المعارضة فمن جهة معارضة الاعتبار بهذه القاعدة بمعنى قوي في الاعتبار أيضا، وهو إفضاء هذه المعاملة إلى مخالفة مقتضى البيع في التسليط الكامل ليد المشتري على المبيع.

وأما قادح القلب فمن جهة قلب هذا التقعيد الفقهي على قائله؛ ذلك أن قاعدة الالتفات إلى مقاصد العقود تفضي بنا إلى منع هذه المعاملة لكونها صارت ذريعة يحتال بها على الربا.

التطبيق الثامن: دلت آية النساء دلالة قطعية على إباحة تعدد الزوجات إباحة دائمة بشرط العدل، ولكن رأى علال الفاسي المغربي تعطيل هذا الحكم في خصوص عصره اعتمادا على الموازنة بين المصالح والمفاسد، وذهب إلى وجوب منع هذا التعدد منعا باتا من طرف الحكومة(٤٠).

وقد خرج رأيه هذا على قاعدة الشريعة في تحمل الضرر الخاص في سبيل دفع الضرر العام(٤١).

ويعني بذلك تحمل الضرر الناتج عن منع فئة من الناس من هذا التعدد في سبيل دفع الضرر اللاحق بالإسلام وأهله جراء استعماله، ومما قال في بيان ذلك: «لا شك أن منع الأفراد من تعديد النساء إضرار بهم؛ لأنه منع لهم من إرضاء حاجاتهم وعاداتهم، ولكنه إضرار في الحاضر بالمسلمين عموما لما يحدثه من مشاكل لا تحصى. كما أنه إضرار بالإسلام نفسه؛ لأن تطور المرأة وصل إلى درجة لا تقبل معه مثل ذلك النظام الذي كان سائدا في بعض عهود الحضارة، وتحميلها ذلك يؤدي بها إلى الطعن في الدين أو الالتجاء إلى المطالبة بتشريعات منافية للدين... »(٤٢).

وقال أيضا: «أصبح سوء استعمالنا للتعدد مدخلا لكثير من أعداء الإسلام الذين يتخذونه حجة على ديننا فيحول بينهم وبين فهم الدعوة الإسلامية»(٤٣).

ومحصله استرسال مفرط في بعض المفاسد وغفلة عن محاسن هذا الحكم الشرعي ومصالحه الجمة التي يجلبها، والمفاسد الكبرى التي يدرأها عن المجتمعات الإنسانية في وقت عمت فيه الإباحية وطمت.

فهذا التقعيد الفقهي من علال الفاسي يرد عليه قادح المعارضة من جهتين:

الجهة الأولى: أنه معارض بالمصالح الراجحة التي يجلبها التعدد على المجتمعات البشرية، وهي مشهورة لا نطيل في سردها، وقد شهد بهذا بعض المنصفين من غير المسلمين؛

فهذا المستشرق الفرنسي الشهير جوستاف لوبون(٤٤) يسطر شهادته فيقول: «إن نظام تعدد الزوجات نظام حسن يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تمارسه، ويزيد الأسر ارتباطا، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تجدهما في أوروبا»(٤٥).

الجهة الثانية: أنه معارض أيضا بالمفاسد الشنيعة الناجمة عن تعميم هذا المنع، فلربما لجأ كثير ممن ضعف وازعهم الديني -وهم يعلمون عواقب القانون الرادعة عن مخالفة هذا المنع- إلى الوقوع في الزنا والفجور بغية تلبية شهوته الجامحة. وهنا نسجل أيضا شهادة بعض الغربيين المنصفين، فقد جاء في مقال لكاتبة بريطانية -بعد أن وصفت حالة الإباحية المفرطة البائسة التي وصلت إليها بنات قومها-ما ملخصه: «أدرك العالم توماس الداء ووصف الدواء الشافي: وهو أن يباح للرجل التزوج بأكثر من واحدة، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة، وتصبح بناتنا ربات بيوت. فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوروبي على الاكتفاء بامرأة واحدة. فهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شرودًا، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال. ولا بد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل الزواج بأكثر من واحدة....» (٤٦).

وهكذا إذا تجرد العقل الغربي عن الوهم والهوى لم يسعه إلا إجلال هذا التشريع الرباني، والاقتراب من أنوار شريعتنا بدلا من الإعراض عنها. وانحراف بعض المسلمين في تطبيقها لا يلزم منه سد الباب على الجميع على شاكلة غيره من الحقوق.

وفي الأخير فإنني أوصي بدراسة استقرائية تحليلية نقدية تطبيقية لظاهرة الخطأ في الاعتبار بالقاعدة الفقهية، قديما وحديثا، لا تقتصر على المسالك الكاشفة عنه كما نبهت عليها في هذه العجالة، بل تغوص في ملابسات هذا النوع من الخطأ من حيث جوانبه وأسبابه وآثاره وغير ذلك من المتعلقات.

الهوامش:

(١) تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل لابن تيمية ١١٧/١.
(٢) نقله الخطيب البغدادي عن عبدالله بن المعتز في كتابه: الفقيه والمتفقه ٨/٢.
(٣) الموافقات ٩٩/٥.
(٤) نظم: مراقي السعود للشيخ عبدالله العلوي، رقم البيت: ٧٩٩، ص٩٩.
(٥) انظر: التحبير شرح التحرير للمرداوي ٣٦٩١/٧،، ونثر الورود على مراقي السعود للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٥٥٥/٢.
(٦) الحدود في الأصول للباجي، ص٧٩.
(٧) ص٧٧.
(٨) انظر أيضا: جمع الجوامع لابن السبكي ٣١١/٢.
(٩) جمع الجوامع ٣١٦/٢. وانظر: التحبير شرح التحرير ٣٦٧٤/٧.
(١٠) الإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبدالوهاب المالكي ١٣١/١، وانظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١٨/١.
(١١) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٨٤، وشرح القواعد الفقهية لأحمد الزرقا ص١٨٧.
(١٢) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ١٩٩/١.
(١٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٧٦ (٨٥)، ص١٤١.
(١٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبدالبر ١٣٧/١١.
(١٥) انظر: روضة الناظر لابن قدامة ص١٧١. وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية(٢٦٢/٣٧): «الحكمة من المسح على الخفين التيسير والتخفيف عن المكلفين الذين يشق عليهم نزع الخف وغسل الرجلين خاصة في أوقات الشتاء والبرد الشديد، وفي السفر وما يصاحبه من الاستعجال ومواصلة السفر».
(١٦) هو ما يلبس فوق الخف. الصحاح ١٤٥٤/٤، وانظر: المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربي ص١١٩.
(١٧) الإشراف ١٣٥/١.
(١٨) شرح تنقيح الفصول للقرافي ص٣٢٤، وانظر: موسوعة القواعد الفقهية ٩٠٧/٨.
(١٩) انظر: حاشية ابن عابدين ٤٥٧/١، والموسوعة الكويتية ٣٠٥/٣٠.
(٢٠) انظر صحيح مسلم، رقم: ٢٧٦، ٢٧٤(٨١)، ص١٤٠.
(٢١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، ٢٣٨/١.
(٢٢) انظر: مقال: التجديد في الإسلام (ضمن كتابه: حوار لا مواجهة)، ص٦٥، أحمد كمال أبو المجد، الكويت، مجلة العربي، ١٩٨٥م، والقواعد الكبرى للعز بن عبدالسلام ٢٤٩/٢.
(٢٣) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: ٢٦١ (٥٦)، ٢٢٣/١.
(٢٤) خراج صغار لها لذع شديد، الصحاح، للجوهري ٢٣٩١/٦.
(٢٥) قص الشعر في اللغة هو قطعه. انظر مثلا: الصحاح، للجوهري ١٠٥٢/٣، والقاموس المحيط، ٣١١/٢، الفيروزآبادي، ومن ثم فيستقيم حمل عبارته هذه على حلق اللحية فهو شعار المجوس، لا على مجرد الأخذ منها، وسباق كلامه لما ذكر ما يحدثه شعث اللحية على النفس يؤيد هذا الحمل.
(٢٦) حجة الله البالغة ولي الله الدهلوي، ٥٦٥/١.
(٢٧) انظر: المغني لابن قدامة ١١٥/٣، والذخيرة للقرافي ٣٦٧/٢، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني ٤٠٣/١، والأشباه والنظائر للسيوطي ص١٣٨، وموسوعة القواعد الفقهية للبورنو القسمان ٣و٤٠١/٤.
(٢٨) المغني ١١٥/٣.
(٢٩) الفتاوى ١٠٩/٢٤. وانظر: البناية في شرح الهداية للعيني ٤٠/٣، وحاشية ابن عابدين ٤٠٣/٣.
(٣٠) انظر: البناية في شرح الهداية ٤٠/٣.
(٣١) انظر: الفتاوى ١١٢/٢٤.
(٣٢) الفتاوى لابن تيمية ٣٤٧/٢٤..
(٣٣) صحيح البخاري -واللفظ له-، رقم: ١٢٨٣، ص٢٥٢، وصحيح مسلم، رقم: ٩٢٦ (١٥)، ص٤١١.
(٣٤) صحيح مسلم، رقم: ٩٧٤ (١٠٣)، ص٤٣١-٤٣٣.
(٣٥) المصدر السابق، رقم: ٩٧٧ (١٠٦)، ص٤٣٤.
(٣٦) سنن أبي داود، رقم: ٣٢٣٥، ٣٦٢/٣، وسنن الترمذي، رقم: ١٠٥٤، ٣٥٧/٢؛ كما جاءت هذه الزيادة عند أحمد في مسنده من حديث علي ﷺ، رقم: ١٢٣٦، ٣٩٧/٢، وجاءت أيضا عند ابن ماجة في سننه، رقم: ١٥٧١، ٩٤/٣.
(٣٧) الموسوعة الكويتية ٤٨/٩.
(٣٨) انظر: القواعد الفقهية، ١٤-١٥.
(٣٩) الموسوعة الكويتية ٢٦٠/٩. وانظر: الفتاوى ٣٣٤/٢٩. وقد جاء أيضا بعدم جواز هذه المعاملة قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة، انظر مجلته: ٧٦/ج٣/ ص٥٥٧.
(٤٠) انظر: النقد الذاتي، ص٢٧٥. علال الفاسي، ط: ١.
(٤١) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ص١٨٣، علال الفاسي، ط: ٥، وانظر في تقرير هذه القاعدة: الأشباه والنظائر، ص٩٦، ابن نجيم، وشرح القواعد الفقهية للزرقا، ص١٩٧.
(٤٢) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها ص١٨٣.
(٤٣) النقد الذاتي ص٢٧٦.
(٤٤) من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين، وهو مستشرق منصف إلى حد بعيد لم يدافع عن حضارة العرب فحسب، بل دافع عن حقوق المسلمين أيضا، من كتبه: سر تطور الامم، حضارة العرب، توفي سنة ١٩٣١م. كتاب: في الميزان غوستاف لوبون، لشوقي أبو خليل ص١٢.
(٤٥) نقلا عن: تعدد الزوجات في الإسلام، ص٨٠. عبدالتواب هيكل.
(٤٦) نقلا عن تفسير المنار، ٣٦٠/٤

الفكر الإصلاحي عند الإمام الشاطبي

د. عبدالرحيم باحمو
أكاديمي متخصص في الشؤون الإسلامية

لقد كان العصر الذي عاش فيه الإمام الشاطبي عصرا غلب على أهله الفساد والاستبداد، فكان حرصهم على المناصب والكراسي هو الشغل الذي شغل بالهم، وملأ أوقاتهم، فسلكوا في سبيل ذلك ما لا دليل على استحسانه، من قبيل القتل للحكام للتربع على كراسيهم، وسفك الدماء...

وفي مثل هذه الظروف الملتبسة، والأحوال البئيسة، يجدر بالمصلح والداعية أن تكون له مواقف واضحة تبين مدى رفضه لهذا الفساد، مساهمة منه في إصلاح الوضع، ورأب الصدع.

وقد كان إمامنا الشاطبي -رحمه الله- واحدا من أئمة الإصلاح؛ لذلك نهضت همته، وتقوت عزيمته على إصلاح الوضع السائد في القرن الثامن، مما دفعه إلى صياغة نظريات وقوانين إصلاحية مستمدة من الوحي، تقتضي الثورة على البدع والمنكرات وإقامة صرح السنن. وهكذا كان لهذا العصر الذي عاش فيه تأثير عميق في تكوين فكره الإصلاحي.

وسأحاول أن أتناول معالم فكره الإصلاحي بشيء من الإيجاز مع الحفاظ على الدقة والفائدة من خلال المباحث الآتية:

المذهب الإصلاحي عند الإمام الشاطبي

لقد أحس الإمام الشاطبي -رحمه الله- بخطورة البدع التي انتشرت في المجتمع الغرناطي حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتهم وسرت في قلوبهم مسرى الدم في الجسد، كما أنها تسببت في تفرق المسلمين وتشتتهم وتمزقهم، وفي إضعافهم وإعجازهم عن مواجهة عدوهم، وبسببها تغلغل الفساد ودب الانحراف في ميدان النفس، وميدان الحياة كلها، وتحول الإسلام إلى مجرد مظاهر وطقوس ميتة لا تمتّ إلى الإسلام بصلة.

في ظل هذه الفتن الهوجاء التي عصفت بالمجتمع الغرناطي خلال القرن الثامن الهجري، تبين للشاطبي أنه لابد من الإصلاح والتغيير والتحذير من هذه البدع، وبيان أنها ضلالة وخروج عن الجادة، وتأكد له أن الإصلاح أمر لا سبيل إلى إهماله، ولما أصبح ذلك مسلمة عنده تبين له «أن الإصلاح لا يتم إلا بالرجوع بأمة الإسلام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وترك ما سواهما» هذا باختصار هو المذهب الإصلاحي عند الشاطبي.

ولكي يجسد مذهبه -رحمه الله- ألف كتاب «الاعتصام» الذي يعد رد فعل على الفساد والانحراف الذي عم معظم الأحوال الأندلسية في القرن الثامن الهجري. يقول الدكتور حمادي العبيدي: «إن كتاب الاعتصام يُمثل الدعوة الإصلاحية التي قامت على السلفية، والتي ظهرت في المشرق على يد ابن تيمية، وظهرت في المغرب على يد الشاطبي والتي تنحصر في إصلاح الأمة الإسلامية على أساس العمل بالكتاب والسنة، كما كان عليه الوضع في صدر الإسلام على عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده»(١) ولتثبيت مذهبه الإصلاحي، وإرساء دعائمه، دعا الشاطبي إلى التمسك بالعقيدة فكرا والشريعة عملا(٢)، وهو الوضع الذي كان عليه الصحابة زمن الرسول ﷺ والقرن الذي والاهم والذي بعده، فكانوا هم القدوة في فهم الشريعة والجري على مقاصدها(٣). فلابد من مراعاة مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرارها السامية والتركيز على إصلاح العقائد أولا، ثم الفروع ثانيا. وهذا ما فعله الشاطبي؛ حيث ابتدأ -كما يقول- بأصول الدين عملا واعتقادا، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول(٤).

ومن المعلوم في سنن الله الكونية أن الداعي إلى الخير يجد طريقه مفروشا بالأذى ومملوءًا بالأشواك والعراقيل التي تعيق المسير؛ لذلك يجب عليه -إن أراد الإصلاح فعلا- أن يتحلى بالصبر؛ لأن المفسدين والظالمين الجهلة سينكرون تغيير الحال التي هم عليها، خاصة أنهم ألفوها ووجدوها ناعمة مريحة، ومن أراد استئصالها بل مجرد تغييرها وتبديلها أنكروا عليه ورموه بكل أنواع الاتهام والسب والشتم... وهذا ما حصل للشاطبي معهم، حيث إنه -رحمه الله- لما جاء لإصلاح ما عليه الناس في عصره، قوبل بالإنكار والمعارضة والرفض، بل نسب إلى الابتداع والضلال.. وعاش بين هؤلاء غريبا. ما نقم منهم إلا أنه أراد أن يصلح ما أفسده الناس، فقامت عليه القيامة وتواترت عليه الملامة وفوق إليه العتاب سهامه ونسب إلى البدعة والضلالة وأنزل منزلة أهل الغباوة والجهالة(٥). ومع ذلك لم تزده المحن التي واجهها مع البدع وأهلها، إلا رسوخا وثباتا على الحق ومواصلة المسير في درب الدين. قال الشاطبي: «ولما وقع علي من الإنكار ما وقع، مع ما هدى الله إليه، وله الحمد، لم أزل أتتبع البدع التي نبه عليها رسول الله ﷺ وحذر منها وبين أنها ضلالة وخروج عن الجادة، وأشار العلماء إلى تمييزها والتعريف بجملة منها لعلي أجتنبها فيما استطعت وأبحث عن السنن التي كادت تطفئ نورها تلك المحدثات لعلي أجلو بالعمل سناها وأعد يوم القيامة فيمن أحياها»(٦).

ومن خلال هذا المذهب الإصلاحي، أنتقل لبيان بواعث الإصلاح عند الشاطبي في المبحث الثاني.

بواعث الإصلاح عند الشاطبي

عندما تأمل الإمام الشاطبي حال المجتمع الأندلسي، بما فيه من علل ومفاسد، أفزعه الموقف وراعه الأمر، لكنه لم ييأس ولم يستسلم، بل دفعه يقينه وقوة إيمانه وعلو شأنه وبعد همته إلى الاقتناع بحقيقة مرة، وهي أن الدين شيء، وما يفعله الناس في واقعهم شيء آخر؛ لذلك أخذ بعزيمته القوية وهمته العالية يفحص الواقع الأندلسي ويمحصه من أجل إصلاحه وتنقيته من البدع والانحرافات والضلالات، ويحيي ما اندثر من السنن وكاد يغيب عن أذهان الناس، فتوصل في نهاية المطاف إلى أن الدين حقيقة واحدة لا تقبل التعدد والتنوع، بينما الدعوات الابتداعية التي نفخت فيها أبواق العصبيات والخرافات هي التي زيفت للناس حقيقة الدين.

ولما أثبت الشاطبي وحدة حقيقة الدين

في ظل مذهبه الإصلاحي وأزاح عنها غمائم الشبهات، تقدم ليعلنها صريحة جريئة، فتألب عليه المبتدعون وأنكر عليه الجهال الذين عظم عليهم أن يفارقوا البدع ويبتعدوا عن المألوفات الفاسدة، فآذوه أذى شديدا أشرت إلى بعض معالمه في مباحث سابقة في هذا البحث.

هذا وقد حاولت البحث عن بعض الدوافع والبواعث التي دفعت الشاطبي إلى التفكير في قضية الإصلاح، فوجدتها تتلخص في الوضع الذي آل إليه المجتمع الأندلسي في القرن الثامن الهجري وآلت إليه أحواله، ذلك العصر الذي شاعت فيه البدع والمنكرات، وأحلت فيه مجاراة الأهواء، وانتشر فيه الجهل بالدين، وصار فيه الانحطاط الفقهي والتقليد الأعمى أمرا عاديا.. وقد رأى الإمام الشاطبي أن هذه الظروف نفسها دواعي تقتضي وجوب الإصلاح. ولبيان ذلك قسمت هذا المبحث إلى خمسة بواعث من بواعث الإصلاح عند الشاطبي، وجعلتها على الشكل الآتي:

أولا: شيوع البدع والمنكرات

بعدما تولى الإمام الشاطبي بعض خطط الجمهور، من الخطابة والإمامة ونحوهما أرشد ونصح، ولكنه اصطدم بما فشا في الناس من سيئ العادات، ومنكر البدع المحدثات، ووجد أن هذا الأمر قد استقر في الناس وشب عليه الصغير وشاب عليه الكبير، مما وضعه في موقف حائر متردد؛ هل يتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس؟ أم يتبع الناس على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح فيدخل تحت ترجمة الضلال؟ فقرر أن ينتظم في سلك من أحيا سنة وأمات بدعة.

ولما اختار قرار اتباع السنة ومخالفة أهل الزيغ والضلال، وأراد تطبيق شرع الله وإحياء السنن التي أماتتها البدع، إذا بنظرات الاستغراب والنفور تتكالب عليه من كل جهة، وكأنه ارتكب جريمة لا تغتفر؛ لأن الناس في عصره ترسخت فيهم البدع والمنكرات وصار عندهم المعروف منكرا والمنكر معروفا، والمتمسك بالسنة في نظرهم هو الهالك، لأنه يرمى بالعظائم ويتهم بالكبائر..ولا يجد له وليا ولا نصيرا..

ولما تأمل الشاطبي هذا الأمر تبين له أن الاعتصام بالسنة الذي يعدونه هلاكا هو عين النجاة في نظره، وهو الذي سينفعه عند الله، أما الناس فلن يغنوا عنه من الله شيئا يوم القيامة؛ لذلك رأى أن تخليص المجتمع من البدع التي كان عليها، والرجوع به إلى ما كان عليه الصحابة زمن الرسول ﷺ هو قوام الإصلاح وأساسه.

وقد سلك الإمام الشاطبي في مقاطعة أهل البدع والدعوة إلى تعزيرهم منهج التدرج و«المرحلية» من مقام إلى مقام، وهو منهج رباني أصيل سلكه خير خلق الله محمد بن عبد الله ﷺ في دعوته. وتتجلى المرحلية في التعامل مع أهل الأهواء والبدع في المراحل الآتية: الإرشاد والتعليم وإقامة الحجة في البداية، ثم الهجران وترك الكلام والسلام، ثم التغريب، والسجن، وإشاعة بدعهم للناس كي يحذروا ولئلا يغتر «المبتدع» بكلامه، القتال إذا ناصبوا المسلمين وخرجوا عليهم، القتل إن لم يرجع مع الاستتابة وهو قد أظهر بدعته، القتل بلا استتابة وذلك في حق من أسر بدعته وكانت كفرا أو ما يرجع إليه؛ لأنه من باب النفاق كالزنادقة، تكفير من دل الدليل على كفره كما إذا كانت البدعة صريحة في الكفر كالإباحية والقائلين بالحلول كالباطنية، أو كانت المسألة في باب التكفير بالمآل، ثم لا يرثهم ورثتهم من المسلمين ولا يرثون أحدا منهم ولا يغسلون إذا ماتوا ولا يصلى عليهم ولا يدفنون في مقابر المسلمين، ثم الأمر بأن لا يناكحوا وهو من ناحية الهجران وعدم المواصلة، ثم تجريحهم على الجملة فلا تقبل شهادتهم ولا روايتهم ولا يكونون ولاة ولا قضاة ولا ينصبون في مناصب العدالة من إمامة أو خطابة، ترك عيادة مرضاهم وهو من باب الزجر والعقوبة، ترك شهود جنائزهم، ثم الضرب.

ثانيا: مجاراة الأهواء

لقد غصت البيئة الأندلسية في القرن الثامن بذوي الأهواء الضالة والمذاهب الفاسدة، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾(المؤمنون:٥٣) المعجبين بأنفسهم، الطائعين لآرائهم، هواهم إلههم وإلههم هواهم. قال الشاطبي: «هذا وإن كان زماننا قد ظهر فيه الشح المطاع، والهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه»(٧). غير أن هذا لا يمنع المصلح من مواصلة إصلاحه، كما لا يمنع وجود أهل الحق وذوي الخير الذين يذودون عن حياض السنة ويرفعون راية الإسلام على طول الأيام ومر الأزمان. قال الشاطبي: «لأن قائل الحق موجود وإن قل... فكيف لنا بالسكوت عن الحق؟»(٨).

وقد بين الإمام الشاطبي أن الهوى في حقيقته افتراء على الله(٩). قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الجاثية:٢٣). وسبب اشتهار أهل الأهواء بهذا الاسم أنهم قدموا أهواءهم على الشرع، ولذلك سموا في بعض الأحاديث وفي إشارة القرآن أهل الأهواء، وذلك لغلبة الهوى على عقولهم واشتهاره فيهم(١٠). بل إن الهوى سبب من أسباب الخروج عن السنة، كما أنه ضلال مبين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾(ص:٢٦). قال الشاطبي تعليقا

على هذه الآية: «فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما: الحق والهوى، وعزل العقل مجردا إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك»(١١).

ثالثا: شيوع الجهل

إن الجهل والهوى وجهان لعملة واحدة هي: البدعة، وهما سببان حقيقيان للخروج عن السنة واتباع البدع والمنكرات، وهذا ما أكده الإمام الشاطبي حينما قال: «بل سبب الخروج عن السنة الجهل بها والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف»(١٢). كما أن الجهل والهوى يبعثان صاحبهما على الابتداع؛ لأن صاحب البدعة لما غلب عليه الهوى مع الجهل بطريق السنة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم دون غيره، فمضى عليه فحاد بسببه عن الطريق المستقيم، فهو ضال من حيث ظن أنه راكب للجادة كالمار بالليل على الجادة وليس له دليل يهديه يوشك أن يضل عنها فيقع في متابعة وإن كان بزعمه يتحرى قصدها(١٣).

وقد بين الإمام الشاطبي أن من أكبر الأسباب التي تدفع إلى الابتداع هي الجهل بأصول الشريعة وبمقاصدها: وهذا أشد وأقرب إلى التحريف والخروج عن مقاصد الشرع(١٤)؛ ذلك أن الجاهل بأصول الشريعة يأخذ أدلتها مأخذ الهوى والشهوة ويستدل بها على بدعته ويلوي عنقها من أجل أن توافق هواه وبدعته. قال الشاطبي: «والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعا ممن ينسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي، فينزله على ما وافق عقله وشهوته، وهو أمر ثابت في الحكمة الأزلية التي لا مرد لها»(١٥)، كما أن الجاهل يتبع من الأدلة ما تشابه منها، فحكم عليه بالزيغ والضلال في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾(آل عمران:٧).

رابعا: الانحطاط الفقهي والتقليد الأعمى

إن الفقه باعتباره مادة التدين الإسلامي، قد وصل مستوى متدنيا في القرن الثامن الهجري، حيث عطلت ملكة الاجتهاد لدى الفقهاء وأخذوا يتلقون أحكاما وأقوالا كأنها من الشارع، مما أدى إلى التقديس الذي لا يحل إلا لله، وبذلك يكون المقلد المقدس قد وقع في شرك خفي.

وهذا التقليد تتلقاه الأجيال جيلا عن جيل، وهو من أبرز أسباب العجز والانحطاط الذي منيت به الأمة الإسلامية عامة والأندلسية -في عهد الشاطبي- خاصة؛ لدرجة أن بعض الفقهاء يستنكرون أن تبدل أقوال وفتاوى من قلدوا.

وقد عانى الشاطبي من بعض الفقهاء المقلدين تقليدا مقدسا، حيث استنكروا عليه مجموعة من الاجتهادات التي استند فيها إلى نصوص الوحي ومقاصد الشريعة الإسلامية. وهكذا توالت عليه الاتهامات وتكاثرت عليه التلفيقات، ومن هذه الاتهامات الملفقة:

نسب إليه القول بأن الدعاء لا ينفع ولا فائدة فيه، بسبب أنه لم يلتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة.

وتارة نسبوه إلى الروافض وبغض الصحابة رضي الله عنهم، بسبب أنه لم يلتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص. لأن ذلك لم يكن معروفا عند السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وتارة أضيف إليه القول بجواز القيام على الأئمة، قال الشاطبي في رد هذه التهمة: «وما أضافوه إلا من عدم ذكري لهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم»(١٦).

ومرة يتهم بالتنطع في الدين وحمل الناس على الشدة والحرج. ويجيب الشاطبي عن هذه التهمة بقوله: «وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم، لا أتعداه وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل، ويوافق هواه وإن كان شاذا في المذهب الملتزم أو في غيره، وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك»(١٧).

اتهموه بمعاداة أولياء الله. قال الشاطبي في رده لهذه التهمة: «وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة المنتصبين بزعمهم لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم»(١٨).

نسبوه إلى مخالفة أهل السنة والجماعة «بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها وهي الناجية ما عليه العموم ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان»(١٩).

إن هذه الاتهامات الملفقة التي نسبت للشاطبي -رحمه الله- تعكس مظهرا من مظاهر الانحطاط الفقهي في القرن الثامن الهجري المتمثل في التعصب من العلماء والفقهاء لبعضهم البعض، وعدم اهتمامهم بأوضاع أمتهم، وتخليهم عن واجب الإصلاح.. لذلك يحملهم الشاطبي تبعة الأوضاع المتردية التي وصل إليها المجتمع الإسلامي(٢٠). فهؤلاء العلماء في نظره تخلوا عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن بعضهم هادن في دين الله، وجارى الأهواء في فتاواه جهارا، «حتى لقد حكى الخطابي عن بعضهم أنه يقول: كل مسألة ثبت لأحد من العلماء فيها القول بالجواز شذ عن الجماعة أو لا فالمسألة جائزة»(٢١).

ويستمر الشاطبي في التنديد بهذا النوع من العلماء، ويذكر أن أكثرهم كان يسلك مسلك المبتدعة ويخالطهم في حلقات الرقص والغناء، ثم بعد ذلك يؤم الناس ويتصدر مجالس

الإفتاء(٢٢)، وإذا زجروا عن اجتماعهم على الباطل احتجوا بوجود الفقهاء معهم، ولو كان حراما أو مكروها لم يحضروا معهم(٢٣)، فقال الشاطبي مندداً: «إن اجتماعهم للذكر على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمان الرسول ﷺ ولا زمان الصحابة ولا من بعدهم ولا عرف ذلك قط من شريعة محمد عليه السلام، بل هي من البدع التي سماها الرسول ﷺ ضلالة وهي مردودة»(٢٤).

ويشير الشاطبي إلى إسراف هؤلاء الفقهاء المتأخرين في تقليد من سبقهم من غير دليل فيقول: «فتأملوا يا أولي الألباب، كيف حال الاعتماد في الفتوى على الرجال من غير تحر للدليل الشرعي، بل لمجرد نيل العرض العاجل، عافانا الله من ذلك بفضله»(٢٥).

خامسا: وجوب الإصلاح

في ظل هذه التراكمات التي تدل على فساد الواقع بشيوع البدع والمنكرات ومجاراة الأهواء مع سكوت الناس عنها وجهلهم أو إغفالهم عن القيام بفرض الإصلاح، رأى الإمام الشاطبي أنه من الأكيد الطلب لما فيه من رفع الالتباس الناشئ بين السنن والبدع(٢٦)، بل إنه رأى أن تغيير المنكر واجب على كل من يملك نصيبا علميا يمكنه من تمييز السنن من البدع، وبيان ذلك للناس حتى لا يختلط عندهم الحرام بالحلال، قال الشاطبي: «لأنه لما كثرت البدع وعم ضررها واستطار شررها ودام الانكباب على العمل بها والسكوت من المتأخرين عن الإنكار لها، وخلفت بعدهم خلوف جهلوا أو غفلوا عن القيام بفرض القيام فيها صارت كأنها سنن مقررات وشرائع من صاحب الشرع محررات، فاختلط المشروع بغيره فعاد الراجع إلى محض السنة كالخارج عنها، كما تقدم فالتبس بعضها ببعض، فتأكد الوجوب بالنسبة إلى من عنده فيها علم»(٢٧).

فلا يكفي أن يكون المرء صالحا في نفسه، بل لابد من تعدي هذا الصلاح لغيره، حتى لا تتقوى سلطة الباطل على سلطان الحق، لأن السكوت على الحق كتم للحق وللعلم. وهذا منهي عنه شرعا كما في الحديث النبوي الذي رواه أبوسعيد الخدري حينما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علما مما ينفع الله به في أمر الناس، أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار»(٢٨).

إن القيام بأمر الإصلاح والدعوة إلى الخير وإنكار الباطل أمر واجب، لقول رسول الله ﷺ «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٢٩)؛ ومن ثم فإن المكلف إذا فهم مراد الشارع من قيام أحوال الدنيا، وأخذ في العمل على مقتضى ما فهم، فهو إنما يعمل من حيث طلب منه العمل، ويترك إذا طلب منه الترك، فهو أبدا في إعانة الخلق على ما هم عليه من إقامة المصالح باليد واللسان والقلب(٣٠).

فلابد إذن من صد المبتدعة عن ابتداعهم وأهل الباطل عن باطلهم. وهذا المنع والصد والطرد يختلف حسب درجة ابتداعهم؛ ذلك أن «القيام عليهم بالتثريب أو التنكيل أو الطرد أو الإبعاد أو الإنكار هو بحسب حال البدعة في نفسها من كونها عظيمة المفسدة في الدين أم لا، وكون صاحبها مشتهرا بها أو لا، وداعيا إليها أو لا، ومستظهرا بالأتباع وخارجا عن الناس أو لا، وكونه عاملا بها على جهة الجهل أو لا، وكل من هذه الأقسام له حكم اجتهادي يخصه»(٣١).

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الشاطبي لاقتناعه بوجوب الإصلاح وأنه لا عذر للقادر عليه في إهماله، لم يبال بالانتقادات الموجهة إليه من قبل المبتدعة والجهال، لأن سنة الله في الأرض اقتضت أن جميع المصلحين يلاقون من الأذى والنكال ما لا يعلم غيبه إلا الله. وهذا ما حصل لخير خلق الله وأحبهم إليه محمد رسول الله ﷺ لذلك أمر الله تعالى بالدعوة إليه وأوصى بالصبر على الأذى فيه. قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾(العصر: ١-٣).

الهوامش

١- حمادي العبيدي: الشاطبي ومقاصد الشريعة، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٢ه-١٩٩٥م، ص ١١٤.
٢- المصدر السابق نفس المكان، بتصرف.
٣- أبوإسحق الشاطبي الموافقات في أصول الشريعة، وعليه شرح جليل بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير شيخ علماء دمياط: الشيخ عبدالله دراز، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، عدد الأجزاء: ٤،ج٥/٧٦.
٤- المصدر السابق ج١/٢٥.
٥- انظر الاعتصام، ١/٢٧.
٦- الاعتصام، ١/٣٠.
٧- أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى بفاس سنة ٥١٤هـ: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ج١١/١٤١.
٨- المعيار المعرب، ج١١/١٤١.
٩- الاعتصام، ج١/٥٢.
١٠- الاعتصام، ج١/٥٢، بتصرف.
١١- الاعتصام، ج١/٥٢.
١٢- الاعتصام، ج١/٢٩.
١٣- المصدر السابق، ج١/١٣٤.
١٤- الاعتصام، ج١/١٣٤.
١٥- المصدر السابق، ج١/١٣٤-١٣٥.
١٦- الاعتصام، ١/٢٨.
١٧- المصدر السابق، نفس المكان.
١٨- المصدر السابق، نفس المكان.
١٩- المصدر السابق، نفس المكان.
٢٠- انظر الشاطبي ومقاصد الشريعة، ص ٣٤.
٢١- الاعتصام، ٣/ ٣٢٧.
٢٢- انظر الشاطبي ومقاصد الشريعة، ص ٣٤.
٢٣- محمد أبوالأجفان، فتاوى الإمام الشاطبي، حققها وقدم لها محمد أبوالأجفان، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ-١٩٨٥م، ص ١٩٣.
٢٤- المصدر السابق، نفس المكان.
٢٥- الاعتصام، ٢/٣٥٥.
٢٦- الاعتصام، ج١/٣١.
٢٧- المصدر السابق، نفس المكان.
٢٨- سنن ابن ماجه، ١/ ٣٠٩، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم الحديث ٢٦١.
٢٩- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، ١/ ١٦٧، رقم الحديث ٤٩.
٣٠- الموافقات، ج٢/٢٠٢.
٣١- الاعتصام، ج١/١٧٥.

«محمد كرد علي» يستعيد عوالم شيخ العروبة.. وشيخ المحققين

بين ديموقراطية زكي وأرستقراطية تيمور

صلاح حسن رشيد
ناقد أدبي مصري

كلاهما كان حجة في ميدان التراث والمخطوطات، وكلاهما كانت له ندوة عامرة يرتادها أهل الفكر والأدب في مصر. فندوة زكي باشا (شيخ العروبة) كان لها طابعها الخاص، في دار العروبة بالجيزة. وهناك ندوة أحمد تيمور (شيخ المحققين)» في دارته بالزمالك. وبين الرجلين فوارق كبيرة في الطبع والسلوك والعمل؛ فزكي باشا رجل يحب الشهرة والدوي، ويرسل آراءه كالقنابل، على صفحات الجرائد، فيثير المعارك -كما يقول أنور الجندي في كتابه «الشرق في فجر اليقظة»- وهو قليل الصبر على الاعتكاف في مكتبته للبحث والمثابرة!

أما أحمد تيمور باشا، فإنه على العكس، يقرأ في صمت، ويعلق على هوامش المؤلفات، وهو لا يتصل كثيرا بالمجتمع، فهو يفضل العزلة من أجل نشدان المعرفة.

وصف كرد علي للأحمدين

وفي مجلة «المقتبس» رسم محمد كرد علي صورة قلمية للرجلين، فقال: «إنهما الأحمدان المصريان المعاصران. كان الأحمدان من أعز أصحابي، قضيت معهما منذ سنة ١٩٠١م إلى أن اختارهما مولاهما إلى جواره، أياما وليالي؛ فتمازجت أرواحنا تمازج الإخوان، وتصافينا تصافي الود. تيمور كان من عادته أن يتبسط في الحديث مع خاصته تبسطا لا يخرجه عن حدود الأدب والدعابة البريئة، والنكات، ثم ينقلب إلى البحث في الكتب: مطبوعها ومخطوطها، يخوض في كل ذلك من الجد بذوق وشوق، وتقدير وإنصاف، ويهتم كثيرا بأمر المسلمين والعرب والعربية».

وعندما سكن الإمام محمد عبده في حي عين شمس، اتخذ أحمد تيمور دارا إلى جواره مدة؛ فنقل إليها خزانة كتبه، لكن عندما انتقل الإمام محمد عبده إلى جوار ربه، اسودت الدنيا في عينيه، فانتقل تيمور إلى جهة أخرى، وبادر بنقل خزانة كتبه إلى إحدى مزارعه في مدينة قويسنا بالمنوفية. وبعد فترة، ابتنى تيمور دارة جديدة في الزمالك، فنقل لها مخطوطاته النفيسة.

ويذكر كرد علي أن تيمور «كان يتصدق في السر؛ بأن يجري مشاهرات إلى من قعد بهم الدهر عن الاكتساب، ويفضل على بيوت كثيرة من المحاويج، ويدر عليهم رواتب مقررة، تأتيهم في بيوتهم رأس كل شهر، ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه إذاعة ما تجود به نفسه، لذلك أخذ العهود على من كان يعطيهم ما يقوم أودهم، ألا يذكروا أنهم يرزقون منه، ولما باح أحدهم بالسر، لضغط شديد وقع عليه، شق ذلك عليه؛ فقطع المشاهرات والإدرارات، متظاهرا بالضائقة»!

أخلاق تيمور باشا وكرمه

ويضيف كرد علي قائلا عن كرم تيمور باشا: «وعاد بعد مدة، يرسل بواسطة المصرف حوالات مالية بأسمائهم، وهم لا يعرفون مصدرها، بل إن المصرف نفسه لا يعرف حقيقة اسم المرسل؛ ولذلك صح لنا أن نقول: إنه كان لا ينفق ماله على غير العلم وعمل الخير، وكان يعالج في كتمان صدقاته، حتى لا تدري شماله بما فعلت يمينه! وكانت أطيانه تزيد، وريعها ينمو، ونعمته تفشو مع هذا البذل الكثير! وعندي من رسائله أكثر من مئة وأربعين رسالة، هي في خزانتي أجمل ذخر وذكرى».

وقد استغرق تيمور في التعليق على مخطوطاته جانبا عظيما من وقته، وإن غرامه بالكتب كان يتقاضاه صرف الساعات الطويلة أيضا، وإذا علمنا ذلك؛ لأكبرنا ما أتى به، خصوصا إذا علمنا أنه كان يتولى كل أمر بنفسه، حتى كتابة الفهارس!

تساهل زكي باشا

ويقول كرد علي عن أحمد زكي باشا: «إنه كان يتجوّز فيما لا يتجوّز فيه أرباب التقوى! فكأنه تخلق بأخلاق من عاصرهم وعاشرهم، وما رأى حرجا في ذلك! ويضطره العبث واللعب إلى الإسراف؛ ولذلك أنفق كل ما دخل يده من مال قرينته أولا، ثم من مال شقيقه، غير حاسب للأيام حسابا، وربما أفرط في ذلك، ولعل إفراطه كونه لم يعقب ولدا. وكانت له أشياء يستخرجها في مخطوطاته، أو من جزازاته، ومفكراته، ويتحف بها العالم العربي الحين من بعد الآخر، يقصد بها التعليم والإدهاش».

وطريقة زكي باشا في كتبه وترجمته ونشره أقرب إلى أن تكون غربية، منها إلى أن تكون عربية. والعربية في آثار تيمور باشا محسوسة أكثر من الإفرنجية. والإفرنجية في كتابات زكي شائعة أكثر من العربية، والروح الديني يتجلى في تيمور، والروح المدني غالب على زكي؛ فكأن هذا مستشرق شرقي، وذاك شرقي قبل كل شيء، شرقي بتقاليده وهدايته، وتربيته وثقافته. ولقد جال تيمور في دائرة ما أحب أن يخرج منها طول عمره، وكذلك كان زكي، إلا أن الدواعي والبواعث كانت تضطر هذا إلى تجاوز الحد الذي رسمه لنفسه، فلقد خاض زكي في المجتمع، وتغلغل في تضاعيفه، فقبله بما فيه من حسنات وسيئات أكثر من صنوه تيمور. وهنا تظهر أرستقراطية تيمور باشا، وديموقراطية زكي باشا؛ فقد كانت حياة زكي مرحة يتمتع بمباهجها، ومناعمها على ما يشتهي، وكان يتعجل النعيم لا يرجئه، وكانت حياة تيمور عابسة، فيها شيء من الانقباض، كما يقول كرد علي.

وكلاهما كان صادقا في مشربه، صادقا في سيرته، غير مدلس، ولا موالس، ولا متزمت، ولا متخافت! وإن عدد من أخذ عنهم تيمور من الشيوخ كان أكثر من عدد من أخذ عنهم زكي، وكانوا في ذاتهم أشد تدينا وغيرة على الدين؛ فجاء تيمور عالما إسلاميا قبل كل شيء، يحب الانتفاع بما أنتج أهل الغرب، وجاء زكي عالما شرقيا، يشبه العلماء الغربيين إلى حد بعيد.

وقد وصف خير الدين الزركلي تيمور باشا في مذكراته، لا سيما أنه كان من رواد صالونه الشهير، فقال: «إنه وقور، طويل الصمت، فيه تواضع ولين.. وما زلت أذكر إلقاءه بين يدي مذكراته يوم بدا لي أن أبحث عن تراجم المتأخرين، وقد عاصر بعضهم، وبادلهم الترجمة؛ فكانت لي منها فوائد كثيرة، وفي البعداء عن مصر من يعرف فضل تيمور أكثر مما يعرف أهلها».

بين الزهد والثراء

كما وصف الدكتور مجاهد الجندي -مؤرخ الأزهر الشريف- الفارق بين تيمور باشا، وزكي باشا؛ فقال: كلاهما كان وطنيا، محبا للعروبة، مدافعا عن الإسلام وحضارته، لكن تيمور باشا كان أقرب إلى أهل الزهد والتصوف؛ فهو لا يجد نفسه في مزارعه، وأمواله؛ ولكنه يجد نفسه بين أضابير المخطوطات، ومساعدة أهل الحاجات والمعوزين! أما زكي باشا؛ فكان أقرب إلى سمت الأثرياء، الذين يتنعمون في الخيرات، ولا يكاد يجد نفسه إلا في النعيم.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (١٩)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

لقد وصل بنا البسط والتناول في الحلقات اللغوية الآنفة إلى أن الفصاحة في الكلام هي موافقة سنن العرب في كلامها، ولأجل ذلك وضعت علوم الآلة لصيانة العربية من اللحن الذي انتشرت نيرانه في هشيم الفصحى؛ حتى اضطر الأوائل إلى التمييز بين الكلام الفصيح، وبين المرذول الناكب المجانف للصحة، رافضين أن يتدسس إلى ثوبها الناصع أي كلام مخسول تنبو عنه قواعدها ولا تستسيغه عبقريتها المتفردة على هذه الشاكلة: «وأما الفصيح من الكلام، فهو ما وافق لغة العرب، ولم يخرج عما عليه أهل الأدب. ولتصحيح ذلك وضع النحو، ولجمعه وضعت الكتب في اللغة، وذكر المستعمل منها، والشاذ، والمهمل. وحق من نشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم، ولا يخرج عن جملة ألفاظهم، ولا يقنع من نفسه بمخالفتهم فيخطئوه ويلحنوه. واللحن ما خالف اللغة العربية، وخرج عن استعمال أهلها، وما بني عليه إعرابها. وهو معيب عند الأدباء في الجملة، وعلى من يأخذ نفسه بالإعراب، ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب. ويروى أن عمر رضي الله عنه كان يضرب على اللحن. فأما العرب،

فإذا لحن الواحد منهم... سقطت عند أهل اللغة منزلته، ودفعت ورفضت لغته»(١). لأنهم يعلمون علم اليقين أن عواقب جنايات اللسان غير محمودة، ولذلك أخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بطرف لسانه قائلا: هذا الذي أوردني الموارد، كما كانت عثرات اللسان سببا في العزل من الوظائف أيام جدة العرب. يحكى أن أحد الأمراء ولّى قاضيا بمدينة «قم» العراقية، ولما بلغه كثرة لحنه كتب إليه قائلا: «أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم». بل إن المقال في غير كنهه قد يفضي بالعاثر إلى الموت كما يقول الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه
وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمي برأسه
وعثرته بالرجل تبرا على مهل

على الرغم من أن هذه الصيحات المنذرة تعرف صعوبة حمل النفس والطبع على تغيير هذه العادة المنكرة، التي لا ترعى حرمة لقاعدة نحوية أو صرفية أو إملائية أو تعبيرية، كما تدرك المكابدة التي يقتضيها البلوغ بالمزورين على مغالبة ما ألفوه سنين عددا، فإن مع الذلة يحتاج إلى النصرة من هذه الدركات، التي أوقعها فيها الجاحدون المنكرون لآلائها. وتعد هذه الحلقة اللغوية ومثيلاتها التي تسمع وتنشر في أرجاء الوطن العربي، الضربة القاضية التي تبيد الشك بالنسبة إلى المستقبل المشرق للعربية الفصحى، والسبيل الناهجة المهيع؛ المتجلية في انتقار المائدة اللغوية العربية الفصيحة التي ننشئ عليها شداتنا حتى تصبح الفصحى مركوزة في عقولهم، محبوبة لديهم، لا يرضون بالدون من الكلام، ولا يطوون كشحهم عن لغة القرآن الكريم، التي أوتيت من الفصاحة ما لم يؤتها غيرها من الكلم العربي، ولذلك يجب التعامل معها كالماء بالنسبة إلى السمكة؛ تموت إن نضب أو غاض عنها، أو بقي محتقنا لا تمده الفوالج والجعافر بالعناصر التي تضمن لها العزة القعساء ما توالى الأجدان.

تلك العزة القعساء التي ضمنها القرآن الكريم للعربية، هي التي أنهضتني لأري المنسلخين عن الفصحى لمحا باصرا من فرائدها، رغبة في تحسين القدرة على استعمالها السليم، فيكتمل المراد من المقبول من قواعدها، وينتج الانغماس في أجوائها المشبعة بالصحة، لكي يثبت بقواطع الأدلة أن الذي يتكلم العربية الفصيحة ولا يحسن تلك القواعد التي لا يجوز أن نجعلها دبر آذاننا، ولا أن نوجد بديلا يخرقها ويقطع أوصالها مثل الذي يطلب جذوة نار في الماء.

ولكي أجلو المراد أؤكد أن الكلام العربي الفصيح يقوم على عناصر ودعائم ضرورية هي الأسماء والأفعال، لكنها تبقى مجرد أسماء وأفعال تحتاج إلى الحروف، والخوالف، والضمائر، التي تقيم صرحها وتهذب قلقها حتى يستقيم الكلام، ولا تقوم دونه عقبات الاتصال والتواصل، كما يبدو ذلك من هذه الجمل اللاحنة المبتعدة عن موارد الفصاحة التي أودعها الله في القرآن الكريم، حيث جذع الخطأ أنف فصاحتها على هذه الشاكلة: كلما انهزم الفريق، كلما كثر الهرج والشغب. وقولهم: لم يقم الجيش سوى بتفريق البعض من المشاغبين. لاشك أن حياصة مثل هذا اللحن العاطل عن زينة القواعد منا على طرف الثمام، إذا تصالحنا مع كتاب الله الذي أورد لفظة «كلما» ما ينوف عن خمس عشرة مرة دون أن يكررها، كما أن أرباب الألسنة الفصاح لا يكررونها البتة في الجملة الواحدة. قال تعالى من سورة البقرة، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ ﴿٢٠﴾﴾، وقال من سورة النساء، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ ﴿٥٦﴾﴾، وقال من سورة نوح: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾، قال عمر بن أبي ربيعة:

كلما قلت متى ميعادنا
ضحكت هند وقالت بعد غد

كما أورد القرآن الكريم لفظة «بعض» من دون تعريف، لأن معنى الإضافة يوجد فيها، كما تثبت الآية من سورة البقرة: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ ﴿٢٥٣﴾﴾، وقال أبوحاتم السجستاني: «ولا تقول العرب الكل ولا البعض، وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب»(٢)، كما ليس من كلام العرب أن يقع حرف الجر بعد سوى. قال النبي ﷺ: «دعوت ربي ألا يسلط على أمتي عدوا من سوى نفسها».

هذا -والله- العنوق بعد النوق، فمن أراد الفصحى وسعى لتخليصها من الوهية التي أوقعها فيها أصحاب الأفكار الكسولة، فليثوِّر القرآن، فهو بلا ريب عسل الفصحى الذي لابد أن تلعقه الضمائر الصحاح والألسنة الفصاح.

الهوامش

١- نقد النثر المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر. ص ١٤٢و ١٤٣. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٢- لسان العرب. ابن منظور الإفريقي المصري. المجلد ٧. دار صادر بيروت. ١٤١٤هـ /١٩٩٤م.

براعة المنهج القرآني في استيعاب تزاحم المعاني

أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

إن فحص القرآن الكريم، بمعنى تدبره، يوشك أن يعلن عن ثلاثة إجراءات كلية جامعة قامت بعبء تحقيق الاستيعاب، والاستجابة إلى حقيقة تزاحم المعاني فيه. وهي الإجراءات التي تتلخص في ما يلي:

أولا: براعة استثمار الظاهرة الصوتية في الكتاب العزيز.

ثانيا: براعة الاستثمار المعجمي.

ثالثا: براعة استثمار التنوع القرائي (على مستوى البنية والتركيب).

وسنحاول أن نشرح كيف وظف القرآن الكريم هذه الإجراءات ليعبر إلى الحقيقة التي تحيط بأمر معانيه، وتزاحمها، تعاطيا مع الطاقة الاكتنازية المركوزة في تربته، أي في لغته، وهي الطاقة التي تهب كل جيل نصيبه من الثروة أو الكنز إذا أحسن التفتيش والبحث فيه.

استثمار الظاهرة الصوتية

يعد القرآن الكريم في أول النظر إليه ظاهرة صوتية، وهو حكم يتأسس على رعاية جانبين:

أ . تنزله مقروءا، وتنوع الأمر بهذا بدرجات، واعتبار ذلك تعبدا في حد ذاته.

ب . اعتماده المكون الصوتي في نظمه.

ولعل الوقف بما أنه ظاهرة صوتية

في أحد جوانبها يمكن أن يبرهن على كيفية استثماره، ليكون وسيلة ناجحة للترجمة عن تزاحم المعاني، وهو الأمر الذي جعل الوقف في مجمله غير لازم، بما يعني أنه تابع في بعض النظر للفهم، يحسن بحسن ما ينتج من معنى، ويتراجع الحكم بحسنه بتراجع الحكم بالحسن على ما ينتج عنه.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد مختلفا فيه من قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ..﴾ (القصص:٢٥)، إذ يروي أصحاب الوقف عدم تفضيل الوقف على «تمشي»، ويعللون ذلك بأن مراد الله تعالى أن تأتي المرأة متسترة، ولا يفضلون البدء بـ «على استحياء قالت» حتى لا يخلو المشي من التعلق بمعنى الاستحياء. ولعلي لا أبعد إن قررت أنه من الأولى الوصل، بمعنى عدم الوقف على «تمشي» ولا على «على استحياء» وقراءة الآية كاملة، فيتعلق الاستحياء بحالها جميعا، مشيا وقولا، إذ الوقف على «تمشي» يخلص الاستحياء للقول، والوقف على «على استحياء» يخلص الاستحياء للمشي ويخلي القول منه، ومراد الله سبحانه استصحاب الاستحياء للمشي والقول جميعا.

وقد أنتجت رعاية هذه الظاهرة في الذكر الحكيم آثارا عميقة في معانيه، وما يخرج منه من أحكام عقدية، وعملية: فقهية وأخلاقية. وقد درس بعض الدارسين صلة الوقف بالمعنى على ما تجد في كتاب الدكتور عبدالكريم إبراهيم صالح «الوقف في القرآن الكريم وصلته بالمعنى».

وثمة ظواهر صوتية أخرى يمكن عند تأملها، والصبر عليها أن تؤتي أكلها وثمراتها في مجال عطاء المعنى في الذكر الحكيم.

الاستثمار المعجمي

وبدرجة أكثر اتساعا من المحور السابق، يقوم التوظيف المعجمي بدور فاعل في تحقيق تزاحم المعاني، لا سيما في حرص الكتاب العزيز على استعمال كلمات ذات طاقة دلالية متنوعة، وهو ما جعل ظاهرة المشترك اللغوي، بما هو لفظ دال على أكثر من معنى في اللغة، تبرز في المقاربات العلمية المعاصرة، لا سيما في الذكر الحكيم.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما توقف أمامه المفسرون في تفسير تسمية ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ (القدر:١)، إذ أورد المفسرون معنيين توزعا على أربعة تفصيلات، (كما أورد الماوردي في النكت والعيون):

أ . معنى التقدير، ويتفرع عنه:

. أن الله سبحانه قدر فيها إنزال الكتاب العزيز.

. أن الله سبحانه يقدر فيها أمور السنة.

ب . معنى الشرف، ويتفرع عنه:

. ليلة مشرفة، لعظم قدرها وجلال خطرها.

. شرف الطاعات فيها وعظم قدرها والثواب عليه.

وهذا التنوع في المعنى مأتاه من الاكتناز في معنى الجذر اللغوي (ق د ر)، إذ هو أصل في المعاني التالية:

أ . القدر والشرف والمكانة الرفيعة والمنزلة السامية.

ب . القضاء والتقدير والتدبير.

ج . التضييق، في مثل: قدرنا عليه رزقه، أي ضيقنا عليه.

وهذه المعاني جميعا كانت مرادة، اختيرت هذه الكلمة لاستيعابها جميعا، إذ ليلة القدر، كما رأينا، ليلة شرف، وليلة تقدير، وليلة يضيق الله فيها منافذ النار!

ويتحقق الأمر كذلك بالتنوع في استعمال كلمات تبعا لاختلاف القراءات المتواترة، وهو طريق في الاستثمار المعجمي يحشد المعاني الكثيرة بتنويع استعمال الكلمات في الموضع الواحد، ومن أمثلته المشهورة المتداولة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ (الحجرات:٦).. فقد قرئ: «فتبينوا»، وفي قراءة حمزة والكسائي وخلف: «فتثبتوا»، وهو أمر مقصود بحكم تواتر القراءتين، لتحقيق المعاني التالية:

أ . تثبتوا، تمهلوا وتأنوا.

ب . تثبتوا، اطلبوا الدليل الذي يوثق به.

ج . تبينوا، استوضحوا، وهو نوع ظهور منبثق من قوة الدليل، ووضوحه وعلانيته .

د . الفعلان يتطلبان تضافر الأدلة بدلالة اتفاقهما في صيغة الفعل المضعف أو المشدد.

والتبادل بين الفعلين مقصود، والله أعلم، ليجعل التمهل والتأني وطلب الدليل الموثوق به واستفاضة الأمر ووضوحه، دلالات مركزية ظاهرة وواضحة لا يختلف حولها، لخطر القضية، وتعلقها بالدماء والأنفس!

مستوى البنية والتركيب

ظهر من آخر الفقرة السابقة أن التنوع المعجمي، الذي مورده القراءات المتواترة، باب من أبواب تحقيق تزاحم المعاني، بما يعني أن التنوع القرائي كان مستهدفا يرمي إلى تعظيم ما يختزنه الذكر الحكيم في خزينته من معان.

ويتعلق بهذا التنوع القرائي المقصود مظهران آخران هما:

أ . التنوع في استعمال الأبنية الصرفية، بمعنى ثبات الجذر اللغوي، مع استعمال متنوع للمشتقات المأخوذة منه، على ما نجده مثلا في: «مالك» و«ملك»، و«قاتل» و«قتل».

ب . التنوع في استعمال الطاقة الإعرابية، فيما سميناه في مقال آخر

باسم المثلث القرائي، أي إيراد الكلمة الواحدة في الآية الواحدة وقد قرئت بالحركات الإعرابية المختلفة طلبا لتنوع الناتج الدلالي.

وفي ما يلي أمثلة نكشف فيها عن كيفية توظيف الكتاب العزيز لمظاهر هذا المسلك العزيز فيه:

قراءة «مالك» على وزن فاعل المروية عن عاصم والكسائي وغيرهما، وقراءة ﴿مَٰلِكِ ..﴾ (الفاتحة:٤) على وزن فعل من غير ألف مدية عن ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة وغيرهم. هذا فضلا عن قراءات أخرى لم تتواتر مثل: مليك، وملاك، وملك (بكسر الميم)، وإنما كان ذلك لتحقيق الإحاطة بمعاني الهيمنة والسيطرة المادية والمعنوية جميعا، إذ إن الأمر كما يلي:

أ. مالك: الشديد، والمتملك، من ثبات الملكية ودوامها.

ب. ملك: القادر، ونافذ الأمر، والأعلى شرفا، والعام في التصرف.

ولله مراد أن يؤسس في نفوس المؤمنين به جمعه الأمر وامتلاكه وقدرته ونفاذ أمره وهيمنته، وهو ما حققه تنوع استعمال المشتقين الواردين من جذر لغوي واحد (مع ما روي من قراءات أخرى).

ومن ذلك أيضا التنوع في استعمال تصاريف الجذر اللغوي (ق ت ل) في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ (آل عمران:١٤٦)، إذ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وغيرهم الفعل «قاتل» بألف، فعلا ماضيا. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وغيرهم الفعل «قُتِلَ» ثلاثيا مبنيا للمجهول، فضلا عمن قرأها: «قُتِّل» بالتشديد والبناء للمجهول في الشاذ الذي لم يتواتر، وهذا التنوع مقصود لتحقيق المعاني التالية:

أ. الحث على القتال، إذ الجهاد سنة الأنبياء ومن صحبهم، وهو المعنى المستفاد من «قاتل».

ب. لا يصح التخلف عن القتال، إذ هو ممتدح لفعل النبي -أي نبي- ومن معه من رجال الجيل الأول.

ج. ضرورة قيام المؤمنين بالدين، وإن قتل النبي -أي نبي- في المعركة، وهو ما يعني تواصل حمل الدين بعد وفاة الأنبياء.

د. حياطة معنى التحذير من التخاذل من الوجوه كافة، سواء من وجه وجود النبي فلا يصح التخاذل عن القتال معه، فجاءت قاتل من أجل هذا، أو من وجه قتل النبي فلا يصح تضييع أمانته، وخذلان دينه ولو كان بولغ في التقتيل، فمن أجل ذلك تنوع استعمال التصاريف المختلفة من الجذر الواحد.

ومن سبيل آخر ينوع القرآن الكريم إعرابيا تحقيقا لتزاحم المعاني، فيجري الإعرابات المتنوعة على الكلمة الواحدة في الآية الواحدة، وهو ما يعرف باسم المثلث القرائي، طلبا للمرادات المختلفة.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في إعراب كلمة «أرجلكم» في قوله تعالى: ﴿.. فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ..﴾ (المائدة:٦)، إذ قرئت «أرجلكم» بالطرق الثلاثة التالية:

أ. نصب اللام.

ب. ضم اللام.

ج. كسر اللام.

أما قراءة النصب فكانت عطفا على أيديكم، فيكون الأمر بغسلها من هذا الاعتبار.

وأما قراءة الرفع، فعلى أنها مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: وأرجلكم مغسولة إلى الكعبين.

وأما قراءة الجر، فعطف على رؤوسكم، مع تقدير فعل محذوف قبله، وقد كان ذلك التنوع لتحقيق المعاني التالية:

أولا: تأكيد غسل الرجلين، قراءة الجر والرفع.

ثانيا: التنبيه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها، فعطفت على المنصوب بـ «امسحوا» طلبا لتقليل الماء، مع تأمين معنى الغسل بوجود «إلى الكعبين»، إذ لا غاية في المسح، فلما أمن معنى الغسل بدليل إلى الكعبين، بقيت إرادة معنى الاقتصاد في الماء وعدم الإسراف فيه، ولو في الوضوء فعطف على المنصوب بمسح، إذ المسح أقصد في الدلالة بالتوفير والاقتصاد من الغسل، والاقتصاد مقصد معتبر في هذا السياق تشهد له النصوص الحديثية الصريحة، في مثل: «لا تسرف ولو كنت على نهر جار».

وبهذا يكون المعنى قد أحيط من ثلاث جهات، هي:

أ. العناية بغسل الرجلين لمكانتهما، وهو الناطق به إعراب الرفع.

ب. تأكيد غسلهما بعطفهما على المجرور، المأمور بغسله في الآية.

ج. الندب إلى الاقتصاد في الماء بعطفه على دلالة المنصوب بالفعل «امسحوا» مع ضمان معنى الغسل بدليل إلى الكعبين.

ومن هنا فإن هذا الوجه المعجز الجديد الدال على اكتناز الذكر الحكيم بالمعاني الكثيرة وجد طريقه في الظهور والاستعلان بتوظيف هذه الإجراءات اللغوية المتنوعة، صوتيا وصرفيا ونحويا وقرائيا، ولا يزال الكتاب العزيز يعطي مع مداومة النظر فيه، والفحص لأسراره، والتدبر لآياته، ما يبعث على تأكيد قضية إعجازه وإبهاره ليستقر في نفوس الخلق، مع استمرار النظر، إعلانهم بلسان جامع أن صدق الله العظيم، وهو ما يستوجب شكر المنعم على نعمة القرآن الكريم الذي يمثل طريقا عامرا لتحقيق شفاء الإنسانية ورحمتها.

المتنبي.. شاعر العربية ولسانها الحكيم

التحرير

عقد منتدى الأدب الإسلامي في المركز العالمي للوسطية في الكويت، مجلسه الأدبي الشهري، وسط حضور جماهيري غفير من رواد الأدب الإسلامي الهادف ومحبيه، والذي انطلق تحت شعار «المتنبي... شاعر العربية ولسانها الحكيم»، للدكتور محمد حسان الطيّان، رئيس مقررات اللغة العربية في الجامعة العربية المفتوحة بالكويت.

وافتتح الطيان المجلس بالإشادة بمكانة المتنبي بين الشعراء، وكيف أصبح حديث المجالس الأدبية أينما ذكر، ومكانته المرموقة بين أصحاب الأدب، كعلم من أعلام الشعر العربي. ثم وضّح كيف نشأت الأجيال المتعاقبة على معايشة معاني شعره الغزيرة التي حفلت بالمشاعر الرفيعة والآداب السامية.

وعدد الطيان شهادات بعض علماء اللغة وأهل البيان في عبقرية المتنبي ومكانته كشاعر مجيد، وألمعي مجدد، ونبوغه الفطري، ومن هؤلاء: اللغوي المعروف ابن جني، الذي عاصر المتنبي، موضحا السمات التي ميزت شعره، وعلى رأسها أنه رسّخ في نفوسنا قيما نعتز بها، والمحمّلة من مكارم الأخلاق، وكيف أن أشعاره فاضت بصنوف الإعجاز.

وأفرد الطيان لبعض القيم المستنبطة من شعره، كالمروءة مثلا، الصفة الغالبة في أشعاره. وبيّن حاجة أجيالنا إلى التربية على مثل هذه المعاني السامية من طلب العزة، والمروءة، وبذل الوسع في تحصيلهما. وتساءل الطيان قائلا: لماذا أحيينا شعر المتنبي؟ وكيف أن شعره يتغلغل في ضمائرنا ومشاعرنا وأحاسيسنا؟ منتهيا إلى أن السبب يكمن في أن شعره يتكلم عن خواطر الناس، وأنه ينتزع الطموحات، وكيف أن الناس عايشوا أبياته في حياتهم اليومية العادية، وبرهن على ذلك باستشهادهم بها كأمثال سائرة تضرب في العديد من المواطن، لما ارتسم فيها من الإيجاز في الكتابة، والإحكام في الكلام، وعصارة التجارب.

وتطرّق الطيان إلى ميزة أخرى غلبت عليه، وهي أن شعر المتنبي استطاع أن يحافظ على الهوية أو التراث أو الكينونة العربية، كونه عربيا حتى النخاع، غيورا على لغته. ثم ألقى بعض الأبيات التي تعرض تباكي المتنبي على ضياع هيبة الخلافة الإسلامية وضعفها، واللذين ترتب عليهما ميلاد ثورة عارمة في شعره كنتاج لما تمر به نفسه من ثورة ذاتية على الظلم والطغيان والاستكانة، فهو يأبى الذل، ولا يستسلم للهوان، ويرى أن الثمن غال ولا ينال إلا بالتضحيات.

١٠ طرق لمواجهة الإحباط واليأس

د. آندي حجازي
أكاديمية من الأردن

يتعرض الإنسان في حياته اليومية للكثير من المشكلات ومواقف الفشل أو عدم الوصول للنجاح المرغوب فيه، بالإضافة إلى تعرضه لظروف أقل ما يمكن أن توصف بأنها سيئة أو محبطة، فعلى سبيل المثال: ما نعيشه اليوم في عالم الواقع من خلافات ونزاعات عربية وأخبار يومية مؤلمة- والتي لا يُعرف منتهاها- يثير الكثير من مشاعر الحيرة والإحباط وفقدان الأمل، وكأن باب الأمل بات مغلقا، وأن ما بُني في سنوات كثيرة قد يهدم في لحظات أو أيام قليلة!

ولكن الرائي للواقع اليوم ينظر لما هو حاضر ولا يعلم ما هو آت، ولا ما يخبئه القدر له من أحلام وآمال قد تكون أفضل من الواقع، فعلينا التطلع للمستقبل بعين الأمل والتفاؤل بغد أفضل حتى لا نصل إلى مرحلة اليأس والقنوط من واقع مرير (النظر للجانب المليء من الكأس)، وعلينا أن نحاول رؤية عالمنا بأفضل مما هو عليه الآن، فنرنو ببصرنا لإشراقة فجر جديد، فجر تشرق فيه شمس التطور والتغيير، والعدل والتسامح، والنهضة والعمران، والأمل في الله بتغيير الحال.

إن مشاعر الإحباط للفرد تأتي من عدم النجاح والفشل المتكرر في مواقف متعددة أو متتالية، وعدم القدرة على فعل ما يريد، كأن يبحث عن عمل ولا يجد ما يناسبه لعدة محاولات متتالية، أو يحبط نتيجة عدم التوصل لحلول للمشكلات التي يواجهها هو أو مجتمعه، وليس الفرد فقط من يقع بالإحباط واليأس، بل أحيانا شعوب بأكملها تصل لحالة الإحباط.. فخروجها من مأزق ودخولها في مأزق آخر يتسبب في توليد مشاعر الإحباط واللاأمل.. ولكن الفشل وعدم تحقق الأهداف يفترض به أن يعلّم الإنسان مواقف جديدة للنجاح والتقدم نحو الأمام وتجاوز الواقع، فلا يرتكب الأخطاء نفسها، ولا يدع الزمان يكرر نفسه، بل يبحث عن حلول جديدة تعينه في واقع حياته، وفي تحسين ظروف مجتمعه.. فالناجح يرى من كل عقبة فرصة للتعلم والتقدم والنجاح، والمهزوم يرى من كل فرصة نجاح عقبة وإحباط!

لكي تقف من جديد بعد موقف تعثر وألم، وتخفف من آلامك وأحزانك ومشاعر الإحباط لديك؛ أنصحك بما يلي:

أولا: لا تنتظر الرحمة والعطف من الآخرين وتقديم العون لك؛ لأن هذا العون قد يأتي وقد لا يأتي، وهذا ينطبق على الشعوب كما ينطبق على الأفراد.. فلا أحد يشعر بما تشعر به من مشاعر، ولا أحد يستطيع أن يضع نفسه بالكامل في مكانك! فأنت المسؤول الأول والأخير عن نفسك، وعن نجاحك وفشلك، ونجاح وفشل بلدك! فالتغيير يبدأ من داخلك، والمعاناة قد تكون من ضرورات

التغيير أحيانا!

ثانيا: عليك بالجد والتعب والإصرار لتقف على أرض خصبة من جديد، فابحث عن حلول للمشكلات، ولا تقف عاجزا مهزوما أمام ما يصيبك، فادرس المشكلة من جميع جوانبها لتخرج بحلول إبداعية جديدة.

ثالثا: تذكر أنه قد يشاركك الآخرون في فرحتك بنجاحك وقد لا يهتمون بذلك! فإن شاركوك فاسعد بذلك، وإن حاربوك فتجاوز الوضع وكأن شيئا لم يكن، وإلا فإنك ستعود لدوامة الإحباط والفشل من جديد!

رابعا: حينما تشعر بالإحباط تحدث مع من تحب، ومن يحب لك الخير ومن يدفعك للأمام، فلا تجلس مع المحبطين والمهبطين للعزائم والمدمرين الذين لا يرجون لك الخير، حتى إن كنت تحسبهم من أعز أصدقائك أو أقربائك!

خامسا: لا تحاول الوقوف على كل كلمة جارحة أو موقف مؤلم.. وتجنب متابعة الأخبار المؤلمة والمحبطة (على القنوات الفضائية أو بالإنترنت) بشكل يومي إن كانت تسبب لك الإحباط، لأن بعض القنوات تتعمد إيصالك لتلك المرحلة من اليأس.

سادسا: حينما تمر على ذاكرتك مواقف الإحباط والألم والتي ستثير الانفعالات السلبية لديك، فحاول تغيير مجرى تفكيرك وذكرياتك.. فابحث عن ذكريات وأفكار سعيدة ومفيدة، بدلا من إغراق نفسك في دوامة الإحباط المدمرة لوضعك النفسي والصحي، وغيّر مكانك الذي تجلس به، ومارس أنشطة وهوايات تحبها.

سابعا: اعلم دوما أن الإنسان الناجح (والناجح فقط) هو من يتعرض للنقد والمحاربة ومحاولات الإحباط والتدمير.. فالبعض لا يحب أن يرى الآخرين بحال أفضل منه، أو يرى نجاحه بفشل الآخرين! فيعمل على محاربتهم، وتقويض نجاحاتهم بشتى الطرق! وما أكثر هؤلاء في زماننا! فلا تساعد أعداءك على تدمير ذاتك وتحقيق مخططهم، فتكون عدو نفسك، وتدمر إنجازاتك ونجاحاتك بنفسك وبأفكارك السلبية عن ذاتك وقدراتك! فركز على مصادر قوتك لا مصادر ضعفك.

ثامنا: عند الشعور بالإحباط والفشل جدد أهدافك وضع لنفسك خطة جديدة لتنفيذها وحاول التمسك بها ومتابعة تحقيق ما أمكنك منها، وعزز نفسك في حال نجاحك بتحقيق أحلامك وأهدافك.. فدائما خط بأناملك خطة جديدة تمحو بها إساءات الماضي.

تاسعا: تذكر أن الأنبياء والعظماء والعلماء تعرضوا للكثير من مواقف الإحباط والفشل، ولكنهم لم ييأسوا من رحمة الله تعالى ومن إمكاناتهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (يوسف: ٨٧)، فالأنبياء استمروا في طريق الدعوة بكل ما أوتوا من قوة لإيصال الرسالة التي كلفوا بها، ولولا قوة عزمهم لضاقت بهم الأرض بما رحبت ولتوقفت دعوتهم منذ اللحظات الأولى في مسيرتهم، فليس لك أسوة خير من أنبياء الله تعالى في صبرهم وتحملهم الأذى ومواجهة مواقف الفشل والإحباط وكيفية تجاوزها، فتأمل قصة نوح عليه السلام مع قومه الذين لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم ويذكرهم بالله، وما آمن معه إلا قليل! وتذكر قصص سيدنا محمد ﷺ مع قريش وعداءهم له وإيذاءه وإخراجه من بلدته، وتذكر قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وقصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وصالح عليه السلام مع قومه... لتأخذ العبرة وقوة التحمل.

عاشرا: إن اجتاحتك مشاعر الإحباط فعليك بالتضرع لله عز وجل بالدعاء وقراءة القرآن الكريم والصلاة، فإنك حتما ستجد بها ما يسليك ويخفف عنك ويعينك على الخروج من واقعك المؤلم ويوصلك لحياة أفضل وأفكار أجمل، فلا يملك تغيير الحال إلا رب الكون ومدبر الشؤون والأحوال. ولكن إياك والاعتراض على قدر الله تعالى وما كتب لك، لأنك لا تعلم المستقبل، ولا تعلم أين سيكون الخير، فقد يكون الواقع في ظاهره العذاب ولكن في باطنه الرحمة، فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

فتذكر مثلا عندما تعرض رسول الله ﷺ لموقف أليم محبط عند دعوته أهل الطائف حيث صدوه وآذوه وأخرجوا فتيانهم وصبيانهم ليرموا عليه الحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، فجلس على إثرها ملتجئا لله تعالى بالدعاء والمناجاة بكلمات عذبة منها: «...إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي...»، ففي قمة موقف الشدة والابتلاء تخرج كلمات التوكل على الله تعالى وطلب الرحمة منه، فتنزل على قلبه الطمأنينة وراحة النفس، ثم يبشره جبريل عليه السلام برضا الله تعالى، بل وباصطحابه في رحلة عليا مميزة فريدة.. رحلة الإسراء والمعراج لرؤية السموات السبع، ورؤية الجنة والنار، والدخول في عالم الغيبيات الإلهية بتقدير الله تعالى ورحمته، فلا رحمة أعظم من رحمة الله تعالى.

وأخيرا، اعلم أن بقاء الحال من المحال، فما تعيشه من إحباط وألم لن يدوم، وكلما ازداد الكرب والألم والضيق اقترب الفرج، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ (يوسف: ١١٠).. فعليك بالإصرار والعزيمة على النجاح والتغيير والوصول للمبتغى، فنقطة الماء كفيلة بأن تثقب الصخر إن قُرنت بالمداومة!

أستاذ الفقه المقارن في كلية الشريعة بجامعة الأزهر د. عبدالفتاح إدريس:

الإسلام دين ودولة.. وشريعته حاكمة

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية

أكد أستاذ الفقه المقارن في كلية الشريعة جامعة الأزهر، وعضو مجمع فقهاء الشريعة في أمريكا، الدكتور عبدالفتاح محمود إدريس، في حواره مع «الوعي الإسلامي» أن بمقدور المسلمين إعادة مجد حضارتهم ثانيا، إذا أخذوا بالأسباب التي أخذ بها سلفهم لتأسيس هذه الحضارة، مشددا على ضرورة تعاون الدول الإسلامية وتكاملها فيما بينها، في شتى مناحي الحياة لقيام نهضة إسلامية سلمية، وإلى نص الحوار..

• يموج المجتمع الإسلامي هذه الأيام بكثير من الفتن والضبابية.. فما تقييمك للوضع في الوقت الحالي؟

- لا ينكر أحد أن وضع المجتمع الإسلامي، في ظل المتغيرات الجارية من حوله، غير مستقر، باعتبار أن الدولة تعاني من قلاقل واضطرابات ونزيف داخلي، ينخر بنيتها التحتية، ومرتكزات اقتصادها وأمنها، فإذا ما تبدلت هذه الظروف يرجى أن يتحقق له ما يؤمله أهله.

• وما الأسباب التي أدت إلى تمزق العالم العربي الإسلامي لهذا الحد؟

- إن العالم العربي الإسلامي محفوظ طالما حرص أهله على مرضاة خالقهم. والله تعالى منحه نعما وثروات لم يحظ بها كثير من بلدان العالم، ولذا كان هدف الدول التي حرمت من هذا الخير، أن تنتهز الفرص لإحداث الوقيعة بين مواطنيه، بغية تمزيقهم وتشرذمهم، وإحداث الانفصال بين قطاعاتهم. وقد تحقق لها بعض ما تأمله، غير أن أكثر العالم العربي الإسلامي فطن إلى هذه المكيدة، ووجهوا طاقاتهم لإفشالها، حتى لا تؤتي ثمارها المبتغاة منها في الأمد القريب أو البعيد.

• يدعي البعض أن تخلف الأمة العربية على المستوى العلمي بسبب تمسكها بالدين والعكس بالنسبة إلى الغرب.. ما تعليقك؟

- ادعاء غير صحيح، لإن الإسلام يدعو إلى العلم والإجادة فيه، وفي التشريع نصوص كثيرة تحض على العلم وتحفز على الإجادة والتفوق، وإن أول آية نزلت تدعو إلى القراءة، التي هي آلة العلم، قال الحق سبحانه: ﴿.. يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة:١١). واعتبر الله تعالى أن العلم والنبوغ سببان للخشية منه تعالى، وكلما ازداد المسلم علما ازدادت خشيته من الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر:٢٨). والأمة العربية ليست في مصاف الدول المتخلفة في العلوم، بل هي من الدول المتقدمة علميا، قديما وحديثا، وإن الكتب التي ألفها علماؤها قديما في الطب والرياضيات والفلك والهندسة وغيرها، هي التي أزالت الأمية العلمية لأهل الغرب في زمن لم يكن لديهم فيه ما يمحو أميتهم، ولم تعدم الأمة الإسلامية في حاضرها علماء يشار إليهم بالبنان في المحافل الدولية، وتتحني هامات العلماء في العالم إكبارا وإجلالا لما وصلوا إليه من علم.

• هناك جدل حول كون الإسلام دين أمة أم دين دولة.. في تقديرك ما الفرق بين الوصفين؟

- الإسلام هو دين الأمة ودين دولتها كذلك، باعتبار أنه الدين الذي يجب على الأمة أن تدين به، وهو دين دولتها بحسب أن شريعته يجب أن تكون هي الحاكمة على كل ما يتم فيها، وأن

تساس الدولة بهذه الشريعة، وأن تظهر شعائر هذا الدين وشريعته في كل أرجاء هذه الدولة، ولأن الإسلام هو دين الأمة فيلزم منه أن يكون دين الدولة. وكون الأمة مسلمة، بينما الأنظمة التي تحكمها ويتحاكم إليها الناس وتسير عليها وتيرة حياتهم غير إسلامية، فهذا لا يسوغ إقصاء دين الأمة عن دين الدولة.

● إلى أي طريق تسير الأمة الإسلامية في ظل التحجر الفكري الذي نعاني منه الآن؟

– لا يوجد تحجر فكري من الأساس حتى تعاني منه المجتمعات الإسلامية، فهذه الأمة منفتحة على كل الثقافات والمعارف العالمية وحضارات دول العالم، ويوجد تلاقح بين الأفكار في العالم الإسلامي وغيره، ولا يوجد تحجر إلا لدى بعض المغلوبين على أمرهم، ممن لا يقبلون فكر أحد، ولا يسمحون لصاحب رأي أو فكر بإبداء رأيه أو فكره في حضورهم، لأنهم تألهوا في أزمنة سابقة. وهؤلاء لا وزن لهم، ولا يبالي بهم أحد، ولا يعبأ بفكرهم أو رؤيتهم، لأن الزمن تجاوزهم، فلم يعد لهم وجود في واقع الحياة، ولا تأثير لهم فيه.

● متى يستطيع المسلمون أن يعيدوا ثانيا مجد حضارتهم؟

– باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك إذا أخذوا بالأسباب التي أخذ بها سلفهم؛ لتأسيس هذه الحضارة، إذ لم تكن هذه الحضارة مؤسسة على المال حتى يقال إن نقص الإمكانات المادية يحول دون ذلك. ولم تكن مؤسسة على القوة والقهر والغلبة، حتى يقال إن المسلمين تنقصهم القوة فضعفوا عن قهر غيرهم أو التغلب عليه. ولم تكن قائمة على الحيل، حتى يقال إن المسلمين لا يملكون وسائلها. إنما قامت هذه الحضارة الزاهرة، التي أذهلت العالم، شرقا وغربا، على الإيمان بالله تعالى، وأن دينه هو الدين الحق الذي يجب أن يسود الدنيا وأهلها، وأن ما يبذل في سبيل إظهار هذا الدين وإقناع الناس باعتناقه مرده إلى المعتقد، وأن كل ما

أمتنا منفتحة على كل الثقافات والمعارف العالمية وليست مصابة بتحجر فكري

يعمله المرء يجزى عليه. ولذا تفانى سلف الأمة في أن يكون لهم الريادة، ولحضارتهم الازدهار والرقي، وأن يكون لدينهم السيادة في العالم.

● مع التغيرات التي تشهدها بعض البلدان العربية يروج البعض لما يسمى بالدولة الدينية، ويبدون تخوفهم منها.. فهل لها وجود حقا؟

– إذا كان المقصود بالدولة الدينية تلك التي يقوم نظامها على الإسلام، وتحكم بشرعته، وتظهر فيها أحكامه، فما الذي يخيف الناس من ذلك، إلا أن تكون رغبتهم في التنكب على شرع الله تعالى، كما هو حادث في بعض بلاد الإسلام، فلا ينالهم حكم الإسلام، لتكون النتيجة المحتومة لذلك أن يبيض الفساد ويفرخ فيها، فتنتقل العدوى منها إلى غيرها، فيصير جسد الأمة مسرطنا بهذا الفساد. ألا وقد جربت بلاد الإسلام هذا الفساد الناشئ عن مدنية الدولة، فلتجرب الصلاح المتوقع على اصطباغها بشرع الله تعالى، منهجا وسلوكا. فإن البدن المريض إذا لم يُجد معه نوعٌ من الدواء، شرع في استبدال غيره به، مما يغلب على الظن برء هذا البدن به.

● ما الآليات اللازم توافرها لقيام نهضة إسلامية؟

– هناك عدة آليات مهمة لقيام نهضة إسلامية؛ أولها: تعاون الدول الإسلامية وتكاملها فيما بينها، في شتى مناحي الحياة، بما تملكه هذه الدول في مجموعها من ثروات بشرية وصناعية وزراعية ومعرفية، ونحوها؛ لتتحقق بها هذه النهضة، وأيضا لا بد من تفعيل دور منظمات العمل الإسلامي بحيث يتحقق المتغيب من سبب قيامها، وتبادل الخبرات المعرفية في شتى العلوم بين الدول الإسلامية، إضافة إلى استغلال البعد الاستراتيجي لهذه الدول، وموقعها الجغرافي، وثرواتها البشرية والطبيعية، وغيرها، ليكون لها الثقل والتأثير والدور الفاعل في المنظمات الدولية، وأن يكون لهذه الدول مجتمعة مؤسسات تمثلها جميعا، تعنى بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والأمنية، ونحوها، وتحقق توحيد وجهة هذه الدول أمام التكتلات العالمية.

● هل يمكننا الدخول في ثورة معرفية وثقافية بعد ثورتنا السياسية لتحقيق حداثة دينية؟

– هذه الثورة بدأت بالفعل، وصار للعالم الإسلامي دور فاعل فيها. والحداثة الدينية لا تفتقر إلى هذه الثورة المعرفية، فالدين الإسلامي دين مرتبط بالواقع، يتأثر به ويؤثر فيه. ولعلنا نلمس هذه الحداثة في تغير الفتوى والحكم الشرعي بتغير الزمان والمكان والأحوال والأشخاص، ووجود فقه جديد الآن يتخذ من قضايا العصر مادة له، ولا يكاد يوجد موطئ قدم لمن ظل متشبثا بالقديم يخرج منه ويعود إليه ويدور في فلكه.

● اللغة هي أحد المكونات الحضارية المهمة لأي أمة.. فما أسباب إهمال اللغة العربية في مجتمعنا العربي؟

– لغة الأقوى هي الغالبة، واللغة العربية في زماننا هي لغة الذين يعانون بعض الضعف من عدة جهات، اجتماعية واقتصادية وسياسية وأمنية، ونحوها، ولما كانت اللغة مرتبطة بالقوة المهيمنة على مجريات الأمور، وكانت الدول التي تتصف بذلك غير عربية، كان من المنطقي أن تكون للغتها السيادة والاهتمام، وجاء هذا على حساب اللغة العربية، لغة التشريع والعبادات والقربى، واللغة التي خاطب بها الوحي الإلهي نبي هذه الأمة.

● وما الأسباب التي أدت إلى تنامي الإسلاموفوبيا؟

– الأسباب تكمن في حب الناس لهذا الدين، وما يشتمل عليه من مثل تستريح لها النفس، وتسمو بها وتتسق

مع السلوك السوي الذي يحترم إنسانية الإنسان، دون النظر إلى معتقده وفكره وانتمائه وجنسه. ولذا، أقبل الناس على هذا الدين ينهلون من تعاليمه، ويؤمنون بما فيه، ويذعنون لها، فأوغر هذا الصنيع صدور غير المسلمين على هذا الدين ومن آمنوا به. ومن العجب أنه كلما أوقدوا نارا لصد الناس عن هذا الدين أطفأها الله سبحانه، وأتت برد فعل غير متوقع، وهو زيادة معتنقي الإسلام كلما زادت الدعوة إلى نبذه والبعد عن تعاليمه ومبادئه.

● هل ترى أن الغرب يدير صراعا خفيا على الإسلام تحت زعم الحريات وحقوق الإنسان؟

– هذا أمرٌ لا يُنكر، ويظهر جليا في تطاول السفهاء والسوقة فيه على رموز الإسلام، وتسفيههم معتقدات المسلمين، وهذا الاضطهاد المستمر للمسلمين في أي دولة من دول الغرب، بل إن هذه البلاد لو كانت تنادي بالحرية لتركت المسلمين فيها يمارسون شعائر دينهم وأعمالهم من دون مضايقات بسبب معتقدهم، ويتجولون بحرية في بلادهم، لكن القوم هنالك يعادون الإسلام والمسلمين من دون سائر الديانات الأخرى وأتباعها.

● علاقة الغرب بالإسلام، والإسلام بالغرب.. كيف توصِّفها الآن، لا سيما في ظل اضطراباتها الأخيرة؟

– غير المسلمين في بلاد الغرب يبغضون الإسلام وأهله في بلادهم وفي غيرها، باعتباره الدين الذي يدعو إلى الفضيلة والتحلي بمكارم الأخلاق، وجل من لا يدينون بالإسلام من أهل الغرب لا دين لهم، حتى وإن أظهروا أنهم يدينون بالنصرانية، فهم متحللون من كل تكاليفها، وأما علاقة الإسلام بالغرب فهو الدين الذي آمن به بعض الغربيين، ومن المتوقع في القريب أن تكون لأتباعه الغلبة في هذه البلاد. ولذا، كان التصرف الأحمق للمبغضين له، حتى لا يكثر أتباعه ولا تكون لهم الغلبة، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

● هل ترى أن حالة الكراهية والاحتقان التي نشهدها ضد المسلمين من الممكن أن تتغير؟

– هذه الحالة ستستمر أمدا غير محدود، ولكنها ستنحسر إذا كثر المسلمون في البلاد التي هم فيها، وكان لهم نوع من الولاية في مؤسسات هذه الدول، كالعضوية في حكوماتها، أو برلماناتها، أو مجالسها، أو كان لأنشطتهم التي يمارسونها تأثير على مناحي الحياة هناك، أو نحو ذلك، فإن من شأن ذلك أن ينزع سخيمة البغض من نفوس المرضى من أفراد هذه المجتمعات.

● يرى البعض أن المرأة المسلمة تعيش حالة من الإحجام على عكس ما تمتعت به في صدر الإسلام.. ما سبب ذلك؟

– نظرة هذا البعض قاصرة، فلا يوجد إحجام من أي امرأة في العالم الإسلامي عن القيام بدورها الفاعل في حياة الناس، بعد أن صارت حواء في كل المجتمعات الإسلامية –بلا استثناء– تمارس الأعمال المختلفة، تعليمية وطبية واقتصادية واجتماعية وشرطية، بل وعسكرية، فضلا عن مشاركتها في الحكومة، والحياة السياسية، والتمثيل الدبلوماسي، والقضاء، فلا يصدق على حالها بعد إفساح المجال لها في كل هذه الأنشطة ومشاركتها فيها، أنها ما زالت تعيش حالة من الإحجام.

● كيف يمكن أن نرسخ مفاهيم التسامح وقبول الآخر والتعايش السلمي بين أبناء الوطن الواحد؟

– ترسيخ هذه المفاهيم يكون من خلال نبذ العنف، واحترام نظام الدولة، ومؤسساتها، ورموزها، وأهل الحل والعقد فيها، وعدم الاعتداء على الأنفس والأموال والممتلكات، وعدم اختلاق المشكلات مع الآخرين.

● كونك أستاذ الفقه المقارن في كلية الشريعة والقانون.. إلى أي مدى ترى أهمية ذلك العلم في فهمنا لتطورات الواقع مع الإبقاء على ثوابت الشرع؟

– من الخطأ البين أن يدرس الفقه المذهبي بمعزل عن فقه المذاهب الأخرى. والمطلع على الفقه المذهبي يجد بين صور هذا الفقه ما يكون لأصحاب المذهب فيه رأي لا يمت إلى الإسلام بأدنى صلة، بل إن بعض الآراء الفقهية يدعو إلى الشطط الفكري، ويناقض مناقضة صريحة نصوص الشرع مما تعد نصا في حكم المسألة، وإظهار هذه الآراء على غير المتخصصين قد يفتنهم في دينهم، ويزلزل معتقدهم، بل ربما أوجد في نفوسهم شيئا من الريبة، وقد أمضيت قرابة نصف قرن بين سطور هذا الفكر الإسلامي، دارسا ومدرسا وباحثا وكاتبا ومناقشا ومعقبا، فألفيت أن دراسة الفقه مقارنة بين المذاهب الإسلامية هي السبيل الأقوم لفهم سبب اختلاف الفقهاء، وأسس هذا الخلاف، والوقوف على أرجح الآراء في كل مسألة خلافية.

● ما تقييمك للأزهر عبر التاريخ وفي الآونة الأخيرة؟

– الأزهر الشريف كان، وما زال، صرح الإسلام المنيع، ومنهجه الوسطي هو المنهج الذي قام عليه الإسلام، ولا يكاد يوجد أحد في شرق الدنيا وغربها إلا وتتلمذ على أعلامه أو أفاد من كتبهم ومؤلفاتهم وعلمهم، فدوره رائد في العالمين، وشمس الأزهر لن تغرب بإذن الله تعالى، وسيظل منارة العلم الشرعي لكل قاصد له. ودوره في الوقت الحاضر كدوره في ما مضى.. علماؤه شموس المعرفة، وضياء البشرية، أينما حلوا عرف قدرهم، ومحتوى علمهم، لا يملون من الدعوة إلى الحق، ولا يخشون في الله لومة لائم، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. وإن عطاء الأزهر لا ينضب، ولذا قصده طلاب العلم من كل حدب وصوب، رغم ما تعانيه دولته من بعض الاضطرابات، غير أنها لم تثن طلاب العلم من شتى أنحاء العالم عن الحج إليه، رغبة في التزود من معارفه.

أب فقد معناه

محمد عبدالقادر
كاتب مصري

كانت حروفها باكية كأنها قد عجنت بدموعها، حين تستمع إليها فكأنك تستمع إلى قلب مذبوح ينطق بشفتين!

قالت: ما أظن فتاة على وجه البسيطة قد اكتحلت عيناها مثلي بالأسى، لقد أسقمتني الهموم وأذابتني حتى كأنها محدودة بي من كل ناحية، قلت: أفصحي قالت: إن أبي- هداه الله- ينظر إلي على أنني سلعة وليس فتاة، بل وابنة له، فكلما تقدم لي شاب يملك من نفسه همة الشباب، ومن دينه أمانة وخلقا رفضه أبي بحجة أنه متوسط الحال، فهو لا يملك ما يملكه أبي من ثروة، ولم يكن في نظره إلا أحمق قد تطاول فقره على ثروة أبي، ثم لا يلبث أبي أن يعرض عن الشاب إعراضا يشعره بالطرد، فيخرج منكسرا على أنه لا يعيبه إلا عيب واحد لا تراه إلا عين واحدة هي عين أبي، كم لمحت له على استحياء، وصرحت له أمي، لكنه لم يفلح معه تلميح ولا تصريح حتى تجاوزت الثلاثين من عمري وأنا أشرب حزني، أرى الناس من حولي يعيشون ثم يموتون، وأنا وحدي التي جاءت الدنيا لتعيش سكرات الموت ثم تموت، فالموت بالنسبة لكل الناس واحد وموتي متكرر! ضاقت بي الدنيا ومللت حياتي، ورحت أسأل الله الموت لأستريح من همي وغمي، لكني لم أجد الموت! قاطعتها وأنا أرى دموعا تسقط من عيني ما استأذنت إلا رفقا بنيتي بقلب شيخ كبير تكاد كلماتك أن تفتك به وتقطع حصونه، توقفت الفتاة عن الكلام، لكنها لم تتوقف عن النشيج، عندها شعرت بعاطفة الأبوة تتحرك في كل ذرة من ذرات كياني، كدت أن أقول لها: ما أملك لأبيك أن نزع الله من قلبه الرحمة، لولا أني خشيت أن يحملها قولي إلى ما لا يحمد عاقبته، عدلت عن هذا القول، ورحت أسمعها كلمات طيبة، وأنا أثق أن كلماتي وإن خففت شيئا من آلامها، لكنها أبدا لن تزيلها اللحظة الوحيدة التي تمنيت أن أجمع آباء الدنيا فأسألهم الواحد بعد الآخر هل أنت على ما قالت؟ يا إلهي ما أعجب أمر هذا الأب الذي لطالما سأل ربه الولد، فلما كان له ما تمنى إذا به يئده حيا: بيده، ألا ما أشد ظلم الأب عندما يستعذب عذاب ابنته، ويغض الطرف عن مطالب فطرتها، فإذا هو يفعل بها كما يفعل تاجر الجواري في سوق النخاسة، يقدم فلذة كبده لمن يدفع أكثر أو يعود بها إلى البيت منتظرا من يروي غلته ويشبع نهمه، لا يبالي بمشاعر ابنته وحسرتها، فإذا هي تتأوه تأوه المذبوح فتذبل ثم تذبل ثم تموت، أو تعيش وهي تنظر إلى أبيها نظرة المظلوم إلى ظالمه اللهم غفرا غفرا.

لقد وضع الله في الأب عاطفة فطرية تجعله محبوبا من أبنائه، لأنه دائما ما يقدم لهم أسباب محبته من رصيد تلك الفطرة، فمن أين جاء هذا الركام ليغطي صفاء الفطرة وروعتها؟ حتى غدا بعض الآباء يحرمون بناتهم حقوقهن مقابل أن يملأ الواحد منهم حجره مالا، ومعه يفقد معناه الجميل، ليصبح في عيون من حرمهم لا يزيد عن قدر هذه الوردة التي ذبلت، فهي لا تزيد عن مجموعة من القش مجتمعه.

إن الدنيا بجميع زخرفها وزينتها لا تساوي نظرة راضية من الفتاة لوالدها ليلة عرسها تبتسم في سعادة، فلا يدري الأب إن كان قلبه في جسده أم راح يشاركها ركب سعادتها، تحتضنه مودعة، ومعه تودع عالمها الصغير إلى عالم أكبر قد رسمت خطوطه بأحلامها، وصنعت معانيه بيدها مع رفيق دربها، إنها ابتسامة مشرقة تعطي للأب معناه، وتغمر قلبه سعادة، تلك السعادة التي يقولون عنها إنها الدنيا التي هي أوسع من الدنيا.

التفوق الدراسي.. فن المنافسة على القمة

منى السعيد الشريف
باحثة في الشؤون التربوية

الواقع العملي لا يعترف إلا بنوابغ المجتمع، فالكل بالإجماع يسعى صوب الطبيب الأمهر والصانع الأجود والخبير المحنك.. لذلك كان التفوق مطلب أصحاب الهمم العالية الذين يبحثون عن مكان راق في الحياة، يحدوهم الإصرار على التميز وعدم الاسترسال مع مطبات وعقبات الطريق، خاصة أن نصف درجة يمكن أن تغير مسار حياتهم وتهبط بهم في كلية قد لا يرغبونها، وعلى أعتابها تتحطم آمالهم وطموحاتهم.

إن التفوق الدراسي بات عملية ممنهجة ومنظمة، تتبع العديد من البرامج والتوجيهات، ولا تعتمد فقط على عامل الذكاء وحده، بل هو منظومة متناسقة من ترتيب الأولويات واستخدام للقدرات الذاتية والبيئية من أجل الوصول لقمة التفوق، وما أجملها من قمة، وما أعظمها من رحلة، تشوبها محن، لكن عبق ثمرتها يفوح وشذاها يدوم.

– التطلع إلى شرف الغاية: واعلم أن كل عمل امتزج بالإخلاص فهو قرين النجاح والفلاح، والإخلاص يهون مصاعب الطريق، فبين السفح والقمة مشوار طويل وتعب وكد وكفاح ومشقة ومثابرة، وصبر على الانكسارات التي ربما تفوق في عددها الانتصارات، ولن يأتي النصر لمن لا يصبر على بلائه ويواصل اجتهاده في عمله.

– الدراسة بالأساس مسألة دافع ذاتي، فإن وُجد هذا الدافع لدى الطالب كانت العملية التعليمية تسير بالطريق الإيجابي والمتميز.. اجعل نفسك في حالة نجاح مستمر، وفكر بالتميز دائما، وثق بنفسك أنك تستطيع أن تحصل على المركز الأول، ولا تحتجّ دوما بالعقبات.

– تحقيق التوازن بين العلم والعبادة: فلا خير فيمن يجتهد في طلب العلم ويفرط في العبادة، لذا يجب تحقيق التوازن بين الأمرين، يقول الإمام الحسن البصري: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ (يعنى الخوارج)، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا».

ولابد أن تكون صحيح العبادة، فصحة العبادة طريق الصلاح والفلاح والسعادة، وهي علاج القلق والاكتئاب والحيرة وقلة الحيلة، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الزخرف: ٦٨)، فأد الفرائض، واستزد من النوافل، واجتهد في قراءة القرآن الكريم، وجاهد نفسك عن المعصية إلى الطاعة.

– عادة يكون البدء في المذاكرة عسيرا، لذا يستحسن البدء بأعمال روتينية، كمراجعة درس سابق أو استكمال نقل درس ناقص.. تكون هذه التمهيدات بمثابة استعداد وشحذ على المذاكرة.. ومن المهم استغلال بواكير الصفاء الذهني في مذاكرة الدروس الصعبة، وترك المواد السهلة في نهاية فترات المذاكرة حيث لا يبذل الذهن المكدود كثير عناء في الاستيعاب والتحصيل.

– النفس بطبعها ملولة خاصة مع العادات اليومية ومنها المذاكرة، فحاول دوما التجديد في طريقة المذاكرة من الكتابة إلى الشرح الذاتي بصوت مرتفع نسبيا مع المشي في الغرفة، أو استخدام الرسوم، أو عمل تلخيص للموضوع، وأيضا تغيير أماكن المذاكرة سواء في البيت أو

حتى الذهاب إلى بعض الحدائق أو شاطئ البحر إن تيسر ذلك، ولا تنزعج من النسيان فهو أمر ضروري، ولابد من المراجعة أكثر من مرة لتترسخ المعلومة في ذهنك.

– حافظ على وقتك ورتب أولوياتك، ولا يفوتك البكور وبركته، واحذر من معوقات الوقت ولصوص الطاقة (الزوار والطفيليون، التسويف، عدم التنظيم، الانشغال بأهداف فرعية أو ثانوية، المشاكل العائلية).

– إن كنت تعاني من ضعف الذاكرة أو مشكلة النسيان فاحرص على: المذاكرة كتابة لا مشافهة– احذر من الحفظ دون الفهم– اختتم مذاكرة الدرس بحل أسئلة عليه، فهذا من شأنه أن يرسخ المعلومات في ذهنك، ويدربك فعليا على أجواء الامتحانات.

– دعائم الذاكرة الجيدة ثلاث: التكرار– الربط والخيال– التنظيم.. وإياك أن تربط بين عدد الساعات وحصيلة الاستيعاب، لأنه لا علاقة بينهما.

– التسميع (شفوي أو تحريري) هو مرآة الذاكرة، وخير دليل على اختبار مدى رسوخ المعلومة في ذهنك، فهو يكشف لك مواضع ضعفك والأخطاء التي تقع فيها، كما أنه الوسيلة القوية لتثبيت المعلومات وزيادة القدرة على تذكرها لفترة أطول، فالطالب الذي يذاكر من دون تسميع ينسى بعد يوم واحد، ومعدل ما ينساه الطالب الذي يقوم بالتسميع يبدأ بعد ٣٥ يوما.

– لا تذاكر وأنت مرهق، ولا نعسان، ولا مشغول الفكر، ولا في الضوضاء، ولا مع المجموعة، ولا في الضوء الخافت، ولا في مكان رديء التهوية، ولا وأنت جوعان أو متخم بالطعام، بل ينبغي أن تكون المعدة بين الشبع والجوع.

– تحضير الدرس مسبقا من شأنه أن يجعل الدرس مجرد تعزيز للمعلومات في ذهنك، ويفعل المشاركة أثناء الشرح مع المعلم، ويستجلب الانتباه له، وسؤاله عن النقاط الصعبة في الموضوع، وقد قيل لابن عباس– رضي الله عنهما: «بمَ تحصلت على هذا العلم؟» فقال: «بلسان سؤول، وقلب عقول»، وكل هذا من شأنه أن يرسخ المعلومة في الذهن لتناولها بطريقة المعايشة، فضلا عن اختزال الجهد المبذول في المراجعة خاصة أوقات الامتحانات.

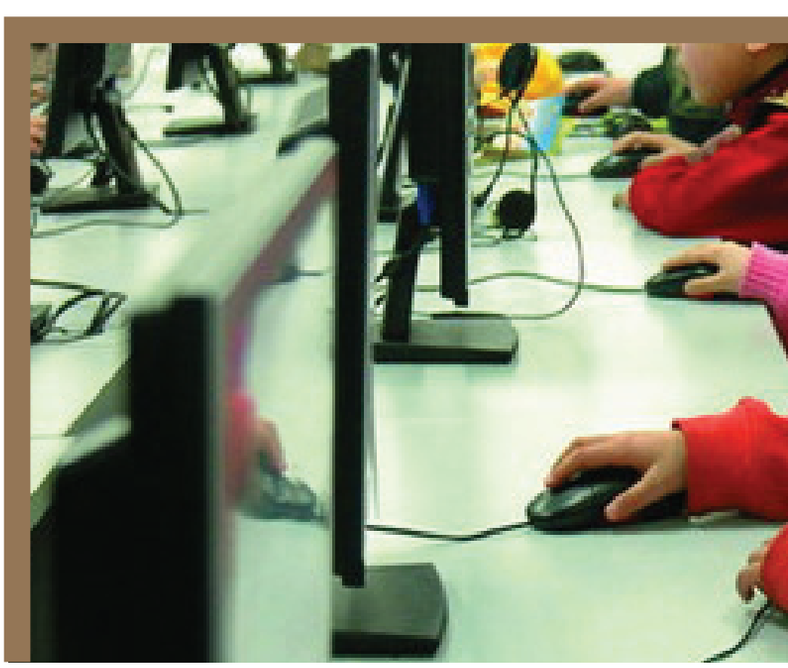

– الدراسة الاستنباطية من أمتع طرق الدراسة، فهي دعامة التفوق والإبداع، وهي تتمحور حول تحليل المعلومة والوصول إلى النتائج، ليس بالطريقة النمطية والطرق المملة والعقيمة، هذا مع ما يكتنفها من الشعور بالمتعة بتحليل المعلومة.

– عليك بالتزود بمعلومات أكثر من مجرد قراءة الكتاب المقرر، وتفهمها بعمق استعدادًا لأي تحليل أو استنتاج أو تطبيق خارج عن التمارين الموجودة في الكتاب المقرر.

– في الفصل الدراسي احرص على الجلوس في المقدمة حتى تصبح بمنأى عن مشوشات الزملاء، حيث يكون المدرس قريبا منك، فكلما ابتعدت عن المدرس زادت فرصة انشغالك، لأنك ستجد عشرات الرؤوس حولك مشاربهم شتى، أما في المقدمة فستجني كل الفائدة، كما ستعطي انطباعا خاصا للمدرس بأنك هنا لتنصت وتتعلم، لا لقضاء الوقت فحسب.

– ابحث عن صديق بارع تنافسه، فالصاحب ساحب، والمنافسة الشريفة تؤجج الهمة، وتقضي على بواعث الكلل والملل.

– خصص وقتا مناسبا لممارسة الرياضة وهواياتك، وللتنزه وممارسة بعض الأنشطة المدرسية، فهذا يريحك نفسيا ويبعث فيك أملا جديدا، واعلم أن من لا يجيد فن الراحة لا يجيد فن العمل.

– كل العائلات مهما كان دخلها أو مستواها التعليمي والمادي والاجتماعي تستطيع أن تتخذ خطوات محددة وواضحة من شأنها أن تساعد الطالب على التعلم بصورة متميزة، وهو ما يعرف بـ«عملية الاستغراق» أو «المشاركة الإيجابية» للوالدين، ومن أشهر أبجديات هذه العملية:

– الحرص على تنمية الحوار مع الأبناء من أجل التعرف أكثر على دواخلهم ومشاكلهم، بل ميولهم وتوجهاتهم وأحلامهم، وبالتالي تحديد طبيعة الدعم البناء الذي يمكن أن يقدماه له.

– متابعة أدائهم الدراسي ومشاركتهم فيه، كحل بعض الواجبات سويا، وتسميع المحفوظات وشرح المفردات الصعبة.

– إقامة حدود واضحة داخل البيت، كتنظيم أوقات الاستذكار والفراغ واللعب، ومتابعة طريقة قضاء الأطفال لها.

– خلق بيئة محفزة ومساعدة داخل البيت، وتجنب مصادر الضوضاء وأماكن وجود التلفاز والكمبيوتر وسائر ما يلفت انتباه الطالب، أو يشتت تركيزه.

– من المهم كآباء ومربين أن لا نرسل رسالة سلبية لأبنائنا مفادها أن مكانتهم وقيمتهم لدينا مقرونة بالمجموع الذي سيحصلون عليه نهاية العام، وإنما ينبغي أن تكون المكانة الحقيقية مقرونة بمدى ثقافتهم واستفادتهم ونظرتهم للعلم بحد ذاته كقيمة عليا في الحياة والمجتمع، وبذلك نمكنهم من محبة الدراسة، وتحقيق نتيجة باهرة متميزة من منطلق ذاتي مفعم بالمحبة للعلم وتوقير أهله.

الطفل.. بين الكذب والخيال

صبحة بغورة
كاتبة جزائرية

الطفل هو تلك الصفحة البيضاء التي تقع على الأهل مسؤولية الحفاظ عليها وطريقة العناية بها وبرمجتها؛ لكي يصبح الطفل فردا فعالا في مجتمع متطور. وطبعا يحتاج كل طفل إلى عطف والديه وحنانهما، كما يحتاج إلى أن يعتمد على نفسه في كثير من المواقف، وأن يتصرف كفرد له حقوق يجب أن نحترمها جميعا. لكن بعض الأطفال يلجأون إلى الكذب، لأنهم في مرحلة معينة، تمتد من ثلاث سنوات إلى اثنتي عشرة سنة، وهي مرحلة خيالية، يبنون أقوالهم على أحلامهم، مما يضطرهم إلى اختلاق حالة من الواقع الكاذب بالنسبة إلينا، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأن أولادنا يكذبون، لكن الحقيقة مغايرة تماما، ولهذا علينا أن نفهم أولادنا.

إن تأليف القصص في هذا العمر أمر طبيعي، والطفل يخترع هذه القصص من أجل المتعة، ومن دون أن نشعره بالذنب علينا أخذ عنصرين بعين الاعتبار: أولا، وظيفة الكذب. وثانيا، استمراريته وتطوره.

فالكذب عند الطفل ملكه الشخصي ورغبته في ألا يقول كل شيء. وهو في هذه المرحلة لا يملك القدرة الذهنية لتمييز العالم الحقيقي من الخيالي، وتطور النطق السريع لهذه المرحلة يوضح لِمَ يستمتع باختراع وتأليف القصص أمام الآخرين. لكن في الثامنة من العمر يميز الطفل بين الصح والخطأ في محيطه، وهذا أمر طبيعي في مجرى التطور الأخلاقي عند الإنسان. ففي مثل هذا العمر تترسخ الأخلاق والقيم الاجتماعية، ويتعلم الطفل أن قول الحقيقة شيء مرغوب فيه اجتماعيا. ومن ناحية أخرى، يتعلم أن الكذب قد يساعده في الدفاع عن نفسه في مواقف معينة. في الطفولة تعتبر هذه الأكاذيب طبيعية، فالطفل لا يميز عالم الواقع من الخيال فهما مندمجان عنده، لأن الوعي الأخلاقي لم يتشكل لديه. وهذا النوع من الكذب يزول عندما يكبر، لكن كثيرا من الأسر لا يستطيعون التمييز بين حالتي الكذب والتخيل والفروقات الكمية والنوعية بينهما، مما يولد عندهم ردود فعل متناقضة، في طبيعتها ونتائجها.

«طفلي يكذب».. هذه صرخات نسمعها كثيرا من قبل الأمهات اللواتي يعانين من كذب أطفالهن، والطفل بخياله ينسج قصصا وحكايات هو البطل في أغلبها والضحية، وهن يعتبرن قصصه نوعا من الكذب والسلوك الخاطئ الذي يستحق عليه العقاب أو عدم الاهتمام بما يقوله، أو التعامل معه بطريقة سلبية، بمعنى توجيه اللوم إلى الطفل كشخص لا توجيهه إلى سلوك الطفل بأسلوب دافئ محبب يشجعه على تنمية توجهات داخلية قادرة على إكساب شخصيته مبادئ السلوك الإيجابي وأساسياته. إن تقبل الوالدين لطفلهما يعد مصدرا من مصادر تقبل الطفل للمعايير الأخلاقية والأحكام الاجتماعية المقصود توصيلها إليه من أجل بناء شخصيته بناء سليما.

والحقيقة التي لا يعرفها البعض أن هذا الخيال الطفولي ما هو إلا لبنة أولى في بناء شخص قاص أو مؤلف أو روائي، أو نتيجة الخوف والانتقام والتجاهل من جانب أسرته وعالمه الصغير.

المشكلات السلوكية التي تطرأ على بعض الأطفال غالبا ما تكون

بحاجة إلى معالجات حكيمة من طرف الأسرة. فالطفل في سنواته الأولى، وتحديدا عندما يبدأ الكلام ويحرك عينيه تجاه الأشياء المرئية والمسموعة، يستطيع أن ينتج شيئا ما. ومشكلتنا أننا نقيّم هذا الشيء بعقولنا -نحن الكبار- على أنه كذب وضرب من المبهمات لا يستحق أن نوليه أي اهتمام أو تأمل، من دون أن ندرك أن هذا الطفل يعيش مرحلة استهلاك عالمه بجميع ما أوتي من إمكانات، حسية وحركية وإدراكية، كي يتعارف على ما هو غامض بالنسبة إلى عقله. قد نراه يتحدث ويلعب مع الحيوانات الأليفة، وقد نجد الفتاة تشتكي لدميتها قساوة والدتها، وكثيرا ما نقابل هذه الأمور -للأسف- بنوع من الاستهجان والاستخفاف واللامبالاة، وهو أمر ينعكس بالسلب على الطفل، لأن أحدا لم يشاركه عالمه الصغير، وكثيرا ما يراها الكبار أوهاما وخرافات يقصها أطفالهم عن مغامراتهم الخيالية أو أفعالهم المعجزة، متناسين، في الوقت نفسه، مغامراتهم الخيالية التي كانوا يقومون بها في فترة طفولتهم.

إن الطفل الذي يحكي عن مغامراته حين استطاع أن يوقف انحدار السيارة من منعطف خطر بقوة عضلاته، لا ينبغي، بحال من الأحوال، أن يقابل الكبار خياله بالسخرية، فهذا سينتج عند الطفل شخصية ساخرة، مما يحولها في المجالات العملية إلى متهكمة في واقعها الاجتماعي، مستهترة، غير مبالية بما يحيط بها من مشكلات حياتية متنوعة.

تتكون لدى الطفل عادة ملامح مغامرات يندمج فيها مع صورة الطفل في قصص الجدات المسائية بحيث لا يستطيع الانفصال عن هذا العالم الثري الذي يشبع فضوله ويرضي غروره، ويحمله إلى عالمه الساحر، الأمر الذي يجعل من هذه الحكايات منعكسات يومية لتصرفاتهم وقصصهم عن وقائع حياتهم الحافلة بمواقف البطولة والحب والخير ومساعدة الآخرين، خصوصا مع اتساع العصر بدخول الكمبيوتر والإنترنت وبرامج الأطفال، وهي بها من عوامل الجذب والتقليد أكثر من عوامل التخلق بالمبادئ والمثل العليا، بمعنى أن الطفل في هذه السن لا يعي معنى المبادئ والأخلاق، فكيف نكذبه من دون أن يعرف الصدق وعواقب الجنوح عنه؟ فهو يحكي ويتحاكى ويدخل الماضي في الحاضر لكي يخرج في النهاية بقصة رأى نفسه بطلا بداخلها كي ينال من والديه كلمة إعجاب أو ثناء أو هدية، إذ الخيال في مرحلة الطفولة المبكرة هو أمر لا بد منه، بل ومفيد إن أحسنا معايشته مع أطفالنا بالإصغاء والتنمية بعدة وسائل، منها الرسم والموسيقى والرياضة والكتابة والقراءة، على قدر استطاعته، وتهيئة الأجواء النفسية المريحة في الأسرة. فالطفل المطمئن لا يكذب، أما الطفل الخائف فيلجأ إلى الكذب كوسيلة للهروب من العقاب، والطفل الشجاع الذي يعترف بذنبه لا داعي لمعاقبته بل يكافأ على اعترافه بالخطأ مع التوجيه الدقيق بألا يستمر في الوقوع في الكذب..واتهام الطفل بالكذب قبل التأكد يجعله يألف اللفظة ويستهين بها، كأن نتهمه ثم نسحب اتهامنا بعد ذلك، حيث إن هذا التصرف يضعف موقفنا التربوي. والمفروض من الآباء والمربين والمدرسين التنبه إلى هذه المسألة الشائعة كثيرا، وليكن شعارنا كل إنسان بريء حتى تثبت إدانته وليس العكس.

بعض الآراء التربوية في هذا المجال تشير إلى أنه من القواعد المتبعة في مكافحة الكذب ألا نترك الطفل يمرر كذبته على الأهل والمدرسة، لأن ذلك يشجعه ويعطيه الثقة بقدرته على ممارسة الكذب دائما، فبمجرد إشعارنا له أننا كشفنا كذبه فسوف يحجم في المرات التالية عن الكذب. ويمكن معالجة الكذب بالعدالة والمساواة بين الإخوة، وتنمية ثقة الطفل بنفسه، والمعالجة النفسية للمصابين بالعقد، والتزود بالقيم الدينية، وإشباع حاجات الطفل وتوجيه سلوكه نحو الأمور التي تقع في دائرة قدراته الطبيعية، مما يجعله يشعر بالسعادة والراحة، عكس تكليف الطفل بأعمال تفوق قدراته مما يؤدي إلى الفشل والإحباط والكذب. أما الأطفال الذين يميلون إلى سرد قصص غير واقعية فتأتي معالجتهم عن طريق إقناعهم بأننا نرى في قصصهم خيالهم الواسع، ولكننا بالطبع لا نفكر في قبولها أو تصديقها لحقيقة واقعية، وذلك أفضل من العقاب البدني أو السخرية. وتعليم الطفل أن الصدق ينفعه، ويخفف من وطأة العقاب في حال ارتكب الخطأ، والكذب يؤدي به إلى فقدان الثقة بالنفس والحرمان وفقدان احترام الآخرين له. فدورنا يجب أن يكون إيجابيا في حل مشكلات أطفالنا عن طريق التفكير العلمي الموضوعي السليم، فلجوء الطفل إلى الكذب إما لأن يظفر بمرغوب، وإما أن ينجو من مرهوب بوسيلة كانت في الماضي القريب براءة أطفال ودليل موهبة، حولناها -نحن الناضجين- إلى سلوك خاطئ عندما تركنا أطفالنا يندمجون في خيالات ناعسة وناعمة بمفردهم من دون مشاركة أو تنمية أو تنبيه، إذ أدى الخيال بهم إلى تقمص دور أبطال الخيال في الأفلام أو البرامج. فما علينا إلا أن نلازم أطفالنا في مشاعرهم وأحاسيسهم. وإن الخيال هو إحدى ثمار مرحلة الطفولة كما أحلام اليقظة في مرحلة الشباب، والتعامل معهم بالمشاركة والإعجاب والثناء بجانب جعل أنفسنا -نحن الكبار- قدوة لهم ومثالا في الصدق بالوعود والالتزام بالكلام معهم، وذلك بأن نعودهم على التخلق بالقيم الدينية والحياتية. وأن نلجأ إلى المتخصصين عندما يجنح الخيال ويتحول من تخلق إلى اختلاق قد يؤدي إلى أضرار جسدية ونفسية.

أهمية العربية عند أطفال

د. مصطفى رجب
أكاديمي متخصص في اللغة العربية

اللغة هي أساس الحياة الاجتماعية، وهي ضرورة من أهم ضروراتها، لأنها وسيلة التواصل بين الناس، ووسيلة الإنسان للتعبير عن حاجاته ورغباته وأحاسيسه ومشاعره، وأداته الوحيدة في تصريف شؤون عيشه، وللتخاطب مع الآخرين والتفاهم معهم وتبادل الآراء والأفكار، وسبيله إلى معرفة مذاهبهم ووسائل التأثير منهم، وإيجاد العلاقات وبناء الروابط بينهم، وتحقيق سبل التعاون والتكافل معهم.

ومن ثم فاللغة هي السبيل لتوفير الحماية والرعاية للإنسان بين أفراد مجموعته، وعامل مهم تتحقق به منافعه ورغباته، وتسهل سبل تنشئته وتيسر أموره، واللغة وسيلة الإنسان إلى تنمية أفكاره وتجاربه، وإلى تهيئته للعطاء والإبداع والمشاركة في تحقيق حياة متحضرة، فبواسطتها يختلط بالآخرين وتقوى علاقاته مع أعضاء أسرته وأفراد مجتمعه.

ويرى التربويون أن هذا الامتزاج يمكن أن يكسب الإنسان خبرات متنوعة، وينمي قدراته ومهاراته المختلفة، واكتساب هذه الخبرات وتلك المهارات يزداد كلما نمت لغته وتطورت وزادت علاقاته بالآخرين اتساعا ونماء، وهذا ما يجعل الإنسان أكثر وعيا وإدراكا وأكثر قابلية للإنتاج والمشاركة في تحقيق التطور الفكري.

وإذا كان للغة هذه الأهمية في حياة الإنسان عامة، فإن نموها لدى الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة، كما يقرر التربويون، يمكّنه من إدارة حياته على أفضل وجه ممكن، لأنها تساعده في تكوين عالمه بكافة أبعاده وجوانبه، وتمكنه من التعرف على الأشياء من حوله، وللغة ارتباط وثيق بكل من تفكير الطفل وذكائه ونمو قدراته، بل إن أي تأخر في لغة الطفل يؤثر تأثيرا مباشرا على مستوى تفكيره وإدراكه.

فاللغة إذن ذات فائدة كبرى في زيادة قدرة الطفل على السيطرة ليس فقط على بيئته التي يعيش فيها، بل أيضا على دوافعه واتجاهاته وحاجاته.. فالطفل يعبر عن دوافعه واتجاهاته ورغباته وحاجاته إذا كان مالكا لناصية اللغة ومسيطرا على أساسياتها، فهناك دائرة متصلة الحلقات بين اللغة والتفكير والتعبير لدى طفل هذه المرحلة، فسماع الطفل لكلام الآخرين يبعث على التفكير، والتفكير تعبير، والتعبير يكون عادة باللغة، وتواصل الطفل مع الآخرين يساعده على التحول من اللغة الذاتية إلى اللغة الاجتماعية، وذلك مرهون بخبرات الطفل والفرصة التي تتاح له في مرحلة ما قبل المدرسة، لتحتل

اللغة هنا مكانا مهما بين المهارات التي تسعى الروضة لإثرائها، وبخاصة لغته القومية بما تتضمنه من قيم ومفاهيم متنوعة، فثراء اللغة القومية لطفل الروضة هو أساس تمسكه بكل ما تتضمنه من قيم واتجاهات ومفاهيم، حماية له من خطر التعايش مع لغات أجنبية متعددة ذات اتجاهات ومفاهيم متناقضة.

وتؤدي اللغة لدى الطفل عدة وظائف، فهناك الوظيفة الاجتماعية، باعتبار أن اللغة أداة اتصال وتفاهم، وهناك الوظيفة العقلية باعتبارها أداة لتكوين المفاهيم والاتجاهات، ولها أيضا وظيفة نفسيه حين تصبح أداة للتعبير عن النفس والوجدان، وأخرى جمالية باعتبارها وسيلة للتعبير عن التذوق الحسي والجمالي، واكتساب اللغة في مرحلة ما قبل المدرسة يزيد قدرة الطفل على التواصل مع الآخرين، والاندماج والتكيف معهم.

لذلك تشكل مرحلة ما قبل المدرسة مرحلة من أهم مراحل حياة الإنسان، إذ يكون فيها الطفل قابلا للتطور والتغيير والتشكيل، فلهذه المرحلة أبلغ الأثر في تكوين شخصية الطفل وبناء اتجاهاته وتعزيز دوافعه وإشباع حاجاته، وإذا كانت لغة الطفل تتأثر من حيث المفردات والتراكيب والقواعد بأكثر الأفراد مخالطة له، فطفل هذه المرحلة يقضي معظم وقته سواء في البيت أو الروضة أمام أفلام ومسلسلات كرتونية أجنبية ومدبلجة؛ معجبا بأبطالها، غارقا في التفنن بمحاكاة سلوكاتهم وإيماءاتهم ولغتهم، حتى إن لغته تكاد لا تختلف عن لغتهم، ليردد ويكرر العبارات والألفاظ التي ينطقونها بسرعة مذهلة ومهارة فائقة، تعتمد على حب ما يظهر من شخصيات في هذه الأفلام والمسلسلات.. ومن ثم فالأمر ينذر بخطورة بالغة، لا تتوقف خطورتها على الطفل في الوقت الراهن فحسب، بل على مستقبل هذا الجيل الذي ينمو ويكبر في أحضان مفردات لغوية متفرقة، من شأنها إضعاف اتصاله بلغته الأم، حيث تأثر الطفل بلغة وثقافة أخرى تختلف عن لغته وثقافته القومية، يتبعه تأثر بأخلاقيات واتجاهات هذه اللغات منذ الصغر، يزيد المشكلة تعقيدا أن الإنتاج العربي من الأفلام والمسلسلات الكرتونية لا يضاهي الإنتاج الأجنبي، ولا ترتقي نسبه ليواجه القدر الهائل والمتزايد للإنتاج الأجنبي الذي يسد حاجة الطفل للتشويق والإثارة والمتعة، ومن ثم انجذاب الطفل عامة وطفل ما قبل المدرسة خاصة لما يسد حاجاته ويشبع دوافعه واتجاهاته، وغالبا ما يترك الطفل دون أدنى مراقبة وتوجيه أثناء المشاهدة، لينعدم التوجيه اللغوي والثقافي لجيل بأكمله.. ويزداد الأمر خطورة بانشغال الأم عن تربية طفلها وإيداعها إياه بالروضة لتتولى المعلمة مهمة حمايته ورعايته، بل ويجعلها المسؤولة الأولى إزاء إكساب الطفل المهارات المختلفة، بما فيها المهارات اللغوية، واستغلال ما يتمتع به طفل هذه المرحلة من خصوبة لغوية فائقة في القدرة على التكرار، واشتقاق المترادفات والأضداد، لتحقيق جودة الاتصال بين الطفل ولغته القومية، وما يتصل بها من عناصر ثقافية، فاللغة مفتاح لقيم الأمة وثقافتها، وعنوان نهضتها وتقدمها.

محكمة المياه في بلنسية

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

يكمن سر تفوق الحضارة الإسلامية وخلودها في أنها وليدة شريعة تقوي المجتمع وترفع من شأنه وتطلق طاقاته، فيستمر عطاؤه الحضاري بغض النظر عن حال السلطة السياسية من القوة أو الضعف، بل نحن أصحاب الحضارة التي ربما هزمت عسكريا، ثم لم يلبث أن اعتنق المحتلون دينها وحضارتها كالمغول، أو حضارتها دون دينها كالصليبيين في الشام والإسبان في الأندلس والنورمان في صقلية.. وغير ذلك مما هو معروف ومشتهر.

ودور السلطة – في تاريخنا الحضاري– أشبه بمن يطلق الشرارة أو يبذر البذرة، التي ترعاها الأمة فيما بعد، فيستمر حصادها حتى ولو ضعفت السلطة أو ذهبت بالكلية، وذلك راجع إلى قيمتين أساسيتين في الإسلام هما: الإنفاق في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما القيمتان اللتان أسستا لمؤسستي: الوقف والحسبة، وكلتاهما كانتا تعبيرا عن التميز الإسلامي، وكان لهما فضل حراسة قيم الأمة وحضارتها، حتى

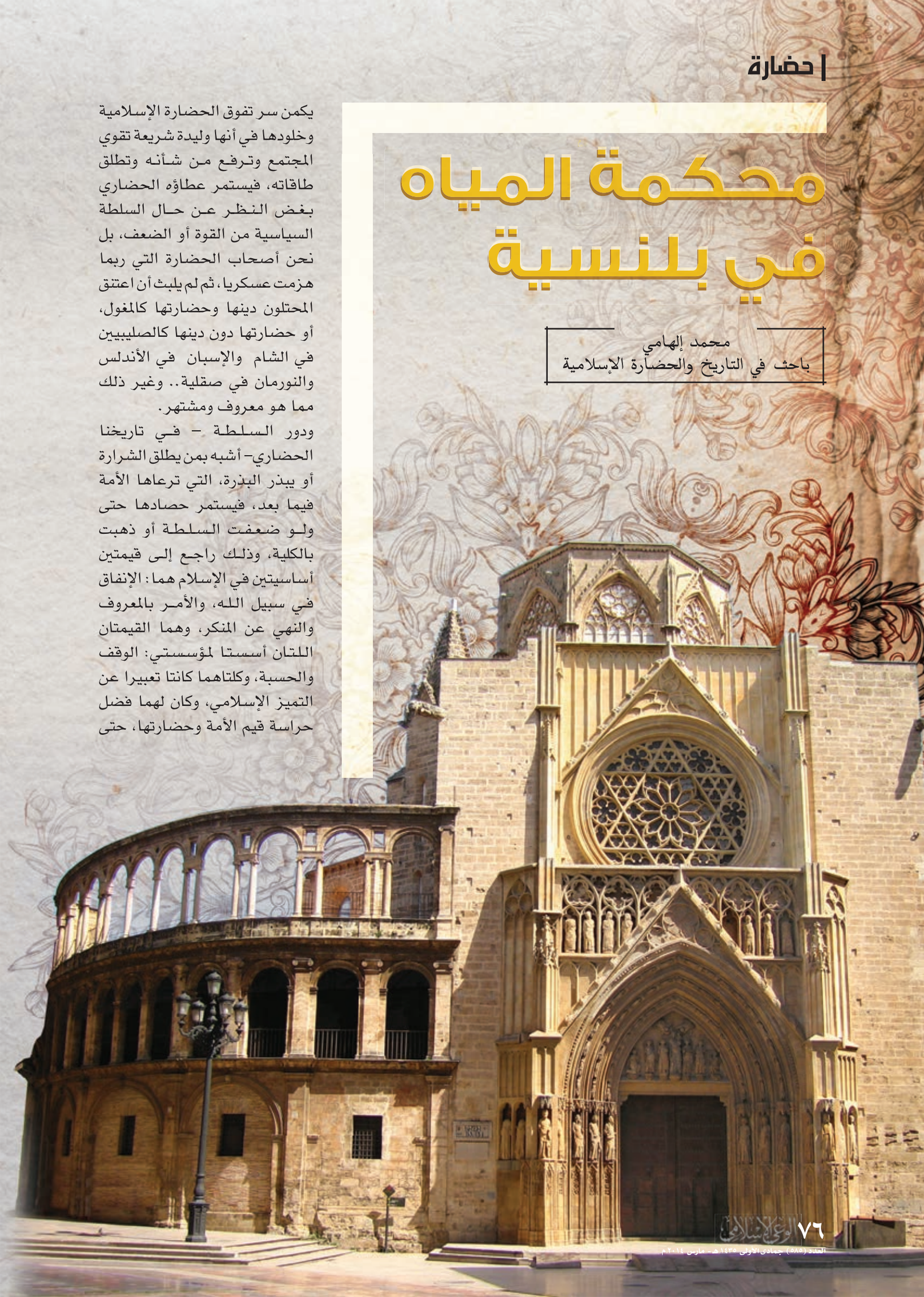

جاءنا الاحتلال الحديث، فكان أن استفاد منهما في بلاده، وحرص على تدميرهما في بلادنا.

في السطور القادمة نتناول أنموذجًا من التاريخ لمؤسسة أطلقت شرارتها السلطة، لكنها بقيت خالدة حتى يومنا هذا بعد أن ذهب الخليفة وذهبت دولته، بل وذهب المسلمون من تلك الأرض.. تلك هي محكمة المياه في بلنسية الأندلسية، وهي تمثل نموذجا للمسؤولية الاجتماعية والحلول المبدعة التي يفرزها المجتمع، ويقوم عليها ويبقيها.

كان عهد عبدالرحمن الناصر من أزهى عهود الأندلس، وهو العهد الذي استمر لنصف قرن، إذ تولى الحكم وهو شاب صغير في حدود العشرين سنة، ثم مات وهو في السبعين من عمره (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ)، واستطاع في عهده أن يغير حال الأندلس من ضعف وتفكك إلى قوة ومجد وازدهار.. فهذا الناصر هو من أطول الملوك حكما في تاريخ المسلمين.

كان من آثار عهده إنشاء «محكمة المياه» في بلنسية، التي احتفلت إسبانيا بمرور ألف عام على إنشائها عام ١٩٦١م، وحضر الملك الإسباني خوان كارلوس جلساتها أربع مرات، واعتمدت في الدستور الإسباني ١٩٧٨م، وصارت جزءا من قانون مقاطعة بلنسية الصادر ١٩٨٢م، ومن قانون الماء الإسباني الصادر ١٩٨٥م، وأخيرا فقد سجلتها منظمة اليونسكو ضمن التراث العالمي الذي يجب المحافظة عليه في سبتمبر ٢٠٠٩م.. فما هي قصة المحكمة؟

تحولت بلنسية التي أنشأها الرومان على ساحل البحر المتوسط في عهد المسلمين إلى أرض الحدائق والجنات، رغم قلة أمطارها، وذلك بأثر مما أبدعه المسلمون من أنظمة الري والتحكم بالمياه، من خلال ما بنوه من سواقي وسدود على نهر توريا الذي يمد المدينة بحاجتها من الماء، وهذه التقنيات التي تركها العرب منذ ألف سنة بلغت من التطور والإبداع حدا عظيما، ويكفي أنها ما تزال هي الأساليب المعتمدة في الزراعة حتى الآن.

نشأت محكمة المياه كنوع من المحاكم المتخصصة التي تسد حاجة سريعة في تنظيم الماء في بلنسية، وهي تتألف من ثمانية أعضاء يمثلون السواقي الثماني القائمة على نهر توريا في بلنسية وهي: (سواقي قوارت - مصلاتة - ترمس - مستليا - فبارة - رأس كانيا - روبية - بيناشير. وفيتمار)، فلكل ساقية مستفيدون منها – وهم أصحاب الأراضي الواقعة حولها- وهم ينتخبون فلاحا منهم ليكون قاضيا عليهم، وتكون مدة انتخابه لسنتين أو ثلاث، وحين يجتمع الأعضاء الثمانية يترأسهم الأكبر سنا، ثم يختارون بالانتخاب رئيس المحكمة ونائبه.

تعقد جلسة المحكمة منتصف نهار يوم الخميس من كل أسبوع -مثلما كان ذلك في عهد المسلمين- وفيها يتقدم الشاكي بشكايته ويدافع المتهم عن نفسه، ولا يشترك قاضي هذه الساقية في تداول شأن القضية بل يحكم فيها السبعة الآخرون، وتعد أحكامهم نافذة وغير قابلة للاستئناف أو الطعن أمام أي جهة أخرى، ويقوم بتنفيذها حراس السواقي تحت إشراف قاضي الساقية الذي لم يشترك في القضية، ويعد هو المسؤول عن تنفيذ الأحكام.

وحراس السواقي أولئك هم بمثابة الشرطة المتخصصة، إذ بخلاف تنفيذهم للأحكام، فهم أيضا من يبلغون المحكمة بأي تعديات أو مخالفات وقعت في ناحيتهم.

قضاة المحكمة هم من الفلاحين الذين يزرعون الأرض ويتكسبون منها بما يجعلهم متخصصين في هذا المجال، ويعرفون دواخله وتفاصيله وأساليب الحيل والمخادعات فيه، وهم ما زالوا يرتدون الثياب السوداء التي كان يرتديها الفلاحون في بلنسية منذ العهد الإسلامي، ويجلسون على مقاعد جلدية كنحو التي كان يجلس عليها القضاة قديما، وجلسات المحكمة كانت ولا تزال علنية يمكن لأي امرئ، أن يحضرها، كما تعقد المحكمة في ذات الفناء الذي كانت تعقد فيه، غير أنه قديما كان فناء مسجد رحبة القاضي -وهو المسجد الجامع في بلنسية- بينما صار الآن فناء كاتدرائية بلنسية بعد هدم المسجد في زمن إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس.

وتضمن المحكمة استمرار نفسها من خلال التمويل الذاتي، إذ يحصل القضاة على نسبة من رسوم الري، ونسبة من الغرامات التي توقع كعقوبات على المخالفين، وتكفل لهم نفقات تنقلهم.

في حين كان الاجتثاث الإسباني للمسلمين في غاية الجنون، فإنهم -لافتقادهم أي أساليب تنظيمية للزراعة والتحكم في الماء- قد أبقوا على محكمة المياه هذه كأمر لابد منه لكي لا تخرب بلنسية، إلا أن الخراب أصابها من وجه آخر، وهو نقص ذوي الخبرة والمهارة في الزراعة الذين كانوا من المسلمين، إذ صاروا بين قتيل وأسير ومهاجر.

وما تزال بلنسية تستعمل المقياس العربي «فيلان» في قياس كميات المياه التي تحصل عليها كل ساقية، بحيث ينضبط التوزيع العادل لمياه النهر بحسب كل ساقية والمساحات التي ترويها، والتي تبلغ أكثر من ٤٠ ألف فدان.

وبهذا تمثل محكمة المياه البلنسية الأندلسية أنموذجًا لمؤسسة اجتماعية ذات نفع عام، استمدت فكرتها وخلودها من خصائص الحضارة الإسلامية التي أنبتتها.

كيف يتجنب المستهلك التأثير على نفسيته؟

بقلم بشرى شاكر
باحثة مغربية

لعل التجارة، ومنذ الأزل، كان لها شأن خاص لدى العرب، وقيلت فيها أمثلة عديدة تحث على السعي والكسب، فقيل «التجارة شطارة»، وقيل «علم ابنك التجارة ولا تعلمه الإجارة». وجاء الإسلام ليؤكد على أهمية التجارة، فقال الرسول ﷺ حينما سئل أي الكسب أطيب: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور». ولأهميتها ذكرها الله سبحانه وتعالى في أكثر من موقع، فجاء في سورة النساء، الآية ٢٩، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ..﴾. وجاء في سورة التوبة، الآية ٢٤: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ ...﴾. وقال في سورة فاطر، الآية ٢٩: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾. وفي سور عديدة أخرى مثل سورة الصف وسورة الجمعة.

لكن، إن كانت للتجارة أهمية قصوى، تعيل وتكفل احتياجات الإنسان، وتلزمه العفاف والكفاف، وتيسر له طريق الخير، فهي أيضا يمكنها أن تكون طريقا للأوزار والآثام. ولذلك، قال الرسول ﷺ: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق».

وفي أيامنا هذه باتت التجارة شطارة في جذب المستهلك أكثر بكل الطرق والوسائل الممكنة، حتى وإن كانت تخل بكل الأسس الشريفة والسلوكيات والضوابط. وقد تكونت الآن دورات خاصة تساعد البائع على تنمية مداركه لبيع منتج معين، وأيضا تساعده على السيطرة على نفسية الزبون المرتقب، من استعمال للإشهار، ودراسة لنفسية الزبون، واستعمال الألوان والنكهات والأذواق، وطريقة تقديم البضائع وغيرها من الأمور.

من المعروف أن هدف البائع أن يبيع منتجا كلف بعرضه وبيعه، وأحيانا يعتمد راتبه على عمولات المبيعات، خصوصا في المراكز التجارية الكبرى، وقد أبانت دراسات حديثة أن قرابة ٣٠ إلى ٤٠ في المئة من الأشياء التي نقتنيها من السوق هي أشياء لا نحتاج إليها في الواقع، نقتنيها تحت تأثير العاطفة لا الحاجة، وهذا لا يحدث عبثا وإنما تدفعنا إليه عدة عوامل تؤثر في نفسية المشتري، تبدأ أولا باستدراج حواسك، وأهمها حاسة البصر، بدءا من الإعلانات التي تملأ الشوارع والطرقات لمنتج معين وطريقة عرض الأفيشات، الألوان، حجم اللافتات، الإضاءة المستعملة، كلها ومضات تبقى عالقة في ذهن الشخص وتنمي قابلية الشراء لديه وهو يمشي في طريقه. ويكون ذلك

أكثر والشخص عائد من عمله لبيته مثلا، أو يتمشى من دون وجود هدف يرمي إليه، وبعبارة أخرى أصبح متفرغا ولا ضغط عليه، إذ أنهى ما لديه من أعمال ولا شيء يستعجل القيام به.

بعدها يأتي دور المراكز التجارية التي تدخلها لاقتناء شيء مهم أنت في حاجة إليه، فتخرج محملا بأغراض عديدة لست في حاجة إليها! وذلك لعدة أسباب.

أولها: حينما يدخل المشتري المركز التجاري يجد نوعين من حقائب التسوق: الحقيبة الصغيرة التي يمكن حملها باليد، والعربة ذات العجلات التي تكون بكل تأكيد أكبر. غالبية المراكز التجارية تزيد عدد العربات ذات العجلات وتنقص عدد الحقائب المحمولة باليد، إن لم تكن تخفيها في ذروة التسوق، وذلك لأن المستهلك يضطر إلى شراء أغراض أكثر وهو يلف بعربته التي يستمر في ملئها من دون أن يتبين هو نفسه ذلك، بينما لو كان يحمل حقيبة اليد الصغيرة لكان سيقتني ما يحتاج إليه وكميات أقل.

ثانيها: من المعروف أنه حينما تجر عربة فارغة فإنك تميل طبيعيا إلى التوجه نحو اليمين، ولذلك معظم المراكز التجارية تضع مباشرة على يمين المدخل الأجهزة الإلكترونية والأجهزة المعلوماتية الأغلى ثمنا.

أما وأنت تتوجه نحو المكان المخصص لاقتناء الخضر والفواكه داخل المركز التجاري، فيمكنك أن تلاحظ أن هذا المكان بالضبط استعملت فيه مصابيح إضاءة برتقالية أو صفراء بينما بقية المركز التجاري يكون مضاء بشكل اكبر بأضواء النيون الأبيض، لأنه ببساطة اللون الأصفر والبرتقالي هما الأقرب إلى لون الضوء الطبيعي، وبالتالي تجذبك الخضروات والفواكه التي تبدو ألوانها طبيعية وطازجة، حتى أننا نعلم جميعنا أن غالبية هذه المراكز تعرض خضروات وفواكه محفوظة في المجمد من قبل.

الوسائل الخداعية لاستدراجك لاقتناء المزيد متعددة كذلك، وحتى في محلات بيع الملابس الجاهزة، فأنت تلاحظ أنه في كابينة المقاسات تجد مرايا محدبة تجعلك ترى جسمك أكثر رشاقة من الاعتيادي، وبالتالي تعتقد أن ما تلبسه يناسب جسمك أكثر، وحتى لو كنت تريد فقط أن تقيسه للتجربة فإنك تجد لديك رغبة في شرائه.

بالإضافة إلى أنه يتم وضع المنتجات الأغلى ثمنا على مستوى قامة الشخص في الأعلى وعلى مستوى طول الإنسان المتوسط، بينما توضع الأرخص أسفل، فيكون أسهل للشخص الذي يجر عربة أمامه أن يتناول المنتج الذي في الأعلى عن الموضوع في الأسفل.

البصر ليس وحده من يستدرج لكي يجعل منك الزبون المناسب لإنفاق المزيد، وإنما السيطرة على سمعك أيضا، فحينما يكون المركز التجاري فارغا غالبا ما تستعمل موسيقى هادئة وبطيئة، وأحيانا على شكل حلقات موسيقية متكررة تشعر

الإنسان بالراحة والسكينة؛ فتجعله يخفف سرعة مشيه، وبما أنه يقضي وقتا أطول داخل المركز التجاري الفارغ، فإنه يضطر إلى اقتناء مزيد من الأشياء، وبالعكس حينما يكون المركز التجاري في ذروته ويعج بالزبائن فإنه يتم استعمال موسيقى صاخبة وسريعة تجعلك من وطأة سماعها تسرع في اقتناء الأشياء، خصوصا مع كثرة الحركة والجلبة، فأنت من دون أن تشعر تتجذب نحو تكدس الناس على رواق معين ويكون الشراء وكأنه تنافس!

حاسة الشم أيضا تستغل لاستدراجك للشراء أكثر، فالعطور المستعملة بشكل لطيف ورائع تجعلك تشعر بالارتياح وبرغبتك في البقاء أطول مدة داخل المول أو المركز التجاري.. ومدة أطول تعني مشتريات أكثر. ومع تطور النكهات فقد باتت بعض المراكز تستعمل عطورا معينة لكل مكان، فمثلا يوضع خبز طازج قرب الخبز المعبأ لتجعلك نكهته تشتري حتى الخبز المعبأ، خصوصا أن مظهره يكون أجمل. أما في رواق يختص ببيع الحلويات والكاكاو فتفوح رائحة طيبة أيضا، ويستعمل قرب رواق بيع الغسالات مثلا رائحة خفيفة ومنعشة توحي لك بالنظافة وهكذا.

من بين الوسائل المستعملة التي تحثك على الشراء أكثر -وبالتأكيد انتبهتم إليها مرارا- أن الأماكن المخصصة لبيع الحليب والمياه مثلا توجد -عادة- في آخر المركز التجاري بحيث يدفعك ذلك إلى عبور كل المركز التجاري لتصل لشراء علبة حليب مثلا، ومن المؤكد أنك ستمر عبر عدة منتجات تجذبك لشرائها.

حتى حينما تريد أن تحاسب قبل خروجك فإن النظام الموضوع للدفع وعرضك للمنتجات التي اشتريتها في شريط ساحب يجعلك تنتظر مدة إلى أن يفرغ الذي أمامك. ولذلك، وضعت المصاصات وأنواع العلك وبعض الحلويات تماما قرب كل صندوق دفع. وبديهي إذا أمضيت وقتا تنتظر فقد تضيف أشياء مثل هذه إلى مقتياتك تبدو لك صغيرة وغير ذات قيمة مادية رغم أن تكرارها من دون الحاجة إليها يجعلها تشكل مبلغا مهما.

من الأجدر إذن أمام هذه الوسائل المعتمدة لتجعلك تشتري أكثر من ٤٠ في المائة من الأشياء التي تؤثر سلبا على ميزانيتك ولا تكون في حاجة إليها؛ أن تتبع خطوات بسيطة كألا تذهب للتسوق إلا إذا كنت بحاجة فعلا لشراء شيء معين، وللتسوق الأسبوعي مثلا اكتب قائمة وحدد احتياجاتك، إذا كنت ستذهب إلى مركز تجاري، ولعدم تأثير الموسيقى على الشخص فهناك من يلجأ إلى وضع سماعات يضع فيها شيئا يريد سماعه أو اعتاد على سماعه، أو بكل بساطة ينتبه على الأقل لتغير سلوكه قبل وبعد سماعه موسيقى معينة مستعملة داخل مركز التسوق، وإذا كان الإنسان يذهب إلى المركز التجاري فقط لشعوره بالضجر فيذهب لأقرب مول من دون الحاجة إلى ذلك، فيمكنه تغيير سلوكه مثلا بتعويض المركز بممارسة الرياضة حينما يكون لديه فراغ ويحس بالسأم والملل ويرغب في الخروج، فهناك دراسات تؤكد أن العديد من الأشخاص، ومعظمهم نساء، يذهبون إلى التسوق لأنهم يشعرون بالضجر أو إذا كان مزاجهم سيئا.

حينما تخرج برفقة أصدقاء وتعلم أنهم سيذهبون إلى السوق فاترك نقودك في البيت، فأنت بالتأكيد سوف تشتري شيئا لا تحتاج إليه تحت تأثير رغبتهم في الشراء، ولا تأخذ معك إلا مبلغا يمكن أن تحتاج إليه في بعض الظروف الملحة، واترك أيضا بطاقات اعتمادك. وقد أثبتت دراسات حديثة أنك حينما تبتاع الشيء وتدفع مقابلا ماديا نقدا تنفق أقل من لو كنت تبتاع ببطاقة اعتماد.

أما إذا كنت داخل مركز التسوق، فبالتأكيد سوف تقابل مكلفين بالبيع يستعرضون عليك بضائع جديدة أو منتجات معينة وأحيانا تشعر بالخجل من إلحاح البائع وتقف للتذوق أو للتجربة وحينها فبمعدل شخصين من ثلاثة يشترون، إما لأن المنتج ووصف البائع بهرهم في حينه وإما لأنهم يفعلون فقط إكراما للمجهود الذي قام به البائع. ولذلك، وتفاديا للإحراج، فإنه لا ينصح بالتوقف حينما يعرض عليك منتج، ولكي تتفادى ذلك انظر إلى الجهة الأخرى لتجعله ينظر إلى ظهرك ولا تنظر في عينيه لأنك سوف تتوقف بكل تأكيد، ولأن البائع -عادة- يتقاضى عمولة على المبيعات فهو يركز على من ينظر إليه مباشرة ويتفادى من أشاح عنه أو أدار ظهره له.

المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره

القراءة المتذوقة والفهم الصحيح

د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي
بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
التابع لوزارة الأوقاف - مصر

تكلمنا في الحلقة السابقة في شأن الخطوط العريضة التي ينبغي أن يسير عليها منهج البحث واليوم نكمل بقية تلك الخطوط، وهي:

- خامسا: القراءة المتذوقة، والفهم الصحيح لمقاصد الأصول والنصوص الصحيحة:

لا شك في أن تذوق النص - أو استبانة ما فيه - بعد ثبوت صحته، لابد أن يصحبه صحة في الفهم من غير هوى مضل، أو تعصب أعمى، وإلا كان الخلل في النتائج مفجعا. وهذا أمر يكاد يكون في غاية الصعوبة، وتبرز أهميته في كونه بمثابة الروح التي تسري بين أبواب أية دراسة وفصولها ومباحثها. وأهم ما ينبغي أن يتسم به هذا المنهج، التشرب التام لروح العصر الذي سيدرس. وسبيل ذلك: دراسة كل ما أفرزه هذا العصر أو ذاك من أعمال تدل عليه. وأقصد بالأعمال هنا كل ما نطق به لسان حال العصر محل الدراسة وقام شاهدا على أهله، بما روته ألسنتهم، وسطرته أيديهم، بل كذلك بما شيدته سواعدهم. وهذا يعني طول انغماس الباحث في الفترة التي سيدرسها

حتى يصل إلى درجة التشبع بروح أصحابها.
ذلك أن الكلام المركب من الأحرف، والكلمات، والجمل، تحمل في تركيبها آثار الطبائع والغرائز، والأهواء، والنوازع، التي تنطوي عليها السرائر والضمائر المغيبة. ثم هي بعد ذلك تحمل أيضا - كما يقول العلامة محمود شاكر(١) - فوق ذلك: «ضروبا أخرى من الدلالات الخفية والظاهرة، والكامنة والمنسابة، تدل على هيئة صاحبها، وعلى حركاته عند إنشاء الكلام، وعلى شمائله الظاهرة، وعلى سمته، وعلى صوته، حتى كأنك ترى صاحب الكلام ماثلا أمامك، يشير، أو يتحرك، أو يهمس، أو يصرخ.. مئات لا تعد من السمات الظاهرة والخفية التي يتميز بها متكلم عن متكلم. كل ذلك ممكن أن تراه أو تحسه، وهو يطل ملثما أو سافرا من خلال الأحرف والكلمات والجمل، مغروسا في حافاتها وحواشيها، بل مغروسا أيضا في معاطف المعاني التي يدل عليها هذا الكلام المركب.. ومعنى ذلك أن الكلام محمّل بدلالات مميزة، تجعل صاحبه متفردا بخصائصه عن سائر إخوانه من البشر المتكلمين».
ولكن ينبغي التنبيه على أن نحترس من الوهم الذي يجعل مجرد مطابقة ما يقوله المرء أو يكتبه لما نعتقده نحن أو نتوهمه، دليل على صدقه، «فهذا باطل أيضا، لأن مخالفته كل المخالفة في الاعتقاد أو التوهم، ممكن أيضا أن يكون فيما قاله صادقا كل الصدق وإن لم يقع كلامه عندنا موقع الرضا والقبول والتسليم. فلم يبق إلا طريق واحد: أن يكون الكلام المركب من الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب، وما تؤدي إليه من المعاني، كلها حاملا لآثار عالقة في جميعها، أستطيع أنا أو أنت بالاعتماد على التذوق.. أن نحسه إحساسا ما»(٢).
وهذه الحاسة في التذوق والاستبانة أثبتها علماء الإنسان في الخط، والنحت، والتصوير، والموسيقى.. فهل يمكن «أن يكون الخط وسائر الفنون الدنيا من نحت وتصوير وموسيقى جميعا، قادرا على حمل آثار العواطف والأخلاق والشمائل، ثم لا تكون الأحرف والكلمات والجمل والتراكيب والمعاني التي تقيد بالخط، وهي الدالة على الفن الأعلى المتفرد بالسمو على سائر الفنون: الشعر والنثر والكتابة، غير قادرة على حمل هذه الآثار نفسها؟ أممكن هذا؟ كلا، هي على ذلك أقدر، وأثبت، وأقوم، وأصدق شهادة. هي (الوثيقة الجامعة)، التي تميز إنسانا من إنسان.. وعليها تنعكس صور حياته كلها ظاهرة وباطنة»(٣).
فالتذوق إذن هو الطريق إلى بعث هذه الصور، وإلى استنطاقها، وإلى حل رموزها المعقدة. ثم هو بعد ذلك معنى عام مشترك الدلالة بين الناس جميعا، إلا أنه متفاوت بينهم، فهو «يقل ويكثر، ويعلو ويسفل، ويصقل ويصدأ، ويجود ويفسد»(٤). من أجل ذلك تتباين التفسيرات وتختلف للنص الواحد، تبعا لاختلاف تلك القدرات والملكات.

.سادسا: الترجيح والتعليل:

وأعني بالترجيح والتعليل: التفسير والحكم على الحوادث. وهي - ما دمنا نبحث في التاريخ الإسلامي- ينبغي أن تتم وفق ضوابط وشروط، من أهمها:
أولا: الوعي السليم والإدراك التام بطبيعة العهد المؤرخ له: سواء كان سياسيا، أو اجتماعيا، أو حضاريا.. وقد كان هذا هو السبب الأول في أخطاء المستشرقين المتكررة في دراسة تاريخ المسلمين، وهو عدم الإلمام الكامل بطبيعة العصر الذي يؤرخون له، أو يفسرون حوادثه. فدرسوه بمقتضى حضارتهم هم، فرأينا التفسير المادي، والثيوقراطي، والعلماني، لأمة لم تعرف ذلك في تراثها. فرأيناهم وقد جعلوا من أبي بكر وعمر غاصبين للسلطة مستبدين بها. وجعلوا من قتال علي مع الصحابة كذلك صراعا على السلطة والنفوذ. وكانوا من قبل قد جعلوا من أسباب فتوح المسلمين في الأرض البحث عن الموارد، والأموال.
ثانيا: دراسة ثقافة ومعارف العصر المؤرخ له: وهو دراسة العصر الذي بحث فيه وفق ثقافته، وعقلية أهله، وليس وفق ثقافتنا نحن. فكانت محاكمتهم إلى مناهجهم ومعارفهم هو الأصل عندي، وذلك حتى لا أكون لهم ظالما، إذا حاكمتهم إلى منهجي العلمي المعاصر، أو إلى أي منهاج آخر لعصر آخر. وهذا ما يوجد لدينا الآن في جامعاتنا حين ينقد البحث التاريخي لعصر الدولة الإسلامية الأولى، إذا قام على منهج حديثي مثلا في دراسة مرويات ذلك العصر بأن ذلك ليس من خصائص المناهج العلمية لأقسام التاريخ في العصر الراهن. الأمر الذي أدى إلى خلل كبير في نتائج الدراسات المعاصرة وأحكامها عن هذا العصر الأول الذي اعتمد الرواية أصلا في توثيق حوادثه. ولم يترك الأمر حتى وضع لنفسه ضوابط لهذه الرواية ليحتكم إليها ويحاكم بها عند الخلاف أو النزاع، فتركنا ذلك وحاكمناهم إلى مناهج أخرى فظلموا.
ثالثا: صحة التصور عن الخالق والكون والإنسان: سبق أن تفسير التاريخ في الإسلام يقوم على ثلاثة أركان، هي: الخالق عز وجل، ثم الكون، والإنسان. وأي إفراط أو تفريط في إدراك أي من هذه الأركان والعلاقة بينها، يؤدي إلى الانحراف حتما عن المنهاج الإسلامي الأصيل في تفسير التاريخ. وهذا ما وقع فيه أصحاب المذاهب الأخرى التي خالفت المنهج الإسلامي في تفسير حركة التاريخ الإنساني. حين

أنكروا دور الوحي والعوامل الغيبية، وتطرفوا في اعتبار العوامل المادية.

رابعا: الفهم الصحيح للعلاقة الرابطة بينهم: وتتمثل هذه العلاقة في الجمع بين عاملي الروح والمادة في عالمين لا ينفك أحدهما عن الآخر في مجال عملية التفسير، هما عالما الغيب والشهادة. والتقليل من قيمة هذا الأمر في بعض الدراسات المعاصرة يكشف لنا مدى الظلم الذي تعرض له المنهج الإسلامي لعملية التفسير حين تحكمت فيه مناهج الفلسفة الغربية الحديثة. ذلك أن إنكارهم لعامل الروح، وعالم الغيب أدى إلى تفريغ هذا المنهاج الإسلامي من مضمونه، فصار لا معنى له، إذ أصبح قشرا فرغ من لبابه. وفي المقابل، أدى إفراطهم في عامل المادة، وعالم الشهادة إلى قصور النتائج ونسبيتها تبعا لاختلاف كل عقل.

خامسا: الإيمان بالغيب وأثره في توجيه التاريخ: وسبق أن الغيب هو: ما أخبر عنه ولم ير. ومن أهم معاني الغيب، وجود الله تعالى والملائكة، والجن والشياطين.. وحقائق الغيب لا يمكن مناقشة أسبابها عقليا أو منطقيا، وإنما ينظر فيها كما هي، وليس للعقل تجاهها إلا محاولة الاستفادة منها كما هي، عن طريق ربط المسببات بأسبابها، والاجتهاد في فهمها والتفقه فيها قدر الاستطاعة، وسبب ذلك هو قصور العقل البشري عن إدراك ذلك الغيب بكل جوانبه، وفي تكليفه بالبحث عن تلك الغيبيات أمر لا يطيقه الإنسان، ولا يمكن لعقله أن يحيط به.

ومن ثم، فواجب على المؤرخ أو مفسر التاريخ ـ ما دام يبحث في تاريخ الإسلام ـ أن يعتبر أثر الغيب في حركة التاريخ إذا ثبت أثره، ولا يقتصر على مجرد العوامل المشهودة، وإلا – كما ذكرت من قبل- كيف يفسر نبوة محمد ﷺ؟ وانتصار أهل بدر على من هم أكثر منهم عددا وعتادا! وحركة الفتوح الإسلامية! ومثل ذلك كثير في تاريخ البشرية. وإهمال ذلك سيؤدي إلى خلل عظيم وفساد كبير في عملية التأريخ وتفسيره، وهو ما وقع لأصحاب المذاهب الوضعية ومن تبعهم. فهم قد فسروا الأولى بالعبقرية! والثانية بالإرادة! والثالثة برغبة التوسع وجلب المال! وهذا يخالف المنهج الإسلامي في التفسير جملة وتفصيلا، وصاحب ذلك على خطر عظيم، إن كان مسلما.

سادسا: الإيمان بالسنن الإلهية وأثرها في مسيرة التاريخ: ذكرت من قبل أن الكون كله مقيد بسننه جل شأنه وحكمته فيها. وإلا لفسدت السموات الأرض إن ترك كلا يعمل بهواه. ومما ذكرته في هذا الباب أيضا أن المشيئة الإلهية تأتي على رأس العوامل الغيبية المحركة للتاريخ كله، الإنساني والكوني على السواء. فهي التي تسير الكون وفق سننه عز وجل بأسبابها ومسبباتها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(الحج:١٨). وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ ٦٨﴾(القصص:٦٨). وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾(هود:١٠٧). وهذا لا ينافي حرية الإنسان وأن له مشيئة، فقد قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ٢٩﴾(الكهف:٢٩). فقد جعل الله تعالى للإنسان حرية ومشيئة، إلا أنه قيدها بمشيئته وإذنه عز وجل، إن شاء أنفذها، وإن شاء منعها، فقال:﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ٢٩﴾(التكوير:٢٩).

سابعا: وجوب التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الشرع: ذلك أن الخلط في هذا الشأن يؤدي بالباحث في تاريخ الإسلام إلى نتائج مغلوطة. ومن أخطر هذه الأغاليط قول بعضهم: «إن هناك فرقا بين الإسلام والمسلمين، وأن الإسلام يحكم على المسلمين، ولا يحكم المسلمون على الإسلام». فإن غاية ما يبغيه أصحاب هذا القول أن الإسلام منهاج رباني سماوي، مثالي، ينوء البشر بتطبيقه، وتقعد بهم نوازعهم وشهواتهم عن القيام به، والسمو إلى ما يدعو له ويرمي إليه(٥)!

ومن ثم، فليس لبشر عصمة من الخطأ، حتى وإن كان من الصحابة، ولكن أهم ما ينبغي البحث عنه هو نوع الخطأ، هل هو عن عمد، أم عن خطأ بتأويل مجتهد. وفرق بين الأمرين. فهم وإن اجتهدوا فأخطأوا، فإن الإسلام ـ وإن آجرهم ـ براء من هذا الخطأ، ذلك أنه آجرهم على اجتهادهم لا على خطأهم. فالخطأ كل الخطأ، قياس الإسلام بالبشر، ولكن الصواب خلاف ذلك، أن يقاس البشر بالإسلام. وذكرنا من قبل قول بعضهم: «إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

وسبب هذا الخلط عند الكثيرين أنهم ظنوا أن الشريعة جاءت لإنشاء المدينة الفاضلة التي طال بحث الفلاسفة عنها. وهذا أمر غير متحقق ما دمنا في الدنيا، إذ إن ذلك من خصائص دار الخلود يوم القيامة. فالحق إذن أن الشريعة إنما أنزلت لتنظيم علاقة هذا الإنسان على ما فيه ـ من قصور لن ينفك عنه مهما كانت صفته ـ من ضعف وظلم، وجهالة بنفسه، وبخالقه، وبالكون المحيط به في هذه الدار الفانية، دار الابتلاء.

الهوامش

١- انظر فيما يأتي: جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، (المتنبي ليتني ما عرفته) ١١٦٢/٢، ١١٧٠. وفي كل كتب الشيخ (رحمه الله) إبانة عن هذا المنهج، منهج التذوق، إذ كان هو محييه في هذا الزمان، وخير من عبر عنه.

٢- المرجع نفسه ١١٧٢/٢.

٣- المرجع نفسه ١١٧٤/٢.

٤- المرجع نفسه ١١٧٤/٢، ١١٧٦.

٥- عبد العظيم الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، ص ٥٦.

«الوعي الإسلامي» تزور سريلانكا وترصد أحوال المسلمين

الجامعة النظيمية..
تلم الشمل وتؤهل طلاب الشريعة

كولومبو: عبادة نوح وعلاء عبدالفتاح

هنا الجامعة النظيمية بسريلانكا.. جامعة إسلامية تجمع بين الأصالة والمعاصرة.. أرض خضراء شاسعة تقدر بمائة ألف متر مربع، مرصعة بالمباني العلمية.. قاعات تدريس ومكتبة وصالات تدريب ومسجد.. حياة متكاملة لطالب يبدي حسن النية والجدية.. يتم اختبار الطالب بدقة قبل قبوله، ومن لم يستوف الشروط يستحيل قبوله..

الحاج نظيم.. هذا التاجر السريلانكي المسلم الذي ساند حكومة بلاده الهندوسية وقت حاجتها من العملة الصعبة.. يدين له السريلانكيون ويعترفون بفضله، قبل أن يدين له المسلمون ويطلبون من الله الرحمة له.. عندما وقفت «الوعي الإسلامي» أمام مقبرته في وسط الجامعة لم نتبين حدودا لها.. إنها أرض مستوية، بلا شاهد، بلا ضريح.. فقط نباتات لا يزيد ارتفاعها عن نصف المتر، تنمو حول قطعة أرض عشبية في تشابك.

يصحبنا الأستاذ محمود عليان، دليلنا إلى الجامعة، من وسط قرية بيرويلا، إلى قلب الجامعة بوسيلة المواصلات الأشهر هناك، تلك العربة الصغيرة المركبة فوق دراجة نارية (التوك توك).. محمود مدرس لغة عربية، حاصل على إجازات في القرآن الكريم. يقول معلقا على حرص جميع المسلمين هناك على ارتداء الجلباب القصير والطاقية: هنا يهتمون بالمظاهر الإسلامية جدا، بجانب اهتمامهم بالجوهر.. فهم يحاولون الوصول لحياة الرعيل الأول مظهرا وجوهرا، فلا تمشي هنا وأنت خائف أبدا.. يكرمون الغريب ويعكسون الصورة الحقة للإسلام.. ناس سهلة لينة، ويندر أن تجد شخصا لا يرحب بك.

لكن من المعضلات التي تقابل المسلمين المقيمين في سريلانكا سواء للتدريس أو طلب العلم؛ أن نظام الزواج هناك

صارم، فالمسلمون السريلانكيون يحرصون في الغالب على تزويج بناتهم من دوائرهم القريبة، والزوجة هي التي تعد بيت الزوجية، أما الزوج فيدفع مبلغا رمزيا، وعلى سبيل المثال أهل قرية بيرولا حيث الجامعة لا يزوجون بناتهم من خارجها، تلك القرية المشهورة بتجارة الأحجار الكريمة.

مضايقات الفترة الأخيرة

ويحكي عليان لـ«الوعي الإسلامي» عن أحوال المسلمين هنا فيقول: وقف المسلمون وقفة قوية في صف الحكومة أثناء الحرب الانفصالية الأخيرة، قبل سنوات ضد النمور التاميل، وعانوا بسبب ذلك هجمات من التاميل، ففقدوا قرى بأكملها، أحرقت بسبب هذه المساندة، وبعد انتهاء الحرب ظهرت جماعات متعصبة بوذية ربما بسبب فتنة الإسرائيليين الذين سمح لهم بسفارة أخيرا.. خربت تلك الجماعات البوذية المتطرفة بعض المساجد، وأحدثوا مضايقات لمرتديات الحجاب، وانتقدوا ذبح الأبقار في التليفزيون والصحف والمجلات، ومع ذلك فالقطاع الأغلب من الرهبان يدافع عن المسلمين، ويقول ما يحدث من مضايقات لا يعبر عن مشاعر البوذيين، بل تعهد رئيس الدولة ببناء المساجد التي عانت من التخريب مرة أخرى.

ونعرف منه -نقلا عن مسؤولي الجامعة- أنه مع استقلال «سيلان (سريلانكا) عام ١٩٤٨م، أصبح المسلمون يلعبون دورا مهما في الحياة القومية، ورغم أن تعدادهم لا يتجاوز ثمانية بالمائة من جملة السكان، فإنهم يشاركون بدور حيوي في الحياة السياسية للقطر، فقد خطوا خطوات واسعة في التعليم، ودخلت أعداد كبيرة منهم الجامعات، ويشغلون الآن الكثير من الوظائف الإدارية، بما فيها عضوية مجلس الوزراء.

هذا وللمسلمين في سريلانكا محاكمهم القضائية الخاصة بهم في الأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق، كما أنه توجد بعض البرامج الإسلامية في الإذاعة والتلفاز والصحف، وتعتبر أعياد المسلمين عطلات رسمية عامة، وكذلك هناك مدارس حكومية كثيرة خاصة بالمسلمين.

حماية الشباب

ورغم هذا فإن مسلمي سريلانكا يواجهون في فترة ما بعد الاستقلال

مميزات الدراسة في الجامعة

مدة التعليم بالجامعة النظيمية الإسلامية تمتد سبع سنوات، تنقسم إلى مرحلتين:

١- المرحلة التمهيدية- ومدتها ثلاث سنوات.

في هذه المرحلة يُتم الطالب تعلم اللغة العربية، لكونها لغة التدريس في المرحلة الجامعية. ويدرس اللغة الإنجليزية، واللغتين المحليتين التاميلية والسنهالية. ويتعرف على المفاهيم العامة عن الإسلام، من خلال دراسة العلوم الإسلامية. كما يتم فيها إعداد الطالب للجلوس لامتحان الشهادة الثانوية الحكومية G.C.E. Advanced level.

٢- المرحلة الجامعية - ومدتها أربع سنوات.

تدرس فيها العلوم الإسلامية بصورة أكثر عمقا، وبجوانبها المواد العصرية، كما هو مقرر في جامعة «سريلانكا». حيث تتيح الجامعة الفرصة لطلابها الانتساب لجامعة سريلانكا الحكومية. وإعدادهم لأداء الامتحان بها، وبهذا يتمكن الطالب من الحصول على مؤهلين جامعيين في آن واحد:

١- شهادة «الليسانس» (كلية أصول الدين والدعوة) من الجامعة النظيمية الإسلامية.

٢- شهادة «البكالوريوس» - من جامعة سريلانكا الحكومية.

بعض المشاكل المهمة والتي تحتاج إلى حل عاجل وحاسم، ومن أهم هذه المشاكل هي كيفية حماية الشباب المسلم من الوقوع فريسة للفلسفات والمذاهب المادية، فالشباب المسلم في «سريلانكا» كما هو الحال في كل بقاع العالم الإسلامي، معرض لخطر المذاهب الحديثة المبنية على الفلسفات المادية والإلحادية، ولا شك أن العلماء الذين هم نتاج المدارس الإسلامية السالفة الذكر يؤدون خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، ولكن نظرا لطبيعة التعليم الذي تلقوه في هذه المدارس فإنهم لم يعودوا بالمستوى الفكري والعلمي الذي يمكنهم من تقديم الإسلام في صورة تتجاوب مع تطلعات الشباب المسلم الذي افتتن بالتقدم العلمي في الغرب، وأعماه هذا التقدم المادي عن تبين حقيقة الفلسفة المادية الإلحادية، فكانت الحاجة إلى علماء لا يقتصرون على التبحر في العلوم الإسلامية فقط، بل يكونون كذلك على علم واسع بالفكر العالمي الحديث.

مشكلة اللغة

والمشكلة الكبرى الثانية هي مشكلة اللغة، فإن مسلمي سريلانكا يتكلمون اللغة التاميلية التي هي -أيضا- لغة مسلمي جنوب الهند، وتوجد العديد من المؤلفات الإسلامية لعلماء سريلانكا وجنوب الهند بهذه اللغة، ولكن أصبحت الآن اللغة السنهالية، وهي لغة الغالبية في سريلانكا، اللغة الرسمية للدولة، ومن هنا نجد أن كثيرا من الشباب المسلمين هجروا اللغة التاميلية وبدأوا يتعلمون اللغة السنهالية، والمشكلة في الأمر أنه لا توجد مؤلفات إسلامية باللغة السنهالية، لهذا أصبحت الحاجة ماسة إلى تأليف كتب عن الإسلام باللغة السنهالية. وهذا بالطبع يحتاج إلى دعم وعمل جماعي منظم.

صلاة الجمعة

قبل أن نصلي الجمعة نتأمل مشهد الوضوء من حوض على شكل متوازي الأضلاع بجانب المسجد، يتجمع حوله المتوضئون يغترفون منه جماعة، على الرغم من توافر صنابير المياه بجانبهم. نقابل عند باب مسجد الجامعة نائب مدير الجامعة أغار محمد، وبحسب وظيفته هو المسؤول التنفيذي لإدارة الجامعة.. نتحاور فنعرف منه ومن دليلنا أن المسلمين هنا في «بيرويلا» أغلبهم تجار أثرياء، اشتهروا بين بقية السكان بالأمانة والتفوق التجاري، وكان منهم الحاج نظيم أو «ناميل» كما تنطق هنا، وهو مؤسس الجامعة النظيمية أو «الناميللية»، وكانت له صلات قوية برئيس الدولة، وتعاون اقتصادي مهم للبلاد، وعليه فقد سمحت له الحكومة باستغلال ٢٥ فدانا لبناء هذا المشروع الضخم عليها، وحرصت هيئات رسمية وغير رسمية على تقديم الدعم لبناء القاعات، منها هيئات الكويت والسعودية وليبيا وقطر.

التعليم في الجامعة:

وتنقسم الجامعة إلى قسمين أساسيين: قسم مبني عليه معهد تكنولوجي لتعليم الحرف، وقسم

يختص بتدريس الشريعة، ويرجع تاريخ الجامعة إلى أكثر من أربعين سنة، وبذلك تعد من أقدم الجامعات في سريلانكا، وهي المفضلة للمسلمين، فالناس هنا يعتبرون طلاب النظيمية أي النظيميين هم طلاب الشريعة، ومكانتهم علميا أعلى من غيرهم، حتى إن إعلانات الزواج تذكر فيها أحيانا عبارة «ويفضل أن يكون نظيميا» أي خريج هذه الجامعة..

مدة الدراسة بها سبع سنوات بعد حصول الطالب على الشهادة الإعدادية، أي بعد سن ١١ سنة تقريبا يدرس الطالب ثلاث سنوات دراسة تمهيدية، ثم أربع سنوات العلوم الشرعية، من فقه وحديث وتفسير وعلوم قرآن وعقيدة واللغة العربية والفلسفة، إلى جانب اللغات الإنجليزية والتاميلية والسنهالية (لغة البوذيين الرسمية)، لكن المتخرج في الجامعة النظيمية ولكي يجد فرص عمل في انتظاره يكون عليه أن يلتحق في نفس الوقت بالجامعة الحكومية، ويذاكر موادها دون حضور المحاضرات داخل قاعات النظيمية التي توفر له الإقامة والمأكل ووسائل التعليم العصرية، من قاعات وحاسبات آلية ومعامل ...إلخ، بعدها يتخرج الطالب ومعه شهادتان: النظيمية والحكومية.. وبذلك يفضله صاحب العمل باعتباره على الأقل يجيد لغات أجنبية.

نعرف من السيد أغار أن رؤية الجامعة مستمدة من الرؤية الإسلامية للوجود والحياة والإنسان، وفلسفة الإسلام التي تعتمد على تكامل العلم، وشمولية التربية المتكاملة في جوانبها الروحية والعقلية والمادية، ولذلك تسعى الجامعة إلى بناء الشخصية الإسلامية وإلى إحداث التكامل بين العلوم الشرعية وبين المعارف الإنسانية، كما تسعى إلى تحقيق التكامل بين الإيمان والعلم والأخلاق.

أهداف سامية

ومن أهداف الجامعة تخريج جيل من العلماء مسلح بالعقيدة الصحيحة، مزود بالعلوم الإسلامية الأصيلة والمعارف الحديثة، لمواجهة التحديات المعاصرة.. أي تخريج جيل صالح يتسم بحسن القيادة والقدوة للمجتمع المسلم في مجالات الحياة المختلفة، مع إحياء الشعور الإسلامي في نفوس المسلمين.

ونشر الثقافة الإسلامية وتعريف المسلمين بحضاراتهم العريقة وتاريخهم الخالد، وذلك عن طريق ترجمة كتب التراث إلى اللغات المحلية، إضافة إلى الدفاع عن الإسلام والرد على الشبهات التي يثيرها حوله المستشرقون وأعداء الإسلام.

والعمل على نشر اللغة العربية بين المسلمين للوقوف على كتاب ربهم وسنة نبيهم.

أيضا من أهداف الجامعة توثيق روابط الأخوة بين الأقلية المسلمة بسريلانكا وإخوانهم المسلمين في الأقطار الإسلامية والعربية في أنحاء العالم.

والعمل على نشر الإسلام بين الطوائف غير المسلمة. وذلك عن طريق ترجمة بعض كتب التعريف بالإسلام إلى اللغة السنهالية، لغة الأغلبية البوذية في الجزيرة.

٣٥ الف كتاب في المكتبة المركزية

ويضيف السيد أغار: زودنا الجامعة بمكتبة لا نظير لها في جزيرة سريلانكا بمساعدة «البنك الإسلامي للتنمية» بجدة - المملكة العربية السعودية - ولهذه المكتبة دور كبير -ولله الحمد- في توسيع مدارك الطلاب والأساتذة معا، فهي تحتوي وتضم بين جنباتها حوالي (٣٥ الف) كتاب من كتب التراث الإسلامي، باللغة العربية والإنجليزية والتاميلية والسنهالية، وكتب المعارف العامة، كما توجد المجلات والدوريات، وقد أسهمت مؤسسات وجمعيات في العالم الإسلامي بإمداد المكتبة بالكتب المتنوعة في العلوم الإسلامية المختلفة.

رسالة الجامعة النظيمية

تسعى الجامعة في إطار رؤيتها وفلسفتها الإسلامية إلى الإسهام في تحقيق الأهداف العامة التالية:

١- تخريج جيل من العلماء والمفكرين، مسلح بالعقيدة الصحيحة، مزود بالعلوم الإسلامية الأصيلة والمعارف الحديثة المعاصرة.

٢- تخريج كوادر من القيادات تتسم بصفات الشخصية الإسلامية المتوازنة، والقدوة للمجتمع المسلم، في مجالات الحياة المختلفة.

٣- تخريج متخصصين في مجالات التعليم والإعلام والشؤون الاجتماعية الأخرى.

٤- نشر الثقافة الإسلامية، وتعريف المسلمين بحضارتهم العريقة وتاريخهم المجيد.

٥- العمل على نشر اللغة العربية بين المسلمين للوقوف على كتاب ربهم وسنة نبيهم.

٦- تبصير غير المسلمين بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة السليمة.

٧- تثقيف غير المسلمين بمبدأ التسامح في الإسلام تجاه الطوائف الدينية غير الإسلامية.

إعداد : سلمان داود الكندري
كاتب ومدرب معتمد في التنمية البشرية

فن الترويج للذات

إن علم التسويق وإدارة الحملات الإعلامية والإعلانية هو فن قائم بذاته، له أساتذته ومناهجه الخاصة، والتي ترمي إلى إيصال فكرة أو منتج ما، والترويج له في المجتمعات، فمن هذه الحركة الحيوية ومن هذا الفن تجعلنا عزيزي القارئ نفكر قليلا في استثمار هذه الفنون والعلوم في إيصال أفكارنا ونجاحاتنا في هذه الحياة..

لأن الناجح أمثالك عزيزي القارئ هو الذي يستفيد من هذه اللمعات التي تبرق حوله، ليضمها تحت جناح منظومته الحياتية، ويدرجها ضمن الأدوات التي سيصنع بها نجاحه، فمن المفترض أن نحرر عقولنا للاستفادة من كل هذه الإمكانات والفنون المحيطة بنا، حتى نحقق النجاح الذي نحلم به.

لذلك نلاحظ أن السياسيين والإعلاميين استطاعوا أن يستخدموا هذه الورقة الرابحة للترويج عن أنفسهم وعن إنجازاتهم وتطلعاتهم المستقبلية، حتى يشكلوا دائرة تأثير واسعة الأقطار، فيكونوا كالنواة التي تأسر معها الإلكترونات في مجالها.

فهل فكرت عزيزي القارئ في الترويج لأفكارك ونجاحاتك في الحياة؟

أنا موقن بأنك فكرت.. لكن لم تتضح لك هذه الأدوات اللازمة للترويج، لذلك أحببت أن أستعرض معك بعضا من هذه الأدوات، بعد اطلاعي على هذا الفن، لتروج عن نجاحاتك وذاتك وطموحاتك:

الصحافة: إن استثمار أجهزة الصحافة المختلفة لنشر الأفكار أمر مهم، فمثلا عندما تكتب مقالا صحفيا تكون بذلك قد روجت لنفسك، وعند إجرائك لمقابلات صحفية تستعرض فيها بعضا من نجاحاتك، وتخيل معي بعض كتّاب المقالات الصحفية ومدى تأثيرهم في مجتمعهم لتدرك بعد ذلك أهمية جرة القلم تلك.

التلفزيون: لا أحد يغفل دور التلفزيون والإعلام المرئي بشكل عام، في إحداث تأثير ملموس، وتغيير للمفاهيم في المجتمعات، وهذا ما لاحظناه فعلا، خصوصا قبل فترة قصيرة في شهر رمضان، حيث المتابعة الكبيرة من المجتمع للمسلسلات والأفلام، مما يعزز التصاقك بهذه الوسيلة الإعلامية المؤثرة، فليكن لك برنامج فيه رسالة هادفة للناس، تزرع بها قيمة في المجتمع وتروج لرسالتك.

أوبرا وينفري: الإعلامية الأميركية المشهورة صاحبة برنامج اجتماعي تربوي مميز يشاهدها ٣٠ مليون مواطن أميركي، ويعرض برنامجها في ١١٢ دولة، وتعتبر من أكثر النساء تأثيرا في العالم!

الإذاعة: كذلك المحطات الإذاعية لها دور فعال في نشر أفكارك، فمن المهم أن تضع الإذاعة في هرم أولوياتك، فمن منا لم يسمع عن لاري كينج صاحب كتاب «كيف تتحدث مع أي شخص في أي وقت وأي مكان»، حيث يعتبر كينج من أشهر المذيعين في العالم، وله شريحة عريضة من المشاهدين، وقد قام بمقابلة أبرز الشخصيات في العالم!

الدورات التدريبية: يحاول المدربون في دوراتهم التدريبية أن يستعرضوا نجاحاتهم ومشاريعهم وخبراتهم، ويروجوا لأنفسهم بطريقة ذكية جدا، وأذكر أنه في إحدى الدورات التدريبية قام أحد المدربين بالترويج لكتابه بعدما استعرض موضوعا نال إعجاب الجمهور.

استثمر الآخرين

الناجح أمثالك عزيزي القارئ عليه أن يدرك دائما أهمية الاستفادة من الإمكانات والموارد المتاحة التي تحيط به، لذلك فاستثمار عقول الآخرين وخبرتهم وعلاقتهم ونفوذهم يعد من وسائل النجاح التي لا غنى عنها لتحقيق ما نصبو إليه.

يقول الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله- «لا ينمو العقل إلا بثلاث: إدامة التفكير، ومطالعة كتب المفكرين، واليقظة لتجارب الحياة».

إن العقل البشري يكاد يكون من أثمن الممتلكات

عقل آينشتاين

أصيب العلماء بالذهول عندما اكتشفوا أن الدم الذي يغذي المخ لا تبدو عليه آثار الإجهاد على الإطلاق، فلو أخذنا قطرة من دم آينشتاين وقطرة من دم عامل يبذل مجهودا بدنيا؛ فسنجد أن دم العامل فيه سموم الإجهاد، بينما دم آينشتاين لا تبدو عليه أي آثار للإجهاد، ولو ظل يعمل طوال اليوم!

المادية، بل إنه معجزة أذهلت العلماء الذين أثبتوا أن مخ الإنسان يكبر بعدة وسائل، ومنها على سبيل المثال: اقتناء الألعاب التي تنمي التفكير، كلعبة الشطرنج، ولعبة سودوكو، والكلمات المتقاطعة، ولعلنا نلاحظ أن الجامعات الأوروبية والأميركية تعتمد على العلوم والتمارين التطبيقية في تثبيت المعلومات، وبالتالي الارتقاء بمستوى التفكير وسعة الإدراك؛ بدلا من طريقة التعليم الشائعة لدينا، والمعتمدة على الحفظ والتلقين الذي تنتهجه جامعاتنا.

هيرمان.. قصة نجاح

هو خبير الدراسات المستقبلية الذي ترك ١٤ مؤلفا وآلاف المقالات، كان لها الأثر الكبير في التفكير العالمي في قضايا مهمة، مثل الحرب والسلام والديموقراطية، كان هيرمان يعمل في صباه في محل للأغذية تملكه عمته في «لوس أنجلوس»، ومع الأيام بينت له عمته الاستراتيجية لإنتاج الأكياس ذات الأحجام الكبيرة، حيث قالت، «إن الزبائن كلهم يفضلون الأكياس الكبيرة لوضع المهملات فيها لاحقا»، فعلم هيرمان أهمية ملامسة احتياجات الجنس البشري، فاستمد منذ صباه الاستشارات، حيث كان يستشير الناس حوله عن أفكاره، سواء من الحلاق أو السائق أو حتى جاره في مقعد الطائرة، ومن الأمور اللطيفة أنه إذا أراد السفر أخذ معه حقيبته التي تحتوي على كل شيء إلا الملابس!! فمعه الأقلام والأوراق والمسجلة ليسجل إفرازات العقول، فحقيبته أشبه ما تكون بمكتبة متنقلة، وهكذا استمد هيرمان قوة استشارته من الأحياء والأموات «خلال مطالعة كتبهم».

وقد فاجأ العالم بتأليفه كتابا عن «الحرب النووية» عام ١٩٦٠م، وقد بسط الكثير من المفاهيم العسكرية، وأصدر كتابا آخر وهو «التفكير فيما يتجاوز الفكر».

إلقاء كلمة جماهيرية: إن إلقاء كلمات رنانة في لقاء جماهيري حاشد قد تكسبك نقاطا كبيرة تضيفها إلى أدواتك الترويجية، فتوصل صوت إنجازاتك ونجاحاتك لأقصى عدد ممكن، فتكسب في صفك عددا لا يستهان به من المؤيدين.

الإسهام: انضم لإحدى النقابات أو الاتحادات أو الجمعيات أو الروابط أو الأندية التي تتوافق مع ميولك وخططك، وانخرط في نشاطاتها المختلفة والإعداد والترتيب لبرامجها، فهي إضافة إلى كونها تصقل مهاراتك الشخصية فكذلك تفتح لك آفاقا رحبة، وتزيد من قطر دائرتك التأثيرية لنفوذك.

كلمة في مجالس صناع القرار: الكلمة التي تتفوه بها في مجالس صناع القرار، حينما يعتنقها البعض ويؤمن بها أحدهم ويتبّناها ويحولها إلى واقع ومشروع عظيم، تكون بذلك قفزت قفزات طويلة في سلم النجاح.

قصتي مع كتابي «حياتك بلون مختلف»:

حينما انتهيت من كتابة كتابي؛ وضعت خطة إعلامية للترويج للكتاب وما يحويه من أفكار ومبادئ وقناعات أؤمن بها؛ إضافة إلى كونه إنجازا أفخر به، وتبلورت الخطة الإعلامية للترويج للكتاب.. فكانت هذه أبرز ملامحها:

- عمل لقاءات تلفزيونية بغرض الحديث عن الكتاب والترويج له.
- عمل لقاءات إذاعية.
- عمل عدة لقاءات في مختلف الصحف والمجلات.
- التعاقد مع أكثر من مكتبة.
- تحويل الكتاب لدورة تدريبية مع بعض التمارين والورش العلمية.
- اقتباس موضوعات من الكتاب في كتاباتي، أشرت فيها للكتاب كمرجع.
- إهداءات للسياسيين والكتاب والإعلاميين وأساتذة الجامعة.
- الترويج للكتاب عن طريق المنتديات في شبكة الإنترنت.
- توزيع بعض النسخ المجانية في دوراتي التدريبية.

فاستثمر عزيزي القارئ هذه اللمعات الترويجية لنشر أفكارك ومبادئك ونجاحاتك في الحياة.. مع تمنياتي لك بدوام التميز والتألق في الحياة.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

الفتوى والتيسير ورفع الحرج (٣/٣).

مضى في العددين السابقين أن الشريعة مبنية على التيسير، وأن رفع الحرج من مقررات الشرع وقواعده العامة، إلا أن لهذا التيسير ضوابط مستقرأة من النصوص الشرعية وكلام أهل العلم المحققين؛ يمكن بيانها مجملة في النقاط التالية:

١- ضرورة الالتزام بالنص من الكتاب والسنة: فكلما زاد تمسك المفتي بالنص الشرعي والتزام الحكم المستفاد منه؛ كان ما يفيده من تيسير ورفع للحرج أبلغ وأسلم.

قال الشاطبي رحمه الله: «فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا بإطلاق مضاد للمشي على التوسط، كما أن الميل إلى التشديد مضاد له أيضا، وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخص تشديد فلا يجعل بينهما وسطا، وهذا غلط، والوسط هو معظم الشريعة وأم الكتاب، ومن تأمل موارد الأحكام بالاستقراء التام عرف ذلك»(الموافقات ٤/٢٥٩).

٢- عدم تتبع الرخص: وهذا من الشروط والضوابط المهمة؛ لأن المفتي لو أفتى الناس بالرخص في كل شيء، وفي كل حال؛ لميع المفتون مسائل الشرع، بل حذر الفقهاء من هذا الأمر، وشددوا النكير على فاعله، قال الزركشي: «فلو اختار من كل مذهب ما هو الأهون عليه ففي تفسيقه وجهان: قال أبوإسحاق المروزي: يفسق، وقال ابن أبي هريرة: لا»(البحر المحيط ٤/٦٠٢).

٣- ألا يتتبع المفتي الحالات الخاصة

حمل الناس على مذهب معين

(٣/٤٢٨/١٠٤٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: ما حكم قيام بعض العلماء باختيار رأي من آراء الفقهاء دون غيره من الآراء، والتشدد والتعصب لهذا الرأي، وتخطئة كل من يتبع غير ذلك، علما بأن كثيرا من هؤلاء العلماء الأفاضل قد لا تتوفر فيهم شروط الاجتهاد؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا يجوز حمل الناس على رأي من آراء الفقهاء في مسألة مختلف فيها مادام هناك اجتهاد معتبر، كما لا يجوز الإنكار على من يأخذ بغير ذلك الرأي، لأن من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن لا يكون المنهي عنه مختلفا فيه بين الفقهاء، لما في ذلك من التضييق على الناس فيما تعم به البلوى، والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون كانوا يختلفون في الأحكام ولا يضلل بعضهم بعضا، ولا ينكر بعضهم على بعض، كما يصلي بعضهم خلف بعض مع ذلك الاختلاف، وفيه تحقيق سماحة الإسلام ويسره، كما ثبت في الحديث الصحيح، «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» كما لا يجوز أن يتصدى للفتيا إلا من توفرت فيه أهليتها، من سعة الاطلاع، ومراعاة الإجماع والخلاف، ومراعاة أعراف الناس التي لا تخالف نصا شرعيا ولا إجماعا فقهيا، هذا إذا كان يفتي متبعا لآراء من تقدمه من الفقهاء، أما إذا كان يفتي باجتهاده فلابد أن تتوفر فيه أهلية الاجتهاد المبينة في كتب أصول الفقه. والله أعلم.

التعصب المذهبي والقبلي

(١٩/٤٧٥/٦٢٢٤)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي: هل يعتبر مسلما من تعصب لمذهبه أو قبيلته على حساب الإسلام؟

أجابت اللجنة بما يلي:

العصبية بمعنى الدعوة إلى نصرة العشيرة أو القبيلة على الظلم حرام، فقد نهى القرآن الكريم عن التعاون على الإثم والعدوان، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، فقال عز من قائل: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(المائدة:٢)، وتظاهرت الأحاديث على النهي عن العصبية بكل أشكالها وصورها: العصبية للقبيلة أو للجنس أو للأرض، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية»(أخرجه أبوداود). وقال عليه الصلاة والسلام في العصبية للقبيلة: «دعوها فإنها منتنة»(رواه البخاري ومسلم). وكانت العصبية للقبيلة ونصرتها -ظالمة كانت أو مظلومة- سائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، فأبطلها الإسلام، وحرم العصبية، والتناصر على الظلم. وقد جاء في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل: أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ فقال: تحجزه أو تمنعه

بوقائع معينة، أو ما كان استثناء من الأصل لبيان معنى معين: فلا يجوز للمفتي أن يعمم وقائع خاصة بأشخاص معينين إلى غيرهم من أفراد الأمة اتباعا للتيسير والتخفيف.

٤- ألا يترتب على الفتوى بالأيسر مصادمة الشريعة: فلا يكون التيسير تيسيرا إذا عارض مصادر التشريع وأصولها ومبادئها، أو عارض مقاصد الشرع ومصالحه.

٥- مراعاة القواعد الفقهية الحاكمة على التيسير: والالتزام بمفهومها وشروطها، كقاعدة «المشقة تجلب التيسير»، و«الضرورات تبيح المحظورات»؛ فإنها مقيدة بقاعدة: «ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها»، و«ما جاز لعذر بطل بزواله»، وهكذا باقي القواعد المؤثرة.

٦- بقاء مسوغات التيسير ودواعيه: وهي الأسباب التي دعت المفتي إلى التيسير على المستفتي، من تبدل أحوال الناس بتغير الزمان والمكان والعرف، أو زوال الأعذار عن أصحابها، واعتبار المآلات بما يؤدي إلى المصالح، ودفع المفاسد، وشيوع البلوى وعمومها، فيزول التيسير بزوالها.

ومن صور التيسير في زمن الوحي: حديث أبي هريرة رضي الله عنه في شأن الذي واقع أهله في رمضان وهو صائم، حيث قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت! وفي رواية: احترقت، وفي رواية: وهو ينتف شعره، ويُحْثِي على رأسه التراب، فقال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا. قال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا. قال: فمكث، فبينما نحن على ذلك أتي النبي بعرق فيه تمر؛ فقال: أين السائل؟ قال أنا. قال: خذ هذا فتصدق به. فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله؟! فوالله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أنيابه؛ ثم قال: أطعمه أهلك»(متفق عليه).

قال ابن حجر في الفوائد المستخرجة من الحديث: «وفيه الرفق بالمتعلم، والتلطف في التعليم، والتألف على الدين»(فتح الباري ٤/٢٠٤).

من الظلم فإن ذلك نصره»(متفق عليه). وجعل المناصرة بين المؤمنين على الحق، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴿٧١﴾﴾(التوبة:٧١). وعد النبي ﷺ ميتة المتعصب ميتة جاهلية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل؛ فقتلةٌ جاهلية»(أخرجه مسلم).

كما أبطل الإسلام التفاخر بالآباء ومآثر الأجداد، قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنوآدم وآدم خلق من تراب»(أخرجه الترمذي).

وجعل الإسلام أساس التفاضل التقوى والعمل الصالح، وفي التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾﴾(الحجرات:١٣). بيّن الله في الآية الغاية من جعل الناس شعوبا وقبائل، وهي التعارف والتعاون، لا التناحر والخصام، فالعصبية بأشكالها للقبيلة أو للجنس أو للون تتنافى مع الإسلام. والله أعلم.

الجدال في العلم

الفتوى رقم (١٨١٤٦)

عرض على «اللجنة الدائمة» في المملكة العربية السعودية الاستفتاء التالي: في أغلب الأحيان أكون مع أصدقائي، نتناقش في أمور دينية، حتى يشتد النزاع بيننا. فما حكم ذلك؟

أجابت اللجنة بما يلي:

المطلوب عند النقاش والمجادلة في مسائل علمية البحث عن الحق بدليله، وعدم التعصب لرأي، فمن كان الحق معه وجب اتباعه، ومن كان الحق ليس معه وجب تركه مع مراعاة الجدال بالتي هي أحسن، لا بالعنف والشدة، وقد أمر الله سبحانه المؤمنين برد النزاع إلى كتاب الله تعالى وإلى سنة نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (النساء :٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴿٤٦﴾..﴾(العنكبوت:٤٦)، وقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾﴾(النحل:١٢٥).

المسند للإمام أحمد بن حنبل

إعداد : خالد خلاوي

يعد كتاب «المسند» من أشهر كتب الحديث، جمعه الإمام أحمد بن حنبل ليكون مرجعا للمسلمين في أسانيد الصحابة ورواياتهم في الحديث. فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث عن ظهر قلب. وقد انتقى المسند من هذا العدد الهائل من محفوظه، فجمع فيه ما يزيد على ٢٦ ألف حديث نبوي رتبها على أسماء الصحابة، فجعل مرويات كل صحابي في موضع واحد، وعدد الصحابة الذين لهم مسانيد في مسنده ٩٠٤ صحابي.

وقد كتب الشيخ محمد أبو زهرة، يرحمه الله، بحثا مطولا في تعريفه للكتاب ضمن سلسلة تراث الإنسانية(١)، ونظرا لأهميته نقدم تلخيصا لما جاء فيه في السطور التالية.

تعريف بالإمام أحمد بن حنبل

هو الإمام الفقيه المحدث أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي، رابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الفقهي المشهور.

ولد أحمد بن حنبل سنة ١٦٤هـ في بغداد ونشأ فيها يتيما، وقد كانت بغداد في ذلك العصر حاضرة العالم الإسلامي، تزخر بأنواع العلوم والمعارف، وكانت أسرته توجهه إلى طلب العلم، فبدأ في سنة ١٧٩هـ يتجه إلى الحديث النبوي، طلبه في بغداد عند شيخه هشيم بن بشير الواسطي حتى توفي سنة ١٨٣هـ، وظل في بغداد حتى سنة ١٨٦هـ، ثم تنقل في طلب الحديث، فرحل إلى العراق والحجاز وتهامة واليمن، وأخذ عن كثير من العلماء والمحدثين، وعندما بلغ أربعين عاما في سنة ٢٠٤هـ جلس للتحديث والإفتاء في بغداد، وكان الناس يجتمعون على درسه حتى يبلغ عددهم قرابة خمسة آلاف.

وقد أكثر العلماء من الثناء على الإمام أحمد بن حنبل، وقال عنه شيخه الإمام الشافعي: «أحمد إمام في ثماني خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة».

وكان أهم حدث مر به في حياته المحنة التي عرفت باسم «فتنة خلق القرآن»، وهي فتنة وقعت في العصر العباسي في عهد الخليفة المأمون، ثم المعتصم والواثق من بعده، إذ اعتقد هؤلاء الخلفاء أن القرآن مخلوق محدث، وهو رأي المعتزلة، ولكن ابن حنبل وغيره من العلماء خالفوا ذلك، فحُبس ابن حنبل وعُذِّب، ثم أُخرج من السجن وعاد إلى التحديث والتدريس. وفي عهد الواثق مُنع من الاجتماع بالناس، فلما تولى المتوكل الحكم أنهى تلك الفتنة إنهاء كاملا.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٢٤١هـ، مرض أحمد بن حنبل ثم مات، وكان عمره سبعا وسبعين سنة.

ترتيب المسند

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «المسند هو مجموعة الأحاديث التي رواها أحمد رضي الله عنه، وضرب في مناكب الأرض ساعيا جاهدا في جمعها. وهو في الحق الخلاصة لما تلقاه من الأحاديث التي دونها بأسانيدها. ولذلك، يبتدئ جمعه من وقت أن ابتدأ أحمد يتلقى الحديث ويرويه من سنة ١٨٠هـ».

ولقد روى عبدالله بن أحمد مسند أبيه، ونشر علمه بين الناس، ثم تسلسلت الرواية عنه بالسماع راويا عن راو، وكانوا جميعا ثقات اثباتا، حتى حفظته الأجيال، واستقر فيها ذخيرة محفوظة من السنة، استحفظ عليها العلماء وتلقوها بالقبول.

ويظهر من أخبار المسند أن عبدالله هو الذي رتب المسند بالوضع الذي نراه الآن، وحاول من بعده محدثون وحفّاظ أن يغيروا ذلك الترتيب، ويجعلوه مرتبا على نسق كتب السنة الصحاح المشهورة، كالبخاري ومسلم وسنن أبي داوود، فإنها مرتبة على حسب الموضوعات، بحيث يرجع إلى الأحاديث المروية في كل موضوع، وبذلك تكون الاستفادة سهلة.

أما ترتيب المسند، كما رتبه عبدالله، فهو أن يجمع

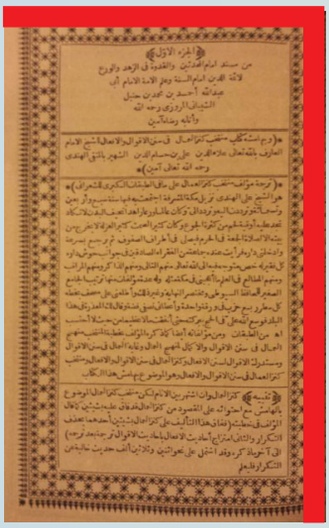

أحاديث كل صحابي في مكان واحد من غير نظر إلى الموضوع، فيجمع كل ما روي عن أبي بكر، ويسمى مسند أبي بكر، وكل ما روي عن عمر ويسمى مسند عمر، وهكذا بقية الراشدين، والفقهاء من الصحابة كزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وغيرهم.

ولم يسلك في ترتيب الصحابة ترتيب الحروف، بل ابتدأ بالأفضل فالأفضل من الصحابة، فابتدأ بالعشرة المبشرين بالجنة (أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن مالك، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأبوعبيدة وغيرهم)، ثم من يليهم وهكذا، حتى إذا وصل إلى التابعين رتبهم هكذا.

الروايات في المسند

أراد الإمام أحمد أن يكون كتابه جامعا لكل السنة التي كان يرويها الثقات في عصره. والثقات عند أحمد هم الذين لم يعرف عنهم أنهم يتعمدون الكذب، فكان يروي عن أهل التقوى، وإن عرف عنهم أن ضبطهم لم يكن كاملا، ولكن يقدم عليهم أحاديث الضابطين إذا عارضتها، ويقبلها إذا لم يكن في الموضوع سواها، ويضعها في مسنده.

والإمام أحمد يشترط اتصال السند لكي يكون الحديث صحيحا، فأحمد لا يقبل الحديث المرسل، والمرسل عنده هو الذي انقطع سنده عند التابعي، أو انقطع سنده في أي جزء من سلسلة السند. ويعد هذا النوع من الأحاديث ضعيفا، فلا يعمل به إلا حديث لا يكون سواه، لأنه يرى أن العمل بالحديث الضعيف يقدم على الرأي أيا كانت صورة الرأي، ويضعه في مسنده إذا لم يوجد ما يعارضه.

والإمام أحمد يشترط سلامة متن الحديث من الشذوذ والنكارة، فهو ينقد المتن في دائرة ضيقة، وذلك بأن يبحث عن موافقته لصحاح الأحاديث الثابتة، فإن وجده يعارض بعضها رده، ولم يقبله، وإن وجده لا يخالفها قَبِلَه وعمل به، وأثبته في مسنده.

وقد قال أحمد بن حنبل لابنه عبدالله في طريقته في تدوين مسنده: «قصدت في السند الحديث المشهور، وتركت الناس تحت ستر الله تعالى. ولو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو من المسند إلا الشيء بعد الشيء، ولكنك يا بني تعرف طريقتي في الحديث، لست أخالف ما ضعف، إذا لم يكن في الباب ما يدفعه».

ولم يكن في عصر الإمام أحمد -رضي الله- عنه إلا تقسيم واحد للحديث، وهو أن الحديث إما أن يكون صحيحا، وإما أن يكون ضعيفا، ويدخل عنده في باب الحديث الضعيف الحديث الذي سُمي من بعد عصره الحديث الحسن الذي يكون رواته مستوري الحال، فقد كان أحمد يقبله إذا لم يكن في الباب سواه، ويرفض رواية من عرف بتعمد الكذب، ومن لم يُعرف بالتقوى.

وبذلك يتبين لنا أن الإمام أحمد إذا كان يصرح بأنه يقبل الضعيف ويقدمه على القياس إذا لم يكن في الباب ما يدفعه، فإن ذلك مؤداه أن يقبل المستور، أو غير الضابط ضبطا كاملا أو المرسل، لأنه يعد كل هذه الأنواع من الروايات الضعيفة، ولكنه لا يقبل الأحاديث التي يكون رواتها قد عرفوا بتعمد الكذب، أو ثبت أنها معارضة للأحاديث الصحيحة، أو بعبارة عامة الأحاديث التي ثبت أنها متروكة المعنى لمخالفتها المعروف من السنة.

الاهتمام بالمسند

ويلاحظ أن العلماء من بعد أحمد كانوا يعملون على القيام بحق المسند، فابنه عبدالله قد زاد فيه ما يشبهه، وإن كانت الزيادة قليلة، وقد رتبه على النحو الذي نراه. وجاء من بعد ذلك في القرن الثامن من حاول أن يرتبه على حسب معجم أسماء الصحابة، لا كما هو على حسب مراتبهم في الصحبة، ثم جاء ابن كثير، فرأى أن يجعله الموسوعة الكبرى التي تشتمل على كل الأحاديث والسنن وآثار الصحابة والتابعين المروية، فأتم كل سند فيه، حتى جاء إلى سند أبي هريرة فكف بصره قبل أن يتمه.

وإذا كان الماضون قد صنعوا كل ذلك مع المسند، فإنه ما زال علينا أن نقوم بأمرين مهمين تجاه هذا السفر الجليل:

أولهما: تغيير ترتيبه وجعله على حسب الموضوعات لا على أسماء الصحابة أو مراتبهم، مع بقاء الأصل من غير تغيير، فيكون له عندنا ترتيبان: أحدهما، ترتيب عبدالله بن أحمد، وله مزاياه لأهل العلم. وثانيهما، الترتيب الموضوعي، وله فائدة جليلة.

ثانيهما: أن تدرس أحاديثه دراسة فاحصة، فما لا يثبت وضعه أو معارضته للصحاح يبقى، وما يعارض الصحاح وتتبين معارضته، يبعد، وكذلك ما يثبت وضعه يبعد، وإنه لنادر جدا، حتى قال بعض العلماء لا وجود له، والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

هوامش

(١) المسند لابن حنبل، الشيخ محمد أبو زهرة، تراث الإنسانية، ج١، ص ١٩٠ وما بعدها، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، من دون تاريخ.

سؤال التربية

الكثير منا يعرف مقولة المربي الأول ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة».

ولكن القليل منا من يستطيع توظيف هذا الموقف النظري في تعامله مع الطفل، لأن المتأمل في نوع التدخل الذي نقوم به تجاه سلوك أطفالنا يدرك مباشرة أننا نتعامل معهم على اعتبار أنهم حالة تربوية منحرفة، يلزمنا تقويمها، لا باعتبارهم كيانا إنسانيا سليما، كما يقتضيه فهمنا لمعنى «الفطرة» الوارد في الحديث الشريف.

لهذا فالإيمان بأن كل مولود يولد على الفطرة ليس مسألة حفظ بالجنان وحديث باللسان، بل هو تصور عقدي ينبني عليه التزام عملي تربوي ثابت، والانحراف عن هذا التصور يجعل سلوكنا تجاه أبنائنا، منذ البداية، محكوما عليه بالفشل الذريع. إذ إنه من مقتضيات الإيمان بولادة الإنسان على الفطرة: الاعتقاد بأن الله تعالى قد منح الطفل من الملكات الفطرية والقدرات الأولية ما يؤهله ليسير في رحلته في هذه الدنيا على هدى وصواب، وبذلك التصور سيتحدد نوع تدخلنا في كيانه، والذي يتجلى في وظيفة محددة هي: الإنضاج والتنمية، لا التقويم والتسوية، أي ستقتصر وظيفتنا تجاه الطفل على تقديم يد المساعدة له حتى ينضج تلك الملكات وينمي تلكم القدرات.

يقول الغزالي: «الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال إليه. فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب. وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له..».

وتبقى التربية أمانة في أعناقنا لابد أن نحسنها بدءا بدوام الأبوين على الدعاء بأن يصلح الله سبحانه الأبناء، وينبتهم النبات الحسن كما جاء في قول الله تعالى:

-على لسان امرأة عمران: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(آل عمران:٣٦).

- وعلى لسان سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ (آل عمران:٣٨)،

- وعلى لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ (إبراهيم:٤٠).

- وعلى لسان عباد الرحمن يقول سبحانه: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامٗا ٧٤﴾(الفرقان:٧٤).

- وعلى لسان كل مؤمن معترف بأنعم الله عليه، يقول جل جلاله: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾(الأحقاف:١٥).

عبدالحق بوزرب

الرسول ﷺ ومراعاة مشاعر الناس

يهدف الإسلام إلى إسعاد الناس وصلاحهم، لذا وضع كثيرا من المبادئ والأسس لصون المشاعر ومراعاة الأحاسيس، لأن هذا يزيد الود بين الناس.

رأيت معلما ينادي أحد طلابه قائلا: «أقبل يا أعمى» ويجرح مشاعره بذلك، وشخصا يرى مريضا فيقول: «الحمد لله الذي عافاني من هذا البلاء» ولا يراعي أن يقولها في سره كي لا يجرح مشاعر المريض، وقد دعا الإسلام إلى الكلمة الطيبة، حيث يقول تعالى، موجها رسوله ﷺ في حواره مع الكفار: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾(سبأ:٢٥)؛ فلم يقل: لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون، ويقول جل شأنه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ٨٣﴾(البقرة:٨٣)، ويقول أيضا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ٥٣﴾(الإسراء:٥٣).

بل لقد راعى الإسلام عدم جرح مشاعر المخطئ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سجلا من ماء»، ثم قال للأعرابي: «إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر، إنما هي للصلاة وقراءة القرآن».

كان النبي ﷺ يراعي السائلين ولا يجرحهم، وإن كان السائل لا يستحق

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

المرأة.. أقوال وخواطر

أختي، إليك طائفة من النصائح ألقاها فئة من أهل العلم والأدب، قديما وحديثا، يمحضونك فيها النصح، ويرشدونك إلى ما فيه خيرك وصلاحك ونجاتك من براثن الذئاب المفترسة الذين ما فتئوا يسولون لك طريق الغواية والرذيلة، حتى تقعي في حمأة الشهوات، فتتزودي بذلك من أعمال جهنم لا من أعمال الجنة.

● مصطفى صادق الرافعي: «أساس المرأة في الطبيعة أساس بدني لا عقلي، ومن هذا كانت هي المصنع الذي تصنع فيه الحياة، وكانت دائما ناقصة لا تتم إلا بالآخر الذي أساسه في الطبيعة شأن عقله وشأن قوته».

● الرافعي: «كم من امرأة متحجبة وهي عارية الروح، وكم من سافرة وروحها متحجبة».

● الرافعي: «لا تغضب من حماقة امرأة تحبها، ولا تغضبي من حماقة رجل تحبينه، وإلا فأين تدس الحياة سمها إلا في ألذ أطعمتها؟»

● الرافعي: «لو كنت قاضيا ورفع إلي شاب تجرأ على امرأة فمسها أو احتك بها أو طاردها أو أسمعها، وتحقق عندي أن المرأة كانت سافرة مدهونة مصقولة متعطرة متبرجة، لعاقبت هذه المرأة عقوبتين: إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب.. والثانية بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر».

● الرافعي: «ما أعجب تناقض المرأة! هي تريد أن تستقل فتخرج عن طاعة الرجل، وهي لا تسعد إلا حين تجد رجلا تشعر من حبه بوجوب طاعته».

● الرافعي: «مهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظم منها بأنه رجل، ولكن المرأة حق المرأة هي تلك التي خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان، فتكون له وحيا وإلهاما وعزاء وقوة، أي زيادة في سروره، ونقصا من آلامه».

● الرافعي: «لن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد، هو صفاتها التي تجعل رجلها أعظم منها».

● محمود محمد شاكر: «كانت المرأة هي فن الفن للإنسانية، وهي الشاطئ الوادع لبحر الحياة المتموج، وكانت الظل الرطيب في بيداء موقدة تحت أشعة الشمس المحرقة، وكانت هي السكن للقلب المسافر دائما في طلب أسباب العيش والحياة. فجاء فن المدنية الحديثة فجعل الشاطئ بحرا آخر يموج موجا فنيا مغريا يجعل السباحة المجهدة فيه ضربا من الراحة، وتركت الظل الرطيب حرارة مستعرة تحرق، ولكنها تحرق بلذة، وفرشت السكن حتى مدته طريقا بعيدا مترامي يسافر فيه القلب سفرا بعيدا في أحلام وفتنة وجديد لا يتقادم».

● بسمرك الألماني: «إن للنساء مقدرة عجيبة في غرس مبادئهن في عقول وقلوب أولادهن وأزواجهن، لأنهن خلقن ليستولين على القلوب، والرجال خلقوا لإخضاع العقول. وفي سياسة الأمم نرى أن السيادة تكون غالبا للقلب والعواطف أكثر منها للفهم والإدراك».

عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «إنما النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه».

بشار بكور

المال رده النبي ﷺ ردا جميلا بكلمة طيبة ولم يجرحه؛ فعن عبيدالله بن عدي بن الخيار قال: أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي ﷺ في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة، فسألاه منها، فرفع فينا البصر وخفضه، فرآنا جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»(صحيح، مسند أحمد١٧٥١١).

محمود عبد القادر

سعادة الأستاذ فيصل يوسف أحمد العلي

يحفظه الله

رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد:

فأسأل الله جل وعلا لسعادتكم دوام الصحة والعافية.

أخي العزيز: تسلّمت بيد الشكر والامتنان مجموعة الكتب المطبوعة الأخيرة المرسلة من قبل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطاع الشؤون الثقافية، وقد وُفِّقتم في إخراجها الإخراج الحسن، فالشكر مكرر على إخراج هذه التحف العلمية، وجزاكم الله خير الجزاء على حسن الاختيار، وعلى حسن صنيعكم بما تمدون به الباحثين من أعمال علمية مفيدة.

أخي العزيز: قد اطلعت على قائمة إصدارات الوزارة، وأتمنى لو يُسِّر اقتناؤها في الأسواق للدارسين، وإني بحاجة إلى الكتب التالية:

١- الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.

٢- التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف النقل فيها عن الإمام مالك بن أنس.

٣- الاجتهاد بالرأي في عصر الخلافة الراشدة.

٤- أصول الفقه عند الصحابة معالم في المنهج.

وإني على استعداد لدفع الثمن، ولسعادتكم مني خالص الشكر والتقدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المخلص عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان

المملكة العربية السعودية، مكة المكرمة.

مراحل الوقوع في المعصية!

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله:
«دافع «الخطرة»، فإن لم تفعل.. صارت «فكرة»؛ فدافع الفكرة، فإن لم تفعل.. صارت «شهوة»؛ فحاربها، فإن لم تفعل.. صارت «عزيمة وهمة»، فإن لم تدافعها.. صارت «فعلا»، فإن لم تتداركه بضده.. صار «عادة»؛ فيصعب عليك الانتقال عنها!».
(الفوائد ص ٣١).

حكم وروائع

- من أيقن بالخلف جاد بالعطية.
- الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته، والمعاتبة خير من القطيعة، والقطيعة خير من الوقيعة.
- إن من السكوت ما هو أبلغ من الجواب.
- افرح بما لم تنطق به من الخطأ مثل فرحك بما نطقت به من الصواب.
- استأنس بالوحدة من جليس السوء.
- لكل شيء بذرة، وبذرة العداوة المزاح.
- العاقل يسالم عدوه إذا اضطر إليه.

(الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص١٠)

عليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه

لابد لكل إنسان أن يتقي، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم، بل الذي يريده هذا يبغضه هذا، فلا يمكن إرضاؤهم كلهم، كما قال الشافعي رحمه الله: «رضى الناس غاية لا تدرك».
فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه فلا تعانه، فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور.
(شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ص٢٩٨)

الشكر

قال الجنيد رحمه الله: سألني السقطي: ما الشكر؟
فقلت: ألّا يستعان بنعمه على معاصيه.
فقال: هو ذاك يا أبا القاسم.

(تاريخ بغداد ٢٤٤/٧)

المكان المنخفض أكثر ماء

قال أحد السلف: «المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أكثرهم ماء»

(الجامع للخطيب ٣٠٠/١)

انتقاء الشيوخ

روى البيهقي عن النخعي قال: كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه.
وعن شعبة أنه قال: قلت للحكم بن عيينة لم لم ترو عن زاذان؟ فقال: كان كثير الكلام.
(تدريب الراوي ٣٠١/١، وتهذيب التهذيب ٣٠٢/٣).

انضباط في العمل

قال معاذ بن معاذ لابنه في يوم مطير: أي بني، امض بنا نجلس للناس. فقال ابنه: يا أبت هذا يوم مطير لا يجيء فيه الناس. فقال: يا بني، امض بنا، فبم نستحل أن نأخذ كل يوم كذا وكذا درهما؟ وخرج وجلس.
(أخبار القضاة لوكيع بن خلف بن حيان ١٣٨/٢)

سوء عاقبة المعصية

قال إبراهيم بن العباس الصولي (من كتبة الدولة الأموية) يصف سوء عاقبة المعصية:... وقديما غذت المعصية أبناءها، فحلبت عليهم درها مرضعة، وبذلت لهم من أمانيها مطمعة، وركبت فيهم مخاطرها موضعة، حتى إذا رتعوا فأمنوا، وركبوا فاطمأنوا، وانقضى رضاع، وآن فطام؛ سقتهم سما، ففجرت مجاري ألبانها منها دما، وأعقبتهم من غذائها مرا، وحطت بهم من معقل إلى عقال، ومن غرة إلى حسرة: قتلا وأسرا، وإجاحة وقسرا.
وقل من أوضع في الفتنة مرهجا في لهبها، ومقتحما عند ضلالها إلا استقحمته، آخذة بمخنقه، وموهنة بالحق كبده، حتى تجعله لعاجله جزرا، ولآجله حطبا، وللحق موعظة، وللباطل حجة. ذلك لهم جزاء في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وما ربك بظلّام للعبيد.
(الحديقة لمحب الدين الخطيب ص ١٣١٧)

السريرة

قال ذو النون رحمه الله: «كان العلماء يتواعظون بثلاث، ويكتب بعضهم إلى بعض: من أحسن سريرته؛ أحسن الله علانيته. ومن أصلح ما بينه وبين الله؛ أصلح الله ما بينه وبين الناس. ومن أصلح أمر آخرته؛ أصلح الله له أمر دنياه»

(سير أعلام النبلاء ١٤١/١٩)

جمود النقلة وانبساط المتكلمين

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله: «احذر جمود النقلة، وانبساط المتكلمين، وجمود المتزهدين، وشره أهل الهوى، ووقوف العلماء على صورة العلم من غير عمل، وعمل المتعبدين بغير علم»

(صيد الخاطر ص١٢١)

علو الهمة

قال الربيع: «لم أر الشافعي آكلا بنهار، ولا نائما بليل؛ لاهتمامه بالتصنيف».

(تدريب الراوي ١٥٣/٢)

أخطر اللصوص

قال العلامة ابن الجوزي رحمه الله: «ليحذر من لص الكسل؛ فإنه محتال على سرقة الزمان»

(صيد الخاطر ص٣٨٢)

أكرم مهر

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب أبو طلحة أم سليم، فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهري؛ فأسلم. فكان ذلك مهرها.

(فتح الباري ١١٥/٩)

ابتسامة

أشعب في ضيافة صديق

نزل أشعب في ضيافة صديق له، فقدم له أربعة أرغفة، وذهب ليحضر له لحما، ولما رجع وجده قد أكل الخبز، فذهب وأتى بخبز فوجده قد أكل اللحم.

فسأله الرجل: أين مقصدك؟

قال أشعب: إلى الشام.

قال الرجل: ولماذا؟

قال أشعب: بلغني أن بها طبيبا حاذقا في الأمعاء، وأنا منذ وقتٍ قليلُ الشهوة للطعام.

فقال الرجل: إن لي إليك حاجة.

فقال أشعب: وما هي؟

قال الرجل: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك علينا.

(موسوعة سين جيم ٥٤٦/٤)

إنصاف أهل العلم

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة، هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده؛ فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين».

(إعلام الموقعين ٢٢٠/٣)

نصيحة من عمر رضي الله عنه

عن وديعة الأنصاري قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول –وهو يعظ رجلا–: «لا تتكلم فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله عز وجل ويطيعه، ولا تمش مع الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تطلعه على سرك، ولا تشاور في أمرك إلا الذين يخشون الله سبحانه».

(كتاب العزلة للخطابي ص ٧٣)

حكم عربية

- ما استب رجلان إلا غلب ألامهما. **(الزبرقان بن بدر)**.
- لو تأملت أحوال الناس؛ لوجدت أكثرهم عيوبا أشدهم تعييبا.

(الجاحظ)

دواء للحفظ

قال علي بن خشرم: رأيت وكيعا وما رأيت بيده كتابا قط، وإنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ، فقال: «ترك المعاصي، ما جربت مثله في الحفظ».

(تهذيب التهذيب ١٢٩/١)

الحكمة ضالّة المؤمن

السيد زرد
عضو اتحاد كتاب مصر

من الحقائق الكبرى والجلية في الإسلام أنه دين يقوم على العقل ويرتكز على المعرفة، فالنظرة الكلية للإسلام حول «الله والكون والإنسان» تفرض على الإنسان العلم بكل ما يحيط بحياته، بدءا من الخالق جل شأنه، وانتهاء بواجباته في هذه الحياة. لا فرق بين واجباته نحو الله، وواجباته نحو إخوته البشر، وواجباته في العمل المحتوم عليه لعمارة الأرض والإصلاح فيها.

فالقرآن يهيب بالإنسان أن ينظر ويتأمل؛ فيتعرف إلى نفسه وإلى ما حوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾(الطارق:٥)، ويوجهه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١)، ويرشده: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:٢٠).

لقد منح الله الإنسان عقلا كي يفكر به، ويهتدي بنوره، فتلك وظيفة العقل وثمرته المرجوة، والله جل شأنه يكره أن يهدر الإنسان هذه المنحة الربانية فيحيا أحمق وهو يستطيع الرشد، بليدا وهو يقدر على النظر والفهم.. وكل تدين يصحبه فساد في الفطرة، وشلل للعقل؛ هو تدين عديم القيمة، لأنه أمات الحقيقة الإنسانية، وجعل تعاليم الدين أعوادا تغرس في الصخر، لا تورق ولا يرجى منها ثمر.

إن الإيمان الحق -من منظور الإسلام- ليس تخمينات عقل ضرير في فضاء من الأوهام الذاتية، وإنما هو أثر لتفاعل الإنسان مع الحياة والأحياء. ومن هنا كان العلم والدين متلازمين، بل إن أحدهما -في منطق القرآن الكريم- سبب ونتيجة للآخر.

والعلم الذي يحض الإسلام على طلبه والتزود منه، ليس علما معينا، فكل ما يوسع منادح النظر، وآفاق الإدراك، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود والموجودات، ويتيح له إعمار الأرض، والسيطرة على ثرواتها، والإفادة من ذخائرها، هو علم مطلوب إسلاميا. فالعلم ليس له وطن خاص، ولم ينفرد به شعب بذاته أو جيل بعينه، إذ إن منابع المعرفة -كما صورها أحد الفقهاء المعاصرين- كالسحب السيارة في السماء، لا تحتبس في أفق، ولا يحتكرها نظر. فلا حدود؛ إن «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»(رواه الترمذي وابن ماجه)، فلا يصح أن تقف بين المسلم وطلب العلم حدود أو مشاق: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة» (رواه مسلم).

فليس في الإسلام جنسية جغرافية للمعرفة، إذ إن المفاهيم والمنجزات العلمية في الشريعة الإسلامية تفرز على أساس موضوعي لا على أساس شخصي، ولذلك تعامل النبي ﷺ مع ثقافة عصره بشكل إيجابي، وتعاطى مع منتجات الدول الأخرى، وثقافات القوى الكبرى. إن علوم الحياة يمكن النظر إليها باعتبارها مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وبلورة حقائقه، فالحاجز رقيق جدا بين ما هو دين محض وما هو ديانة محضة، وتطبيقات العلم من مخترعات وآلات، ما هي إلا وسائل قد تخدم الخير وقد تخدم الشر، ولا صلة لها بالأديان. وهو ما شدد عليه الرسول ﷺ بقوله: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» (رواه ابن ماجه).